

أبريل 2017

418

آكلو اللوتس

الجزء الثاني

رواية

تأليف: تاتيانا سولي
ترجمة: زهرة حسن
مراجعة: د. أحمد البكري

آكلو اللوتس

الجزء الثاني



آكلو اللوتس

الجزء الثاني

رواية

تــألــيــف: تاتيانا سولي

تــرجــمــة: زهرة حسن

مــراجــعــة: د. أحمد البكري



تصدر كل شهرين عن

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

التنضيد والإخراج والتنفيذ: وحدة الإنتاج

في المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

التدقيق اللغوي: وائل أحمد حمزة

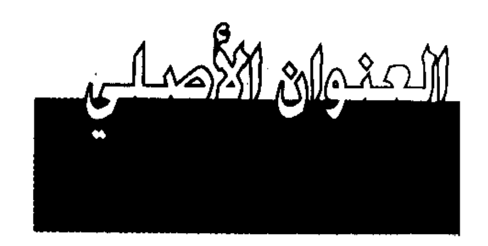
www.nccal.gov.kw

ebdaat_alamia@nccal.gov.kw

ebdaat_alamia@yahoo.com

ISBN: 978-99906-0-551-8

آكلو اللوتس
رواية



Lotus-eaters

الطبعة الأولى - الكويت

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2017م

إبداعات عالمية - العدد 418

صدر العدد الأول في أكتوبر 1969م

تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني

(1990 - 1923)

المقدمة

نتابع في الجزء الثاني من «آكلو اللوتس» أحداث الرواية هناك في غابات فيتنام وطبيعتها الساكنة التي تنتظر شيئا ليوقظها، مع شخصياتها وحياتهم المهددة طوال الوقت، حيث يفقدون إحساسهم بالوقت والزمن وحتى بالوجود الذي حولَهم، كما لو أنهم الوحيدون على وجه الأرض. ولحظات الخطر تلك تجعلنا نحن كقرّاء متورطين معهم حتى نشمّ روائح النار والبارود ونتمكن من سماع دقات قلوبنا وقلوب شخوص هذه الرواية المثيرة.

«آكلو اللوتس» أكثر بكثير من تسجيل أحداث تاريخي عن مكان أظهر عدمَ اكتراث للعنف.. مع كل صفحة سيشعر القارئ بثراء الأسلوب والحدث والحالة الإنسانية كما لو أنه جزء منها ويعيشها وتعنيه بكل جوانبها.

نتابع مع هيلين ودارو ولين أحداث الحرب التي انغرست في أرواحهم كعقيدة فأدمنوها، وأصبحت جزءا منهم ومن كيانهم وحياتهم، فأصبح صخب المعركة إدمانا قويا، وكاد أن يكون قاتلا ليعاود سحبهم كل مرة إلى معارك جديدة. فهم لم يكونوا جنودا مجبرين على اتباع الأوامر، وبصرف النظر عن كل الميزات والمجد والتقدم المهني والهيبة، فكل ذلك كان فارغا وزائفا في وجه الموت، لكنهم شربوا أسطورة الحرب ولم يتمكنوا من العودة إلى الحياة الطبيعية التي لا يمكن لها أن تنافس شغف الحرب وقوّتها.

قالت له: «الشيء الرائع في حالتنا يا حبيبي أنه حين تنتهي هذه الحرب هناك دوما حرب أخرى..».

ثـم كان الحـب، كان لـين الرجل الجيد، لم تحبه منـذ البداية، لأن الخطـأ الـذي ترتكبه المـرأة في بعض الأحيـان أنها تغفل عن الرجـل الجيـد وتحـب الأنانـي، تغفل عـن الرجل الجيـد لأنه لن يحـاول أن يكـون لطيفـا أو مداهنا، ولـن يحاول أن يكـذب عليها ليحمي مشاعرها، لكن كل ما سيفعله هو المحاولة بالقيام بما هو جيـد وصحيح وأخلاقي، ولذا حـاول لين احترام ذكرى دارو بإعادة هيلين إلى وطنها بأمان، وهو الأمر الذي أزعجها وجعلها تظن أنه يرفضها ويجدها عبئا عليه.

داهمهمـا الحـب، ولم يجرؤ فـي البداية على النظـر إليها وجها لوجه بعد كل الخسائر، لكن لم يكن باليد حيلة فقد عرفا أن حياتهما سـتتغير إن التقيا، وأنها سـتتغير وتذوي إن لم يفعلا، ببسـاطة حان الوقت ليكونا عشاقا، وكانا.. لقد كان حبهما مختلفا عن أنانية حب هيلين ودارو، لقد أحبا بعضهما كقديسين وعرفا آلام بعضهما وشعرا بها. جمعتهما الخسـائر، فهيلين خسـرت أخاها من قبل، مما دفعها للقـدوم إلـى فيتنام منذ البداية، ثم خسـرت حبيبهـا ومعلمها دارو، ولين خسر زوجته وعائلته بأكملها في الحرب.. ليتابعا حياتهما رغم كل ذلك مستعينَين بقوة الحب المخلِّصة من رعب الحرب.

ومع هذا، رغم خسائر لين وغموض شخصيته وتكشفها التدريجي أمام القارئ، ومع أنه وجد نفسه محاطا بعدد من الغرباء، فلم يفقد صلتـه بوطنـه، وانفطر قلبـه لما كان يحدث فيه، لكنه لم يسـتطع أن يشرح لهيلين التمني اليائس لوجود أي شيء يوقف هذا الدمار، كان قلبه معلقا بالرجال والنسـاء والحيوانات والأشـجار والعشـب وقمم التلال وحقول الأرز.

وإذا قارنـا بـين القصتـين، يدفعنا ذلك للتسـاؤل: مـا الذي جعل هيلين ترتبط بدارو المتزوج الذي ما كانت لتفكر فيه وهي في وطنها؟

هـل تختلـف معاييرنا في الحكم على الأشـياء باختـلاف الظروف؟ هـل كانـت هيلـين لتقبـل بعلاقتهـا بـدارو المتـزوج وهي فـي وطنها كاليفورنيـا؟ ونجـد أنهـا ربمـا انبهرت بـه ووجدت فيـه معلما ومثلا أعلـى لـدى وصولهـا كفتاة غِـرّة إلى فيتنـام. هل كذبت على نفسـها حين حاولت عدم تصديق وجود زوجة في حياته أو عدم إعطائها أية أهميـة؟ هـل كان عليها العودة، حين وصلت إلى اسـتنتاج أن المرأة لن تكون يوما أهم ما في حياة الرجل كما هو في حياتها؟

وحتـى بعـد رحيـل دارو سـألوها: «متـى سـتغادرين؟». قالـت: «قريبـا..». قالـوا لها: «كوني الأفضل وعملـك لن يخونك». لكنهم أخطـؤوا، فقـد خانها العمل أو هي التي خانته وأصبحت جزءا من الحكايـة، كما سـيصبح القارئ أيضـا جزءا منهـا. فالصورة تخون صاحبهـا، لأن الصـورة الأولى وحتى الخامسـة وحتى المئة كان لها قوة، لكن التكرار في النهاية جعلَ من الرعب سائغا، ومع ذلك فقد أثبتت نفسـها كمصورة، ونجحت كامرأة وسـط أغلبية من الرجال، لكـن مع كل خـروج إلى الميدان كانت الأسـباب التـي تجعلها تغادر تقل تباعا. فكلما مرت ببالها فكرة العودة للوطن أو قابلت شخصا جديـدا آتيـا مـن هنـاك، بكامـل براءته، شـعرت بأن تلـك الأرض الغريبـة وطنهـا، ولدى رؤية اسـمها على الصور فـي المجلات كانت تشعر بأنها مصدر من مصادر صناعة التاريخ لا الكتابة عنه.

سـينجذب القارئ للحب، والشغف، والطموح والولاء والكثير من الحالات الإنسانية الثرية الذي ستجعله يستمتع بقراءة هذه الرواية بتفاصيلها الجميلة التي تغلف كل أحداثها وتصورها كأنها حقيقة.

زهرة حسن

الجزء الثاني

(11)
«باوتشي»
الصحافي

فـــي الصّبـــاح كانت هيلين ســـتذهب في حملة مع أولســـن، نهضـــت وحزمت أغراضها وجهّزت نفســـها ليأتي لين ويأخذها في السّاعة الثّالثة والنّصف صباحا. فتحت الباب على إثر طرق خفيف.

قال لين وهو يقف هناك: «لديّ مشـــكلةٌ مع عائلتي وتحديدا أخت زوجتي، طفلها يعاني من مرض الخنّاق، وهي حديثة العهد بسايغون، عليّ أن أساعدها لتجد طبيبا». تفاجأت هيلين لأنّه لم يتحدّث عن عائلته من قبل.

«بالتّأكيد. أيمكنني المساعدة؟».

«لا. هل تستطيعين الذّهاب من دوني؟».

«لا تقلق. سأكون بخير».

حاول دارو جاهدا النّهوض من السّـــرير ومشى خلفها وقال: «ما الأمر؟».

حملـــت هيلين حقائـــب كاميرتهـــا وقالت: «لين لا يســـتطيع الذّهاب».

فـــرك دارو عينيه، ولبس نظّارته: «تعالـــي معي إلى ماي ثو عصر اليوم عوضا عن ذلك».

«وعَدتُ أن أغطّي هذا الحدث. بالإضافة إلى ذلك سـأكون مع رفاقـي القدماء في وحدة الكابتن أولسـن، لـم أره منذ أن التقطّت صور الكابتن تونغ». شعرت بالثّقة لأنّها تستطيع الاعتناء بنفسـها، وبحماس قليل أيضا لأنّها تستطيع أن تذهب وحدها، بعـد أن تمّ اتّخاذ القرار بالمغـادرة القريبة. أضفت هذه المهمّات الأخيرة عليها شعورا بالحنين إلى الماضي.

عبـس دارو ونظـر إلـى لين وقال: «هـل أنـت متأكّد أنّك لا تستطيع الذّهاب معها؟».

قالت: «سـأكون بخيـر». امتعضت من معاملتـه لها كما لو أنّها غير كفء بما فيـه الكفاية لتذهب وحدها، فأصبحت أكثر تصميما من قبل. بالإضافة إلى ذلك فإنّ معاملتها له بالمثل يمكن أن تجعل أمور الرّحيل تمضي بشكل أسرع.

بعد مغادرة لين، جلس دارو على السّـرير، شـاهدها تحزم أمتعتها ومعدّاتها الإضافيّة الّتي ستضطرّ لحملها وحدها. وقال لها: «لا تذهبي».

«أنت تسخّف الأمر».

«إكرامـا لي لا تذهبي». لم يكن ينـوي هذا القول لكنّ الأمر أصبح الآن نوعا من الاختبار؛ اختبار لن تخضع هي له.

«أتذكر السّؤال: لمَ النّاس الّذين من المفترض أن يحبّونا أكثر هم أنفسهم من يحاولون إيقافنا عن فعل ما نحبّه؟».

لقد التقى بالشخص المناسب له ولم يعد يهتمّ بالأمر كثيرا.

دمرت المشـكلات مهمّتهم على الفور. ففـي بيان (هوا)، تمّ تحويل مسـار المروحيّات أو إلغاء إقلاعهـا، لذلك لم تصل إلى القريـة الصّغيرة الّتي تمركزت فيها وحدة الكابتن أولسـن حتّى وقت متأخّر بعد الظّهر.

كانـــت القرية تلتصق بطرف الأدغـــال، وكان قد تمّ إخلاؤها وتفجيرها الشّهر الماضي. لم يبقَ إلّا أكوامٌ من الأنقاض والحجارة وعـــدّة جدران واقفة دون أيّة دعامـــة تملؤها فتحات الرّصاص. منذ لقائها بأوّل جنديّ وهي تســـمع الأخبار السّيئة تتزايد أكثر فأكثر، كان الكابتن أولســـن قد أصيب بانتكاســـة (مالاريا) وتمّ إبعاده قبل خمسة أيام. لم يكلّف أحدٌ نفسه عناء إخبارها. وكان البديـــل عنه هو الكابتن هورنر حديـــث التّدريب والذي لم يمض على وصوله إلى البلاد سوى أسبوعين.

أتى صموئيل إلى زاوية الجدار: «سمعت أنّك عدت وأعدت إلينا تعويذة الحظّ الجيّد، أيجب أن تحرق العلقات ركبتيكَ الجميلتَين؟».

عانقته هيلين وقد ســـعدت برؤية وجه مألوف، وقالت: «كيف الحال؟».

هزّ صموئيل رأســـه باتّجـــاه الجنديّ الواقف إلـــى جانبها: «ســـيخبرك بكلّ شـــيء. إنّه مخرّب، لقد فقدنا ثلاثة رجال منذ وصوله إلى هنا إنّه أحمق».

حاولـــت هيلـــين تجاهل الرجفـــة الّتي تتســـلّق ظهرَها. كان ذلك هو أوّل تشـــقّق أصاب ثقتها بنفسها. كانت ابتسامتها مليئة بالشّك. أكان عليها الإصغاء إلى دارو؟».

«ســـنكون محظوظين إن لم يتســـبّب في قتلنا هذا الحقير. أفكّر أن أرحل وأخرج من هنا مع أوّل مركبة تقلّني. ثم أعود ثانية عندما يكون أولسن هنا».

«لن يكون لديك شـــيءٌ تشـــتكي منه حينها». تمنّت لو لم يكن صموئيل أمامها وإلّا لكانت عادت إلى متن المروحيّة.

«كلّ مـــا أقوله لك هـــو أن تكوني حذرة، وأن تدبّري لنا بعض السحر كما فعلت المرّة الماضية».

«أنا نفسي أحتاج إلى بعض السّحر».

كان هنــاك حملةٌ آتيةٌ من طريــق طويل وفي منتصفها رجلٌ نحيــفٌ وضامر الأطراف، كان يتحلّق حول الجميع ويتعرّق بوفرة ويطلق الشّتائم.

«ذلــك». قال صموئيل وهــو يضع يديه حــول كتفيها: «هو قائدنا».

مشــى الكابتن إلى هيلين كما لــو أنّها كانت عقبة أخرى في طريقه يجب عليه التّغلّب عليها قبل إتمام الطّريق الطّويل.

«أعرّفك بصاحبتي». قال صموئيل.

كان هورنر ذا رقبة طويلة ونحيلة يتوسّــطها بروزٌ لتفّاحة آدم الّتي كانت تهتزّ كلّما ابتلع شيئا: «أخمّن أنّك الصّحافيّة الّتي عليّ أن أسمح لها بمرافقتنا».

أبعدت هيلــين ذراع صموئيل بضربة خفيفــة وقالت: «هذا صحيحٌ».

«أخبروني أنّ اسمك آدامز».

«لم يخبــروك الكثير». أحسّــت بالتّعب مســبقا من القتال القادم.

تغضّــن وجهه كما لو أنّه أكل شــيئا حامضــا: «أخمّن أنّهم يجعلون المرء يبدأ من الأسفل؛ من نساء صحافيّات إلى جنود من الدّرجة الثّانية».

شــرد ذهن هيلــين بما قاله صموئيل فلم تســتوعب الإهانة كاملة. كلّ شــيء كان يبدو كدليل على أنّهــا ارتكبت خطأ بعدم العودة، وبالمغادرة على الفور.

«عليك الاعتماد على نفســك باللّحاق بنــا ويُمنَع الاختلاط والتّكلّم معَ الرّجال».

«إلى من أتحدّث إذن؟».

«أنت مصوّرة لماذا تحتاجين الكلام؟». أدار وجهه قليلا ليبصق ثمّ مشىَ مبتعدا.

قـال صموئيل: «أخبرتك بأنّه سـاحر، مـا زال لديك وقتٌ للرّحيل».

أنزلت هيلين حقيبتها وقالت: «سيعذّبه الأمر أكثر لو بقيت».

في تلك اللّيلة أمرَ هورنر بتعليق ستـائرَ بلاستيكيّة بشكل مثلّـث على الجدار المتفتّت بهدف حماية هيلين من بقيّة الجنود. اسـتلقت في الظّلام وهي ترتدي كامل لباسـها وحذاءَها. كانت النّجـوم تخفق فوق رأسـها كما لو أنّها بقع نـار صغيرةٌ أعادت ذاكرتها إلـى مواقد ليالـي الصّيف على الشّـاطئ في وطنها. بعد القرية عنها جسّـدته أصـوات اللّيل وصرخات ذعر الطّيور في أعماق الأدغال، كما أن همهمة الحشـرات أشعرتها بالأُنس والسّـكينة. لم يكن الطرفان يحاربان حربا واحدة. كان كلّ شيء معروفا بالنّسـبة للفيتناميّين فقد كان هـذا هو وطنهم حتّى لو كانوا من الشّـمالَ. أمّا بالنّسـبة للأمريكان فحتّى أصوات اللّيل كانت غريبة ومهدّدة بالخطر.

ضايقتهـا فكـرة أنّها فقـدت فرصتها مـع دارو بإصرارها على الذّهاب وحدها. لكنه كان مسـلّما بالأمر وعدَّه بدَهيّا أنّها ستتخلّى عن أيّ شيء لأجله. وعلى العكس منه لم يكن قد مضى على وجودها كثيرٌ من الوقت في فيتنام، كانت قد بدأت لتوّها.

أصدر العازل البلاستيكيّ صوتَ صرير وظهر رجلٌ من تحته وهمس: «صه... صه».

أغلقـت هيلين عينيها قليلا لعـدم قدرتها على التّعرف على الوجه لكنّها عرفت الصّوت وقالت: «اخرج يا صموئيل».

«ما رأيك ببعض مما كنا نحصل عليه في فندق لاوس أو ربّما ترغبين بجرعة من نبيذ داجو ريد؟».

«لا.. شــكرا» صدرت منه رائحــةٌ عفنةٌ، فقد كانوا في مهمّة لعدة أيّام بينما هي كانت مستحمّة ذلك الصّباح.

«حدّثيني، أخبريني عن العالم الكبير الرّائع».

«إذا وجدك القائد هنا سوف يسجنني».

«إنّه يصدر صوت شخير ولديّ من يراقبه».

«ليست هذه فكرة جيّدة». كانت تدعو الله كما لو كانت طفلة لكن الوضع كان خطيرا.

«رائعٌ أن أراك من جديد.. ليس لديك أدنى فكرة، عن روعة لمس شيء ناعم». مدّ يده ووضعها على معَدتها.

«إذا لــم ترحــل عندما أعدّ إلــى ثلاثة فســأصرخ وأوقظ الجميع».

ســحب يده وقال: «تذكّري هذا فقط؛ إنّني أذهب إلى النّوم كلّ ليلة وأنا أحلم بالاســتلقاء إلــى جانبك في وكر الثّعلب ذاك. وهذا أقرب ما استطعت أن أصل إليه مع أية امرأة منذ فترة».

«لقــد حطّمتَ قلبي، طابت ليلتك يا صموئيل». قالت بصوت عال وذهب تحت غطاء بلاســتيكي آخر. سمعت الضّحكات من حولها في الظّلام.

تركــوا المخيّم عنــد الفجر وبدؤوا المشــي بطابور واحد على طول الطّريق التّرابيّ الضّيق، وقد شــكلت كثافة جذوع الأشجار والكرمة والشّجيرات على كلّ طرف جدارا سميكا انحنى فوقهم ليشكّل نفقا يظلّهم.

تجنّبهــا صموئيل طوال الصّباح ومشــى فــي المقدمة بينما مشــت هي بتثاقل خلف الكابتن هورنر. من الممكن أن يكون وجه

الكابتن بدا أكثر نحولا وعظـــام وجهه بدت أكثر بروزا من اليوم السابق. عندما تحدّث معها. منظر تفاحة آدم جعله يبدو ضعيفا بشكل غريب.

الآن وبعد أن أبعدت نفســها عن صموئيل والرّجال الآخرين بدا أنّ هورنر غيّر رأيه وتحمّس ليشملها في المهمّة ويجعلها ترى الأمــور من وجهة نظره: «هذه المنطقة هي طريق تجارة رئيســيّ تأتي منها المؤن من الشّــمال وعلينا أن نعرف مكانهم ثمّ نســتعد للتّدخل الجويّ».

«يبدو الأمر صعبا». تساءلت إن كان تمّ خداعه ولا يعرف إن كان تمّ إرساله كطُعم ليعرف ما في المنطقة.

«أتعلمين؟ لا يتمّ سؤالي عن رأيي بالمهامّ».

«آسفة».

«هدفي هو أن أعيد كلّ هؤلاء الرّجال إلى القاعدة في خمسة أيّام».

«فهمت».

كان مظهــره الجانبيّ مواجها لها ورأت كيف كانت تفّاحة آدم فــي عنقه تصعد وتنزل مرّتين قبل أن يتحدّث. «لم أرد أن يموت أولئك الرّجال».

نظــرت هيلــين إليه متفاجئــة، لكنّ عيون هورنــر الصّغيرة المتحجّرة لم تكشــف عن أيّ شــيء، وبدا أنّ الكلام لم يكن آتيا منه، قالت: «مفهومٌ».

«لكنّك لا تكتبين، أعني أنّك تصوّرين فقط؟».

كان هورنر يفرض نظاما قاســيا على الرّجال، يأمرهم بعدم التّحدث وترك خمسة أقدام بين كلّ رجل وآخر ومنع إطلاق النّار

إلّا إذا تمّ الإطلاق عليهم. زغما عنها حاز على إعجابها. مشـــوا ليومين في عمق نواحي الرّيف النّائية دون أن يلتقوا بإنسان آخر. تذكّرت هيلين الحملة الّتي كان فيها غموضٌ وهلوســـاتٌ، وصمتٌ كاملٌ يجعل الأذن ترنّ. إذا وقف المرء ساكنا تمكّن من سماع تيّار تحتـــيّ وصوت همهمة في الغابـــة. حتّى صوت الماء على الأوراق الّتي كانت تقطر كما لو أنّها تفرز عرقا.

حجبت الشّـــمس جذوع السّاج الضّخمة، وكانت الخضرة في غاية الكثافة تتشـــابك في الأسفل، حيث كانوا يسمعون أصوات حيوانات لم يروها تركض فـــي الأجمة، بينما تصرخ الطّيور في الأعلى. طافت في الهواء ســـحابة غبـــار خمريّة اللّون. والأرض الّتي كانت كسماد ناعم جعلتهم يتركون خلفهم آثار أقدام كاملة، وفكّرت هيلين بهانســـل وغريتل وكأنهما قد تـــركا أثرا خلفهما. وخلال حرارة اليوم كان الهواء ســـاخنا وســـميكا جدّا لدرجة أنّ مذاقه كان أخضرَ على اللّسان كما لو أنّهم يبتلعون بركة ماء.

لم يكن من مهامّ هيلـــين أن تعرف مكان وجودها، كان عليها فقط أن تتبع الرّجال الّذين أمامها، فأصبحت الأيام سلســـلة من الطّرقات المحفورة الّتي تسلّقوها ومشوا فيها، والوديان الخضراء الضّيقـــة الّتي اجتازوهـــا، ومجاري الأنهار الجافّـــة والصخريّة التي عبروها. اســـتيقظوا في الصّباح ليجـــدوا ضبابا كثيفا قلّل مجـــال الرّؤية لدرجة أنّه لم يتجاوز الـــذّراع الواحدة، مع صوت خنـــق أصواتهم حتّى بدت وكأنّها منزوعةٌ. وبحلول فترة الظهيرة حرقت أشـــعة الشمس فلول الضباب. وعندما وصلوا إلى إحدى الساحات بزغ ضوء الشمس قاسيا وشاحبا ومنذرا بالوعيد.

كانوا مرهقين ومشـــتّتي الانتباه ودائما على حذر من كمين أو من الألغام، وكان الصّمت الملموس كضوء الشّمس يجعلهم حالمين.

وجـــدت هيلين تفكيرها خاليـــا لفترات طويلـــة من الوقت، أفكارها متوقّفة، حاضرها ومســـتقبلها الوشيك وحتّى ماضيها كلّ شيء تراجع.

شـــعرت بالحريّة كلّها؛ الحريّة الّتي شعرت بها طوال حياتها. زاد الوهم في داخلها وكأنّها عاشت طوال الوقت في تلك الغابة. بدا في بعض الأوقات أنّهم البشـــر الوحيـــدون الّذين تبقّوا على وجه الأرض، وبدا وجود مدن مثل سايغون ولوس أنجلوس مجرّد خيال.

بعـــد ليلتين من حادثة صموئيل وضعت هيلين علبة ســـجائر على فراشه. وفي الصّباح التّالي وجدت هرما صغيرا من الدّراق المعلّب عند أغراضها.

عاود صموئيل المشـــي أمام هيلين من جديد مستعيدا بذلك دور أخيها الأكبر.

«امشي خلفي تماما، فأنا مسحورٌ ولن ينال منّي أيّ لغم».

في صباح اليوم الخامس وصلـــوا إلى هدفهم، وهو هضبةٌ صغيـــرةٌ تطـــلّ على واد توجد قريـــةٌ في أســـفله. الرّاحة الّتي ظهرت على وجـــه هورنر جعلت هيلين تبدأ بالإعجاب بالرّجل. عندما بدؤوا بالاتّصال اللّاســـلكي تلقّوا أوامر بترك المسير في الحملة بأســـرع وقت ممكـــن والتّحرّك نحو الطّريق الرّئيســـيّ والتّوجه شمالا. ستأخذهم قافلةٌ على طريق آخر وتضمّهم إلى مجموعتين تعرّضتا إلى إطلاق نار كثيف من قوّات جيش فيتنام الشّماليّ.

انتشـــروا وتحرّكوا بســـرعة على المنحدر العشـــبيّ النّاعم. حرّكت خطواتهم السّـــريعة والطّويلة مئات الجرادات الخضراء المصفـــرّة لتقفز في وجوههم بعلوّ الخصر. شـــعرت هيلين بأنها

كمقدّمة سفينة والعشب يضرب فخذيها وقد وقفت حشراتٌ ذهبيّةٌ خضراء مثل رشّات الماء على مقدّمة السّفينة.

كانت الشّمس ثقيلة، وكانت هناك أصواتٌ خانقةٌ والصّمت العظيم للغابة يمتدّ إلى الوادي، فشعروا أنّهم مسحورون.

صمتت الطّبيعة وانتظرت منهم خطوة واحدة خاطئة لتستيقظ.

وصلوا إلى حقول الأرزّ المحيطة بالقرية. لم يروا أيّ إنسان في أيّ اتّجاه على مدى البصر، واستمرّ السّحر يلازمهم. تغطّت أسطح الحقول بنسيم غير مدرَك بالحواس.

قال هورنر: «سنكلّف ثلاثة رجال عبور الحقول».

نظر الرّجال إلى الأسفل أو بعيدا. لن يتوجهوا عائدين إلى القاعدة بل سيتوجّهون إلى القتال، لم يُرِدْ أحدٌ منهم ذلك الخطر الإضافيّ لعبور الحقل.

أخبر الرّجال هيلين مسبقا بأنّ هورنر أمر الرّجال الّذين ماتوا باستكشاف حقل بعد أن أخبره أحد سكّان القرية بأنّه ملغّم.

سأل هورنر مرّة ثانية: «من يريد التّطوّع؟». والتزم الرّجال الصّمت من جديد.

شعرت هيلين بالغثيان والضّيق مع مضي هدوء الأسبوع الماضي. لأوّل مرّة منذ خمسة أيّام شعرت بحاجة يائسة إلى وجود لين أو دارو.

أخيرا سعل صموئيل وقال: «كابتن نحن بحاجة لأن نلتقي بالقافلة، فلمَ لا نطوف حول الحقل والقرية لنصل إلى الطّريق بشكل أسرع؟».

«طلبك غير مجاب، سننهي المهمّة الأصليّة».

أخذ صموئيل نفسا عميقا وأرادت هيلين أن ترسل إشارة تحذيريّة لكنّها لم تفعل.

«مع كامل الاحترام يا سيديّ فحقلٌ فارغٌ في منتصف اليوم هو حقلٌ حيٌّ».

هزّ رجلان رأسيهما وشرعا في تسلم معدّات إضافيّة. أومأ هورنر برأسه راضيا وقال وهو يحدّق في خريطته: «سنحتاج إلى رجل ثالث».

قال صموئيل وهو يزيل معدّاته عنه: «اللّعنة، حسنا».

قرفصت هيلين وأخذت صورة للرّجال الثّلاثة وهم واقفون على حافّة الحقل. أخذت صورة لصموئيل وهو يخوض في الماء حتّى الرّكبة وهو يستدير ليرفع إبهامه مشجّعا الرّجلين الآخرين بذراعه الّتي يغطّيها وشم التّنين.

سمعت بعد عشر دقائق صرخة صفير من مدفع هاون آت من القرية. انخفضوا جميعا لكن هيلين نظرت في الوقت المناسب لترى انفجار الماء حول صموئيل. الرّجلان الآخران في الحقل تلطّخا بالماء ووصلا إلى صموئيل كما وصلت الطّلقات من مصدر إطلاقها الرّئيسيّ. ركضوا جميعا إلى مأوى خندق الحقل.

صاح هورنر: «اللّعنة». تمدّد على الأرض وعندما رأى هيلين تنهض لتأخذ صورة صاح بها: «انبطحي». توقّف إطلاق القذائف بعد خمس دقائق. الرّجال الثلاثة عدَوا عائدين عبر الماء واندفعوا ليتسلّقوا الضّفة وانهاروا إلى جانب هيلين.

كان صموئيل يلهث: «لم نصب بخدش».

ضحك الرّجال وانتشروا، شربوا الماء من قرَبهم.

بعد أن فكّرت أنّها أخذت كفايتها من الصّور نزعت هيلين عدسة كاميرتها ووضعت الكاميرا بعيدا لتدخّن.

قال أحدهم: «كان ذلك قريبا جدا من الهدف».

قال هورنر: «هل الجميع بخير؟».

قال صموئيل محدّقا بهورنر: «لا. كان ذلك بفضلك أيّها الأحمق».

عاين هورنر القرية بمنظاره ولم يقل شيئا، والجنديّان الآخران بقيا صامتين. كان الهواء كثيفا، تمنّت هيلين أن يتمّ إطلاق قذيفة أخرى لتشتيت انتباههم.

تابع صموئيل: «انظر ناحية الغرب أيّها الأحمق».

سأل هورنر بحزن: «هل وصلت إلى الطّرف الآخر من الحقل؟».

نفخ صموئيل الهواء من شفتيه باستهجان بطيء بعد أن تغلّب على لحظة القتال.

«لا أظنّ أنّك فعلت ذلك». بدا هورنر متعبا غير أنّه كان لطيفا كأب يشجّع ابنه لينهي مهمّة ضروريّة: «عد واعبرّه».

تحرّك الرّجال الآخرون لكنّ هورنر رفع يده وقال: «صموئيل فقط».

لم يكن هناك أيّة حركة إلّا منظار هورنر الّذي يفحص الحقل.

قال صموئيل: «لا».

تنهّد هورنر وأنزل المنظار. ونفض عن قميصه عشبة جافّة وقال: «هذا أمرٌ».

وقف صموئيل من فوره على قدميه بعد أن نزع عنه قراب المسدّس وقال: «اذهب أنتَ».

احمرّ جلد هورنر وبدا مُهانا أكثر ممّا بدا خائفا: «ستتعرّض لمحكمة عسكريّة يا سيّد إن لم تحمل هذا الشّيء». قال وصوته يكاد يكون هامسا.

عندما لم تصدر أيّة حركة من صموئيل مال إلى الأمام وقال: «الآن، قلت».

«إنّه غير معبّأ أيّها الأحمق». قال قبل أن يقترب هورنر خطوة أخرى، أدار صموئيل المسدّس إلى رأسه هو وعبس وأطلق النّار. انخفض الجميع للحظة غير قادرين على استيعاب ما حدث.

بعـــد أن مدّدوه. اتصل هورنر باللّاسلكي آمرا إخلاء طبيّا. ركعت هيلين بجانب الجثّة.

كانت خوذة صموئيل لا تزال على رأســـه فســحب المسعف المكبس من تحت أنفه ورقبته، مرّت موجةٌ من السّواد أمام عينيّ هيلين. الجبهة، العيـــون، الأنف كلّها كانت لصموئيل القديم لكن الفكّ الأسفل كان مفقودا.

كان الدّم يسيل على صدره وافرا بتدفّق. كانت أسنانه العلويّة مكشــوفة بشكل كامل، فاســـتدارت بعيدا بسرعة. أمسك مجنّدٌ بكمّادة ووضعها في الفتحة الّتي تحت الأنف.

«امسكيها بشكل جيّد، حسنا؟».

أومــأت هيلين وأمســـكت بها، النّفس انقطـــع وكان الضّغط يشتدّ خلف عينيها كما لو أنّها أوشكت على الإغماء.

«لا تضغطي على الرّقبة».. صاح المجنّد وهو يثقب الجلد لفتح القصبة الهوائيّة: «ستغلقين مجرى التّنفس».

نفّذت هيلين الأوامر بشكل طبيعيّ. نظرت إلى عينَي صموئيل ونظرته، قالت: «إنّه لم يكن يصدّق حقيقة ما كان يجري أيضا». فنزلت إلى محاذاة إذنه وقالت: «لا تستسلم وتتركني».

بعد عدّة دقائق تعرّض جسمه لاضطرابات عنيفة وكان جذعه يصعد وينزل كما لو أنّ تيّارا كهربائيّا نبض فيه، ورجلاه المتدّتان ترتجفان وذراعاه المتدّتان تدفعان هيلين والمجنّد بعيدا.

«أحتاج مساعدة لإبقائه مكانه».

أتـى أحـدُ الجنود وانحنـى على الجانب الآخر من جسـم صموئيل وثبّت ذراعيه. لم يسـتطع المسعف إعطاءه المورفين لأنّ الجرح كان في الرّأس. استرخى جسم صموئيل بعد دقيقة وزال التّوتـر. عيناه اللّتان كانت جامحتين وقاسـيتين من شـدّة الألم أصبحتا الآن تنظران بشكل أفقيّ. عندما نظرت إلى عينيه كانت نظرته هادئة وحياديّة ويظهر فيها بُعدٌ ووحدةٌ.

وضع المسـعف رباطـا مطّاطيّا حول الضّمـادة فوق الخوذة «لا تخلعوها لكيلا ينزف».

تحرّكـت هيلين ويداهـا ملطّختان بالدّم. لم تـرد أن تُخرج منديلهـا من حقيبة الكاميرا لكـي لا تلطّخ معدّاتها بالدّم. كانت خائفة من القنّاصة، فلم تقترب لتحصل على الماء من الحقل، بل اكتفت بمسـح يديها بسروالها. جلس هورنر على صخرة وحيدا ووجهه متعبٌ ومغضّن وسنوات التّدريب كلّها تمر من أمام عينيه.

عندمـا عادت إلى صموئيل ركّـزت على ذراعيه البرونزيّتين اللّتين ما زالتا في حالة جيّدة ووشـم التّنين ما زال على العضلة الأماميّة للذّراع اليساريّة. أمسكت يده بيدها.

عندمـا وضعوه علـى مروحيّة صعدت هيلـين معه وقالت: «لا أريده أن يكون وحيدا».

أمسـك المجنّد بكتيفيها وقال: «لن ينجوَ.. حسـنا؟ وما من شيء تستطيعين فعله لتغيير ذلك».

في المستشـفى الميدانيّ ركض حاملـو النّقالة بصموئيل إلى الخيمة. مرّت سـاعةٌ. وبدا ضجيج المروحيّات وسيّارات الجيب وعجلة الطّاقم الطّبيّ غير حقيقيّ. بعد أن صمتت الغابة.

بعدَ ذلك أتت ممرّضةٌ لتدخّن سيجارة وعرضت واحدة على

هيلين وقالت: «عزيزتي أنت بحاجة لأن تغتسلي».

مسحت هيلين يديها على بنطالها وشعرت بجفافه وخشونته.

قالت الممرّضة: «هناك، في مبنى المؤن يوجد ماءٌ حارٌ وصابون وسريرٌ نقّال لتستلقي، أنت بحاجة لذلك».

«صموئيل؟» قالت هيلين وهي بالكاد قادرةٌ على إخراج الكلمات من فمها الجافّ ولسانها الثقيل.

«آسفة يا عزيزتي لم يصل إلى غرفة العمليّات. كان يجب أن يخبرك أحدٌ ما بذلك».

أومأت هيلين برأسها. قبل ذلك كان في داخلها شيءٌ صغيرٌ برّاقٌ جعلها منيعة ضدّ أيّ شيء يمكن أن يحدث، وعرفت الآن أنّه جهلها بما يحدث، وشعرت أنّها تسقط في مكان مظلم عميق.

قالت المرأة: «تعالي اغتسلي وكلي».

بعد أن عادت الممرّضة إلى واجبها عادت هيلين إلى مبنى المؤن الّذي كان ضيّقا وحارّا ومظلما والضّوء الوحيد الظّاهر فيه كان مجموعة من المصابيح البادية في مقدّمة المبنى وبعض الشّقوق غير المتساوية في الجدران المعدنيّة. كانت هناك مساند رفوف معدنيّة بطول ثمانية أقدام تكوّمت عليها المؤن كما لو كانت حُزَم أغراض في مكتبة. كانت رائحة الهواء تفوح برائحة الكرتون والبلاستيك. وكما وعدتها الممرضة كان هناك سريرٌ نقّالٌ في أحد الصّفوف.

وضعت هيلين معدّاتها تحت السّرير وتمدّدت. استدارت لتنام على جانبها وهي تجرّ حذاءها الملطّخ بالوحل على البطّانيّة متعبة لدرجة أنّها لا تستطيع خلعه. ارتجف جسمها من ذراعيها إلى قدميها وصدرها فاضطرّت أن تطبق أسنانها كأنّها تشعر بالبرد، ومع ذلك كان جسمها مغمورا بالعرق. وفيما عدا الدّموع

كانت تتوق إلى أيّ شـــيء حتّى لو كان ألما جســـديّا ليشتّتها عمّا كانت تشعر به.

«آدامز».

لـــم تعرف كم مرّ مـــن الوقت لكنّها اســـتيقظت على صوت مروحيّة تحطّ في المكان. كانت الرّحلات الجويّة مســـتمرّة، كما تم نقل وحدة هورنر لاســـلكيّا لكـــي ينضمّوا إلى الجرحى الّذين تمّ إحضارهـــم. قامت بالدعاء متمنّيـــة أن يؤجّلوا إحضار وحدة هورنر لكنّها عرفت أنّهم لن يفعلوا ذلك.

كمـــا أنّ هورنر لن يأخـــذ اللّوم على عاتقه بســـبب ما حدث لصموئيل. مع أنّه الآن ســـيموت وهو يشـــعر بالعـــار، صموئيل ببســـاطة اختار طريقـــة انتحاره، أمّا طريقـــة هورنر فقد كانت ستكســـبه ميداليّة شـــجاعة. جعلها ذلك تشعر بالغثيان. سمعت صوت جنـــديّ يناديها من جديد. كان ذلك نداءه ليقلّوها وتتضمّ إلى المجموعة من جديد.

نهضت من السّـــرير وحبت على يديها ورجليها بين الصّفوف لتصل إلى أبعد زاوية وأكثرها ظلاما. جلست على الأرض متكوّرة وظهرها على أحـــد الصّناديق وركبتاها أمـــام صدرها وجبهتها تستريح علي ركبتيها.

«آدامز؟ أين هـي؟».

انفتح الباب وســـمعت صدى اســـمها على الجدران المعدنية الرّقيقة. تنهّدت هيلين وحبســـت أنفاسها حتّى تمكّنت من سماع نبضها. وانغلق الباب.

«إلى أين ذهبت الفتاة المصوّرة؟».

اســـتدارت هيلين إلى جانبها حيـــث كانت الأرض باردة تفوح منها رائحة الرّطوبة كما لو أنّه قبو رطبٌ. وضعت قبضتها تحت

ذقنها. عندما أغلقت عينيها رأت صموئيل كما لو أنّه كان بجانبها تحت العازل البلاستيكيّ ثمّ غطّت في النّوم.

بعد عدّة ساعات تركت مبنى المؤن وفتّشت عن المراقب الجوي. «لم نستطع العثور عليك من أجل المغادرة».

«لديّ ما يكفي من الأفلام وأحتاج إلى أن أرسلها. متى تكون الرّحلة القادمة إلى دانانغ؟». حبست أنفاسها فقد كانت كذبتها في غاية الوضوح.

نظر إلى لوح المواعيد في ملل وقال: «رحلات الحمولة ستكون عند المغيب».

«سأكون في خيمة المؤن».

جلست على مقعد وحدّقت في الطّاولة. وقفت في منطقة الهبوط لمدّة نصف ساعة قبل أن تصبح الطّائرة جاهزة للإقلاع. كانت قد صعدت إلى الطّائرة قبل أن يركض أحد الجنود إليها بحقيبة كاميرتها ومعدّاتها بعد أن نسيتها في مبنى المعدّات.

عندما عادت هيلين إلى سايغون شعرت بالراحة عندما وجدت أنّ دارو ولين كانا في مهمّة في خليج كام ران. تابعت الاختباء في الشّقة تحت غطاء السّرير الأخضر بلون النّعناع، وحاولت أن تنسى ما حدث، حتّى عندما تمت إهانتها. خفق ألمٌ خلف عينيها، ولم تستطع الكفّ عن التّفكير بصموئيل وموته الّذي أصبح كما المرض في داخلها. كلّما فكّرت في الأمر أكثر قلّ فهمها لما حدث وعلى مَن يجب أن يقع اللّوم.

كان الفيلم في الحقيبة بمثابة اتّهام، فإنها إن لم تعرف النّوايا الحقيقيّة لصموئيل فلن تستطيع أن تنشر تلك الصّور بضمير مرتاح، فبدلا عن الحزن على فقد صديقها كان عليها أن تتصرّف كحكَم على تصرّفاته. من الواضح أنّ هورنر كان

مخطئا، فقد أضعــف معنويّات رجاله، لكن صموئيل كان جنديّا عريقــا في كلتا الرّحلتين، وكان عليه أن يكون قادرا على التّعامل مع هورنر بســهولة. أكان مــا حصل حادثا غبيّــا مريعا؟ أم أنّ صموئيل غضب بشكل ســريع مفاجئ؟ أكان الضّياع والغباء هو ما قضى عليه؟

كان هناك خياراتٌ أســوأ لتفكّر فيها. أكانت الأمور في غاية الضّبابيّة لدرجة أنّ صموئيل لم يهتمّ إن كان المسدّس معبّأ أم لا؟

أتى غاري غاضبا ليأخذ الأفلام بنفسه، وأعطته إيّاها بتردّد، فإنْ جعلت منها قضيّة كان عليها أن تدين صموئيل. سيقوم أحد المســاعدين بتظهير الأفلام. نظر غاري إلى هيلين نظرة واحدة واتّصل بالطّبيب، ووعدها بأن يعود بعد أن يقوم بتحميض الفيلم.

عندمــا فحصها الطبيب هزّ رأســه وقــال: «إجهاد ما بعد التّوتر».

«أنــت طبيبــي. صحيــح؟ يمكــن أن تعتبر ذلــك نقصا في الفيتامينات».

كانــت الأغطيــة متّســخة، فهــي لــم تغيّرهــا منــذ أســابيع بســبب انشــغالها الشّــديد عــن الحيــاة الطبيعية. جلــس غــاري علــى طــرف السّــرير بحــذر شــديد: «ما الذي حدث يا عزيزتي؟ لم يرد أن يكون مســؤولا عن انهيار تلــك المصوّرة الشــهيرة، وأن تكون تلك هي القصّة الّتي ســيتمّ نشرها».

هزّت هيلين رأســها وعيناها تبتعدان عنــه: «لا أعرف ماذا حصل هنــاك». كانــت تعرف ما حصــل في داخلهــا وانزعاج صموئيــل، لكــن ألمْ يُــرد أن يجعل الأمر يبدو تحدّيــا؟ أن يثير مشهدا؟ أن يصبح الأمر مَقلبا صبيانيّا؟

كانت الغرفة حارّة وجبهة غاري تقطر عرقا: «لماذا تعيشين هنا؟ فأنا أدفع لك ما يمكّنك من العيش في مكان أفضل من هذا».

«إنّها فيتنام الحقيقيّة».

«مَن يهتمّ بذلك؟ ألم تلاحظي؟ فيتنام الحقيقيّة بؤرة قذارة».

ركل غاري وسادة كانت ملقاة على الأرض. كان من السيّئ بما فيه الكفاية أن يرى الإصابات والحوادث العسكريّة، لكنّ مراسليه الآن كانوا يتساقطون. كان يعيش مع الإحساس بالذّنب كلّ يوم وهو يرسلهم إلى عالم مليء بالأخطار المُحدقة بهم والنّدوب الّتي سيتركها عليهم إن تأذّوا؟ ادّعاءً وتظاهر، كلَامه كرعاة الأبقار: أن لا شيء كان سيئا وأنّهم سيكونون بخير إذا أخذوا احتياطاتهم، والآن فتاته المراسلة مرهقةٌ وقد تعرّضت للأذى.

«لماذا إذا هو مكان يليق بنا أن نموت لأجله؟».

«الأمر فلسفيّ وعميق. ولكن لديّ مشكلاتي الخاصّة. انظري يا عزيزتي عندما أعرف الوقت المناسب لأخبرك فسأفعل ذلك الآن».

المساعد الجديد كان متسرّعا واستخدم حرارة شديدة في إظهار الأفلام فذابت الصّور.

فاجأتها صدمة أنّ كلّ شيء أصبح غير صالح، «كلّ شيء؟». على الرّغم من تردّدها بنشرها لكنّ الخبر أصابها بالشلل والاختناق. فأصبح من الواضح لها أنّها لم تكن لتخفي الصّور أبدا. لقد تعرّض صموئيل للخيانة من جديد لأنّه سيُنسى الآن.

«بالطّبع لم تفسد كل الصور. نصفها فقط، لكن اسمعي، ما تبقّى منها سيكون جيّدا لصور غلاف، وسأضاعف أجرك أيضا، ليس الأمر في غاية السّوء أليس كذلك؟».

كان غاري خبيثا، فقد شكّت أنّه يخدعها لتدرك مدى أهميّة صورها.

«أجــري تضاعف ثلاثة أضعاف، وسينشــر اســمي على كلّ صورة». استدارت عائدة إلى السّرير وهي تشعر بالامتعاض من هــذا الطّموح القويّ الضئيل الّذي فــي داخلها. «ماذا عن صور صموئيل وهو واقفٌ على طرف الحقل؟».

«ثلاثة أضعاف طبعا ألم أقل ذلك؟ وســوف أطمأن بنفســي علــى وجود الاســم. أيتها الفتاة الجشــعة. وســوف يكون هذا الجندي الذي يخصك هو صــورة الغلاف». أراحه طمعها. تلك الكميّة القليلة من القسوة ستفيدها بشكل جيّد، كما أنها تعني أنّ كلّ فترة استلقائها في السّرير كانت منظرا مفتعلا.

«لا لم تقل ذلك».

«طبعا». قــال غاري وهو يمرّر يديه للأعلى والأســفل على غطاء السّرير «بعد معرفة نتيجة المعركة سيتمّ تخليده».

أغلقت عينيها وهي تفكّر بالقرار الذي اتخذته: «حتّى لو كان قد أطلق النّار على نفسه؟».

توقّــف غاري مرتاحا بعد أن عرف ســبب تصرّفها: «أنا لم أسمع ذلك».

«هل أنت ساخرٌ إلى هذه الدّرجة؟».

نظر إليها بابتسامة شاحبة صغيرة ثمّ نهض مبتعدا عنها: «يا إلهي إنّ الحرارة شــديدةٌ هنا. أنا لست إلّا رجلا يرتبط بموعد عمل محدّد عليّ الالتزام به. صموئيل سون».

«صموئيل».

«أيّــا كان. لقد كان جنديّا شــجاعا ولديّ براهينُ على ذلك. أنت بالتّأكيد لا تعرفين ما حصل. فلا يمكن الحكم على الأشياء

الّتي تحصل هناك بمعايير الحياة العاديّة يا فتاتي الصّغيرة».

حتّى لو أنّ غاري عرف بالضّبط ما حصل فلن يشكّل الأمر فرقا.

«فكّري بهذا، اذهبي إلى واشنطن وقدّمي نسخة من صورة صموئيل إلى والديه أو صديقته أو زوجته أو أيّ من أقاربه. وسيكون ذلك تغطية رائعة».

هزّت رأسها وقالت: «لقد انتهيت».

«ألهذا طلبت منّي أن أعطيك ثلاثة أضعاف أجرك؟ أنت بحاجة إلى الرّاحةَ». تمشّى في الغَرفة وهو يتعرّق ويمسح جبهتهَ بمناديل ورقيّة. «ماذا لو أرسلتُ إليكِ بعض الوجبات من مخبز جيفرال؟».

«أنتَ لا تستطيع شرائي. حسنا؟». قالت من تحت البطّانيّة. لكن كلاهما عرفَ أنّه قد أراح نفسه.

«سيكون ذلك على نفقة الحساب الجاري، حسنا؟ وستحصلين على اسمك في الجريدة».

«لا يهمّني ذلك».

نظر إليها للحظة: «حتّى لو أنّ الشاب قد استشاط غضبا للحظة ما، وهو أمرٌ أنفيه رسميّا، ماذا عن الأوقات الّتي كان فيها بطلا ولم يصوّره أحدٌ؟ ابن السيئة ذاك يُعَدّ شجاعا فقط لكونه موجودا في فيتنام، وهي اسمٌ آخر للجحيم». التقط حقيبته ليغادر.

«نلتقي في المشفى الميدانيّ؟».

«سأخبرك شيئا ليس عليّ إخبارك به. لقد أنقذتُ دارو في أنغكور. لا تخَبريه بذلك. كان يختبئ بين الصّخور واستشاط غضبا، يا إلهي إنّه يخاف من خياله. لستُ متأكّدا ماذا كان

سيحصل لو لم يظهر لين». إنّه يبالغ بالطّبع. لكن لسبب جيّد.

لم تسمع هيلين عن الوقت الّذي قضوه هناك في إنغكور، كلّ ما عرفته أنّ دارو كان مهووسا بالعودة إلى هناك.

«عليك أن تكوني واحدة من أفضل المصوّرين لديّ. لن يخونك عملك أبدا. أنا أحبّ دارو لكنّه يسير في طريق خاطئ من جديد، وما حدث مع تانر كان أمرا غبيّا، إنني أعتمد عليك وعلى لين لتعيداه إلى رشده».

لكنّ غاري كان مخطئا؛ فقد خانها العمل أو إنّها هي الّتي خانته وحقّقت نبوءة (ماك كراي)، وأصبحت جزءا من فيلمهم. الصّبْيةُ الصّغار من أمثال مايكل كانوا يرون صور صموئيل ويتّبعون خُطا رجل قامر بحياته.

عندما غادر غاري نهضت هيلين من السّرير وارتدت ملابسها لتواجه الحياة من جديد. ارتشفت المارتيني المثلّج على الغداء مع آنوك، ابتلعت شرابها كما لو كان ماء. نعومة غطاء الطّاولة ووجود الثّلج في الكؤوس والضّحكات على الطّاولات المحيطة، كانت كلّها أشياء هدّأت من روعها. أومأ لها رجلٌ من الطّرف الآخر من الغرفة وهي ابتسمت له. أحضر لها النّادل مشروبات أرسلها الرّجل ليتّقرب منها.

قالت آنوك وهي تشعل سيجارة: «تبدين غريبة هذه اللّيلة».

لاحظت هيلين بقعة الحُمرة الّتي تركتها صديقتها على كأسها وهي تبعدها عن شفاهها والنّظافة الأصيلة للخزف الصّيني (لم يكن لأيّ شيء أن يكون بتلك النّظافة في الميدان)، كما لاحظت حفيف فستان امرأة مرّت بالقرب منهم.

«كنتُ جبانة».

نفخت آنوك دخانَ سيجارتها وامتعضت: «لقد نجحت بالعودة

بســـلام إلى ســـايغون، وهذا هو الانتصار الوحيد المهمّ». نظرت خلف كتفها إلى الرّجل وقالت: «أظنّ أنّك تعجبينه».

«ربّما عليّ أن أدعوه إلى هنا». أشـــارت هيلين بذقنها باتّجاه الرّجل. «دوّامةٌ من الرّومانسيّة، سنتزوّج وسيأخذني إلى أمريكا لألتقي بأمّه، لمَ لا؟».

«أنت ثملةٌ».

«المشَـــكلة أنّي لا أستطيع أن أثمل، فسأحتاج إلى منوّم للفيلة لإعادتي إلى حالتي الطّبيعيّة».

أنهت صديقتها شـــرابها وبدأت تحتسي شرابا جديدا: «لكن ربّما عليك الزّواج منه. فالحديث الّذي يدور بين الجميع الآن هو عن زوجة دارو الّتي ستأتي إلى فيتنام».

وضعت هيلين كأسها بهدوء.

«أتت إليه في زيارة مفاجئة وانتظرته في غرفة الفندق ويقال: إنّ شائعة وصلت إليها في أمريكا عن صحبته بمصوّرة حرّة».

وُجـــدت الزّوجة الخرافيّة فـــي زمان ومكان بعيدين جدّا عن الشّـــقَة الملتوية، ممّا مكّن هيلين من تجاهـــل الموقف. حتّى دارو نفسه لم يعطِ زواجه إلّا القليل من المصداقيّة، فلم تستطع تصديق حقيقة وجودَ زوجة دارو المفاجئ في سايغون والتّصرف على هذا الأساس. لكنّ الزّوجة الآن هنا وتحاول إقحام نفسها في مكان لا تنتمي إليه. أصاب هيلين وســـواس التّفكير فى حياتها القديمة؛ فـــإن كانت قد التقت بدارو في أمريكا كان ســـيمنعها زواجه من رؤيتـــه، لكنّ آلاف الأميال وطبيعة الحرب أغرتها وجعلت حياتها في وطنها غريبة ومبهمة.

«يجب ألا تهتمّي، فهو يحبّك أنت وليس هـي».

كانت فكرة كونها المرأة الأخرى سَخيفة جدا. مقارنة بما رأته

لتوّها. ألـم يكن دارو محقًا، ألم يكن الأمـر ضئيلاً وغير مهمّ؟ أرادت أن تكون حياتها نظيفة وصحيحة وأن تمتلك أشياء خاصّة بها. يجب أن يكون هذا أوّلَ شـيء تغيّره. مالت هيلين قليلا إلى الأمـام وجذعها علـى الطّاولة: «ماذا علـيّ أن أفعل؟ أعود إلى الوطن؟».

«لن تكون المرأة أهمّ شـيء في حياة الرّجل أبدا كما هو في حياتها. أنتِ تقاتلين من أجل أشياء تافهة. لماذا لا تقومين بعملك فقط؟».

لوّحت هيلين بيدها كما لو أنّها تصرف عنها حشرة مزعجة.

تابعت آنوك: «توقّفي عن التّصوير إذا. فقد أثبتُّ وجودك».

«كلّما ذهبتُ إلى ميدان القتال قلّتْ معرفتي بالأسـباب الّتي تجعلنـي أذهب. لكن تمرّ لحظاتٌ أشـعر فيها أنّ سـبب حياتي وهدفها هو القيام بهذا العمل».

«خذي إجازة قصيرة إذا، رحلة إلى سنغافورة». أطفأت آنوك عقب سـيجارتها: «بعض النّاس يقضون حياتهم في تجنّب الألم ويلهون أنفسـهم». أحضر النّادل طبقا من الفواكه وابتسـمت له آنوك ابتسامة مبالغا فيها حتّى غادر.

ابتسـمت هيلين إلى مغازلها. «ماذا عنكِ؟ أعرف أنّك تُلهين نفسك».

عدّلت آنوك من جلسـتها وأصبح تصرّفها كما لو أنّها تعمل فـي متجرها وقالت: «بما أنّكِ ذكرتِ ذلك الحديث، أتمانعين إن واعدتُ روبرت؟».

شـعرت هيلين بنزعـة التّملك لكنّها سـرعان ما طردت هذا الشّـعور بعيدا. بالطّبع الحياة ستسـتمرّ ولم يكن ذنب أحد أنّها خرّبت حياتها. «يجب أن يكون أحد ما سعيدا في سايغون».

«لا تكوني سـخيفة. هذا مكانٌ صغيرٌ وعلينا الاسـتفادة من بعضنا. تظنّـين أنّه بريء لكنّك مخطئـةٌ. إنّه يفهم علاقتك مع دارو. إنّه يشـبهني في أنه يعرفَ أنّ هذه الحرب لا تعني شـيئا، ربّما سيفيدنا التّغيير كلينا، ربّما سيكون العيش في نيو أورليانز ممتعا؟».

اسـتلقت هيلين في الفراش في ذلك اليوم ولم تعرف النّوم. بعـد أن ثملـت مع صديقتهـا. أملت أن تغفو لكـن كلّما أغلقت عينيها كانت تطاردها صورة صموئيل. ندمت على بعض الأشياءَ، وأصبحت الأفكار المجنونة لديها أقوى بسبب غياب المنطق. سواء في ما فعلَتْه أو في ما فشـلَتْ فـي فعله. كان وصول زوجة دارو بمثابة إنـذار بالتّغيير لكن إلى ماذا؟ غطّت فـي نوم متقطّع ثمّ حلمت من جديد بالأولاد يدورون حولها ويلمسـونها، لكن عندما حاولت التّكلّم معهم كانوا يبتعدون عنها.

أيقظتها بعد منتصف اللّيل خطواتٌ على الدّرج وصوت مفتاح في القفل، والآن أصبح التّغيير قريبا وتمنّت لو بقيت بعيدة فترة أطول.

استشعر دارو طريقه في الظّلام: «هل أنت مستيقظةٌ؟».

«نعم».

أضاء المصباح الأحمر. «كنتُ آمل أن تكوني هنا». جلس على السّـرير: «قدتُ سيّارتي عائدا مباشرة من (بيان هوا) ولم أهتمّ بحظر التّجول».

سـكنتْ لدقيقة بين ذراعيه لتشـعر أنّها آمنةٌ ومحميّةٌ لأقل جزء من الوقت. كانت تفوح منه رائحة العرق والوسخ الّتي جعلتها تشمئزّ، لكنّها تحتضنه أكثر. كان جسمه قويّا لكنّه لم يكن يختلف عن صموئيل في عدم حصانة اللّحم البشريّ.

«زوجتُكَ في سايغون في غرفتك بالفندق».
تركها من بين ذراعيه وقال: «ليس الآن».
«لم يكن ذلك خياري».
«كيف عرفت؟».
«أتقصد إن كنتُ قد رأيتُها؟ لا».
سحب دارو نظّارته وفرك أنفه وقال: «لقد هدّدتني بالمجيء».
تحرّكت هيلين مبتعدة ولفّت الغطاء حولها: «لم تذكرني إليها، أليس كذلك؟»، كان هو من أوصل الأمور إلى هذا الحد بعد أن تسبّب بمجيئها. كانت مشاعر هيلين واضحة بشكل مفاجئ. «مررت بتجربتي الدّينيّة الصّغيرة هناك. ربّما لم تخبرها عن علاقتنا لسبب ما. أنا بحاجة لشيء يخصّني وحدي. لستَ أنت هذا الشّيء ولم تكنه يوما. إن علاقتنا ليست سوى مجرّد إلهاء».
«ما سبب هذا الكلام؟» غضب من سرعة قدرتها على التّخلي عن علاقتهما.
«هذا رائع. تشعر بالغيرة الآن».
وقف دارو وسحب كرسيّا بقوّة عبر الغرفة. أصدر الكرسيّ صوت جلجلة كما لو أنّه وقع على جانبه. «ألم تلحظي أنّ الحرب مستعرةٌ؟ ماذا يعني زواجي ومشاعرك في هذه الظّروف؟».
«الشّيء الرّائع في حالتنا يا حبيبي أنّه عندما تنتهي هذه الحرب هناك دوما حربٌ أخرى، وليس من الضّروري أن تنتهي الحرب لدينا أبدا. ماذا ستفعل دون الحرب كعذر لك؟».
«اطلبي منّي أن أتركها».
«هذا شيء رومانسيّ، لكنّه غير عمليّ».
ركل دارو الباب بقوّة حتّى ارتدّ وترك المقبض فجوة بحجم قبضة اليد في ورق الجدار. «سأنهي هذا الزّواج الآن إن كنت

هنا عندما أعــود أو لم تكوني». كان ظهر هيلين مواجها له وهو واقفٌ في مدخل الباب يلتقط أنفاســه ويقول: «كوني هنا عندما أعود».

أصدرت سيّارةٌ عســكريّةٌ صوتا في الشّارع وهي تمرّ بجانب دارو. كان هناك ثلاثة جنود من جيش جمهوريّة فيتنام الشّماليّة جالســون في مقدّمتها واثنان حشرا نفسيهما في الخلف. كانوا قد أنهوا لتوّهم غداء جيّدا وشربوا الكثير من الجعة، وقد أصرّوا علــى توصيل دارو إلى فندقه لكيلا يضايقه الجنود الأقلّ تحرّرا بســبب خروجه بعد وقت حظــر التّجول. بدا أنّــه إن لم يوافق فسيكونون هم أنفسهم من سيضايقونه. صعد إلى السّيارة معهم وعــرض عليهم السّــجائر. وبعد أن أرضى الجنود نســوا أمره وبدؤوا الكلام مع بعضهم.

كانــت هيلين محقّة بالطّبع. لم يكشــف دارو عن نفســه أو لم تكن أساسيّات ســيرته الذّاتيّة مهمّة. كان دوما يعطي نسخة محدّدة واعتباطيّة عن الحقيقة. ابتســم فــي الظّلام مدركا أنّ مــا عرضه كان كذبا. والد زوجتــه كان يمتلك مجلّة كبيرة عمل لديها في بداياته، وعرف أنّ ذلك هو سبب التّشكيك في نزاهته وقدرته، وما عناه ذلك في الواقع أنّه عمل بجدّ أكبر ليثبت نفسه ويثبت جدارته، وأنّ ما حقّقه كان بفضل تلك الجدارة على الرّغم من كلّ شيء.

لكــنّ المنع وإخفاء المعلومات كان قــد بدأ باكرا أكثر، فهو لم يخبــر زوجته عن تغيير اســمه. شــعر في ذلــك الوقت أنّ هذا الأمــر أصابه بغرور أحمقَ يدعو للإحراج، وكان ذلك عارضا من عوارض أيّــام المراهقة. الآن مضى الكثير من الوقت وفات أوان الإفصاح عن الحقيقة، فقد مضى على زواجهما ستّ سنوات لم

يقض منها أكثر من عدّة أسابيع متّصلة معها أو مع الصّبي.

لا، إن إخفاء الأمر عن زوجته يتضمن شيئا أعمق كان يريد هو إخفاءه. لقد وقعت الزوجة بحبّ سام دارو مصوّر الحرب الشهير، لكنّه ما زال ذاته الشّاب المتزعزع المصمّم على خلق شخصيّته الأسطوريّة. عندما أخبرها لأوّل مرّة أنّه مغادرٌ إلى الشرق الأوسط بكت كثيرا وأرادته أن ينقل المقالات، وأن يقوم بتصوير السياسيّين ونجوم الأفلام. لم تفهم أنّ للوجود الإنساني مستحقّاته الّتي كان يطالب بها.

جلس على أريكة مغطّاة بقطن مزركش في غرفة المعيشة. كان الزّواج خطأ فادحا، وقد عرض عليها الطّلاق مباشرة وإبطال الزّواج من أجلها، لكنّها أصرّت على الانتظار إلى ما بعد ولادة الطّفل، وتلك كانت طريقتها في الإعلان عن حملها. أغضب والد زوجته أنه اغتنم العرض الّذي أتاه من مجلة (لايف) مباشرة، ولم يكن ممنونا أو معترفا بجميله عليه. رحل وتركها، إذا كان يسعدها أن تبقى متزوّجة لم يرَ سببا أن يسبّب لها معاناة إضافيّة أكثر من الّتي سبّبها.

كان الهواء باردا ورطبا عند مرور سيّارة الجيب في الشّوارع الفارغة. وكان لا يزال متعبا من الحملة، لكنّه لم يكن في عجلة لكي يصل إلى وجهته، فما من مكان يرغب أن يكون فيه إلّا سايغون، وما من حياة أخرى يفضّلها.

كان بالكاد يعرف المرأة الّتي تنتظره في غرفة الفندق. فقد افترض أنّها كانت فتاة لطيفة ومحبّة وتفكّر أنّ زواجها منه خيبة أمل كبيرةٌ. لام نفسه على الضّعف. كان هناك سببٌ آخر لزواجه، لكنّه لم يعترف به لهيلين، وهو خوفه من عدم العودة، وكان ذلك تأمينا أنّ هناك أحدا ما ينتظره. لكنّ حبّ هذه المرأة لم يشجّعه

لا على الأمان ولا على الحذر.

توقّفت سـيّارة الجيب أمام الأوتيـل، ونزل دارو منها بعد أن أعطى السّـائق بقيّة علبة السّجائر وتلقّى إيماءة سعادة ردّا على ذلك، ومضت السيّارة في طريقها.

شـعر بعدم راحة مبهمة كما لو أنّها عضلةٌ متشـنّجةٌ خوفا مـن أنّ تتغيـر حالته، على الرّغم من أنّها ليسـت على ما يرام. سينحسـه ذلك ويبعد عنه الحظّ الجيّد؟ كان حبّ هيلين صعبا، فقد سلب منه خفّته وجرأته.

طلع ضوء الشّـمس وانتشر على أوراق الشّجر المتوهّجة الّتي حرّكتها الرّياح خارج النّافـذة. لم تنم هيلين محاولة أن تتصالح مع مسـتقبل ما سيجري، ولم تزل حتّى وقت متأخر من الصّباح مستلقية في السّرير تشعر بثقل وهي نصف مستيقظة.

سـمعت قفـل الباب ووجـدت دارو واقفا في غرفـة النّوم. حدّقت في وجهه بعينيها نصف المغلقتين، وتخيّلت أنّها استدعته بأحلامها. فاجأتها الفكـرة أنّه لن يحبّ أحدا كما أحبّها. كانت تعبيـرات وجهه تشـي بالتحدي وهو يخلع خـاتم زواجه ويلقيه على الأرض. كلاهما سـمعا صوت دورانه على الأرض في ذلك الصّمت.

(12)
إغفاءة الأرض

مــرّت شــهورٌ.. وانتهت مهمّــة روبــرت، وكان ينتظر ترفيعه وإرســاله إلى لوس أنجلوس ليعمل كرئيــس دائرة... عندما دعا هيلين إلى غداء أخير جلســا على طاولة شــرفة نادي (سيركل ســبورتيف) خجلين كما لو كانا عاشقين صغيرين بعمر الشّباب لم ينتهيا بعد من عشق بعضهما. ادّعت هيلين أنّها تتشمّس وهي تميل برأسها وتغلق عينيها، ومع أنّها كانت تستمتع بصحبته دوما لكنها لم تكن ترغب أن تعرف شــيئا عــن علاقته مع آنوك الّتي امتدّت على طول الأشــهر القليلة الماضية. كانت آنوك قد ألمحت لها أنّ تلك العلاقة لم تعد مرضية لها. وفي الخارج.. على بركة السّــباحة كانت بنات العائلات الثريّة في فيتنام يتشمّســن وهنّ يرتدين البكّيني الفرنســيّ ويطلبن المشــروبات من النّدل الّذين كانوا يخدمون هناك من زمن الفترة الاستعماريّة.

ارتــدى روبرت قميصه الأبيض وســرواله الخاكي النّظيفين وجلس بوجهــه الحليق النّاعم. ومع ذلك كانت هناك دوائر حول عينيه وخصلة شعر فوق جبينه لم تعرف الثّبات. كان فيه فسوقٌ وخلاعة بشــكل غامض، كما لو أنّ المــدارات والأجواء قد فعلت فعلها معه أخيرا. كان قد كبر قرنا في ذاك العام والنّصف الّذي عرفته هيلين فيهما.

قــال روبرت: «إذا حصلت ثــورةٌ، فيجب أن تبدأ من هنا، ألا تظنّين ذلك؟ أتمنّى أن يكون ذاك النّادل هناك عميل جبهة تحرير فيتنام وقريبا من العمّ هوتشي».

قالت وهي تثير حفيظته وفضوله في آن واحد: «المراســلون أصبحوا يعدّون فيتنام أمرا ضروريّا في ســيرهم الذّاتيّة. كيف تستطيع أن تترك كلّ هذا؟».

«أخذتُ أكثر من كفايتي من هذا المكان، فعامان في ســايغون هما بمنزلة عمر كامل». نظر إليها بابتســامة متصنّعة وسألها: «متى ستغادرين؟».

«قريبــا». رفرفت يدهــا باتّجاه حمّــام السّــباحة والمدينة الّتــي يطلّ عليها، قبل أن تنفد منهــا القوّة وتضعها مجدّدا على حجرها. استمرّ دارو بتأجيل المغادرة للمرّة الثّالثة والرّابعة حيث كان موعــد المغادرة لا يزال معلّقا: «ليت الأمور تســتقر هنا بدلا من أن تزداد صعوبة، أزمةٌ بعد أخرى».

انتابه شعور سيئ بسبب استفزازها، وقد تبيّن له أن علاقتها مــع دارو هي من زاوية واحدة: «هل ســتأتيان كلاكما إلى حفلة وداعي؟».

«وهــل تفوتنا حفلةٌ؟». في الحقيقــة إذا كان دارو في مهمّة فســيدفن نفسه بين حشــد من النّاس أو في بيوت النّاس أو في اجتماعات مرتجلة في شقّة (تشولون). لن يكونا وحيدين بعدها لمرّة واحدة، لا شكّ أنّه نوى الارتجال ليحمي نفسه من إلحاحها.

«لم تنجح علاقتي مع آنوك، الوضع هكذا أســهل، أتمنّى ألّا تغيّري رأيك بشــأن المجيء». وقف روبــرت: «عليّ أن أعود إلى حجر الرّحى».

رجعت هيلين بظهرها إلى الخلف لتنهض: «ماذا حدث؟».

«إنّها امرأة مجنونةٌ وليست سوى حادثة أخرى من حوادث الحرب. لكن من غير اللّباقة برجل محترم مثلي أن أنشر أخبارها.. ابقي واستمتعي بقهوتك».

جلست وظلّلت عينيها لتتمكّن من النّظر إليه: «هذا سيّئٌ لكنّني افتقدتك.. لم تعطني أيّا من وقتك كأنّني لست الآن إلّا فتاة تقضي معها وقتك الضّائع. بالإضافة للعمل الّذي أبقى قريبة منه».

تساءل إن كان سبب انجذابه إليها هو جزئيّا سببَ رفضها له، لكن إمكانيّة ذلك أصبحت الآن من الماضي، وفكّر أنّه على الأرجح محظوظٌ: «أنا أقلق عليك وقد أبقيت فمي مغلقا لأنّ كلّ شيء بدا خارج قدرتي في الحصول عليه». قال روبرت: «الأمر مختلفٌ مع دلرو والحرب مختلفةٌ ورأيت هذا أيضا في رجال آخرين. إنّه لا يستطيع التّخلّي عنها. هو دائم البحث عمّا هو أكثر من الصّورة عندما يخرج إلى الميدان، هل فهمت؟».

التقطت هيلين فنجان قهوتها وأبقته معلّقا في الهواء ووضعته مجدّدا على الطّاولة دون أن تأخذ منه رشفة: «ماذا تعني بقولك هذا؟».

قال روبرت: «أن يخوض مخاطر ليس مضطرّا لخوضها لتظهر الصور التي يلتقطها على أحد الأغلفة».

«أنت مخطئٌ فقد أراد المغادرة إلى (إنغكور) منذ فترة».

«أتمنّى أن أكون مخطئا من أجلك فقط».

«على أيّة حال سنغادر المكان بعدك مباشرة وسيأتون بمن يحلّ مكانه».

«لكن أتظنّين أنّه سيبقى بعيدا؟ رجل مثله تظنّين أنّه سيكتفي بالعيش في بيت مع زوجة وكلب ويخرج كيس القمامة في ليلة الإثنين؟».

هزّت هيلين رأسها: «يوجد هناك أشياء أخرى لفعلها، وهناك قصص ليس بالضّرورة أن تكون قصصا عن الحرب، مثل قصة إنغكور مثلا».

«هل هذا خياره؟».

«خيارنا. كلانا نريد ذلك».

تنهّد روبرت وقال: «لماذا توقّفت عن الخروج إذا؟».

امتعضت هيلين. منذ موت صَموئيل لم تعد إلى الميدان، وصارت تختلق الأعذار لغاري الّذي كان يقبلها على الفور. تمّ استغلال صورة صموئيل كثيرا ونسخها على العديد من المقالات. وكانت كلّ طائرة آتية محمّلة بالجنود من حقول (تان سون نهات) تشعرها بالذنب أكثر. «سآخذ عطلة ولا أسبّبُ ضررا لأحد».

«لا تدعيه يغرقك معه». انحنى وقبّل خدّها، لكنّها أدارت وجهها وقبّلته، وهمست: «لا تقلق عليّ، أنا من سأنقذه وأنقذ نفسي».

لكنّ الأيّام مرّت في تتابع وتأجيل وتأخير وأعذار ومشاجرات وكذب. كما لو أنّ كلمات روبرت الّتي قالها بصوت عال قد تحقّقت من تلقاء نفسها. كان دارو مسحورا ومأخوذا، ولم يكن هناك ما تستطيع هيلين فعله.

في إحدى المهامّ رتّب غاري لهم أن يقوموا بتغطية إخبارية لمركز للصّليب الأحمر للأطفال. ذهب دارو إلى هناك لمدّة أسبوع بينما قامت هيلين بعمل ترتيبات عودتهم إلى الولايات المتّحدة. وفي اليوم الّذي أخذها فيه إلى هناك لاحظت فيه حماسا غريبا.

كانت الحديقة القائمة أمام فيلّا تم تحويلها لهذا الغرض مليئة بالأطفال المعاقين الّذين يفتقدون طرفا من أطرافهم، ولكن ما زال بإمكانهم الجلوس أو الحبو أو العرج في المكان.

مرّوا في طريقهم حول الأولاد الجالسين فوق رمل الحديقة الأبيض النّاعم. شاهدت هيلين صبيّا صغيرا يقطف وردة حمراء ويضعها في فمه.

كان الأقلّ حظًّا منهم مختبئين داخل المبنى، ومنهم من أصيب بشلل بسبب شظايا قذيفة هاون أو أصيب باحتراق من قنابل النابالم أو الفوسفور الأبيض الّتي أذابت اللّحم والعضلات.

«كنتُ أمشي بين الأجنحة عندما وقعت عيناي على (لان)، ستعرفينها عندما تلتقين بها. ما أفكّر فيه هو التّركيز على طفلة واحدة والبقاء معها طوال فترة إعادة التّأهيل حتّى نتمكّن من جعل النّاس يتعلّقون بقصّتها».

مشى دارو بسرعة وهو يسحب هيلين من ذراعها. دخلا إلى غرفة حارّة منخفضة السّقف ومظلمة كما لو أنّهما كانا داخل فرن، مزدحمة بالأسرّة وفي كلّ سرير طفلان أشبه بعلب السّردين.. الرّجلان بجانب الرّأس. كانت الأغطية تفوح برائحة البول والعرق. كانت هناك ممرّضة تعمل بعجلة للإشراف على ثلاثين طفلا، كانت إسكتلنديّة بوجه غائر وأرداف عريضة تعطي إيحاء بالأمومة. أمّا الأولاد الأكثر حظًّا فكان لديهم عائلات تجلب لهم الطّعام وتقوم بتنظيفهم، وأمّا الآخرون فقد ضاعوا في إهمال جماعيّ. كانت (لان) مريضة مقطوعة الرّجل تمّ جلبها بالطّائرة من منطقة قتال حرّ في دانانغ.

قاد دارو هيلين إلى سرير صغير بجانب النّافذة المحطّمة. وجلس القرفصاء على رجليه وتحدّث بنعومة قائلا: «كيف حال حبيبتي؟».

تحرّكت كومةٌ من تحت غطاء السّرير الرّماديّ القطنيّ وظهر وجهٌ رقيقٌ تتوسّطه عينان واسعتان وبشرةٌ لوزيّةٌ صافيةٌ وشعرٌ

مربـوطٌ للخلف بربـاط رأس أبيض وتنزل من الأذنين الأشـبه ببتلات الزّهر حلقاتٌ ذهبيّةٌ ناعمةٌ.

«ألن تتدفّـق علينا التّبرعات من أجل هذا الوجه؟» ابتسـم كوالد فخور.

حاولت هيلين أن ترى الفتاة أمامها.. لكن على الرّغم من كلّ روعتها كان دارو يرى شيئا أكبر من الطّفلة الّتي أمامه.

«أفكّـر أن نبقى حتّى نجمـع ما يكفي مـن التّبرعات حتّى تسـتطيع المجيء معنا إلى أمريكا ونقدّم أوراقا بطلب الأطراف الاصطناعيّة وإعادة التّأهيل وكلّ شيء».

جلسـت هيلـين على الأرض الوسـخة بين الأسـرّة الممتلئة وأخرجت كيسا من الحلوى «سـيأخذ الأمر شهرا على الأقلّ أو اثنين أو ربّما أكثر».

«لكن يمكن للأمر أن يشكّل فرقا».

«لماذا لا ندفع نحن ثمن تذكرتها؟».

هزّ دارو رأسـه وقـال: «لا لا. ألا ترين؟ سـنجمع ما يكفي لإرسال عشرات الأطفال».

«ستقوم بجعلها طفلة الإعلان عن الحملة؟ وتؤجّل علاجها؟».

«ماذا يشـكّل شـهرٌ آخر؟ أريد أن أحقّق شيئا ملموسا وهذه هي فرصتي».

هـزّت الفتـاة نفسـها لترتمي علـى صـدر دارو وذراعاها النّحيلتـان كما الأغصـان هما كلّ ما يسـند وزنها. عندما رأت كيـس الحلوى اندفعت متّكئة علـى ركبتي دارو والتقطت الكيس ممّا تسبّب بخدش يد هيلين.

«احذري!».

ضحـك دارو و(لان) تمزّق السّـلوفان وتفتـح كيس الحلوى

بطمع لتحشو الحلوى في فمها. تذمّر الولد الّذي كان يشاركها السّرير، ومدّ يدا مرتجفة لينال نصيبه.

«إنّها جامحةٌ كمتشرّد جوّال». قال دارو.

فتح دارو كيس حلوى الكاراميل وأعطاها للولد.

«أتظنّ أنّه من الحكمة تمييز طفلة واحدة؟» سألته هيلين.

ابتسم: «أنا أعرف قوّة الصّورة». أمسك دارو بذقن (لان): «ستقع إحدى الأمّهات من ولاية أيوا في حبّ هذا الوجه وهي تطعم عائلتها الخبز والبيض للفطور. وسترسل عشرة أو عشرين دولارا».

نزلت هيلين على قدميها: «لنلتقط بعض الصّور».

بعد عدّة ساعات أنهوا عملهم في ذلك اليوم وحزموا أغراضهم. اقتربت امرأةٌ فيتناميّةٌ حاملةٌ سلّة خيزران مليئة بالطّعام وتحدّثت مع (لان). ثم نظرت إلى هيلين باهتمام.

سألت هيلين: «هل هذه أمّها؟».

«لا. هذه ثاو أخت زوجة لين، دفعتُ لها بعض المال لتقوم بالاهتمام بالطفلة».

خرجت الكلمات من فمها قبل أن تفكّر: «ألا تظنّ أنّك متورّطٌ كثيرا في الأمر؟».

تحوّل دارو ليصبح صارما أكثر وقال: «هذه هي إحدى مستلزمات العمل، أن نكون في موقع الحدث».

«لماذا نذهب إلى الولايات المتّحدة الآن إذا؟».

أصبحت هيلين كالآخرين، كزوجته. كان يقلق عليها عندما كانت تخرج في مهمّات لكنّ وجودها بالقرب منه كان أسوأ. والآن بدأت تحس بالغيرة. «نحتاج أن نستخدمها قليلا من أجل الدّعاية وسيكون لدينا قصّةٌ نعمل عليها في كاليفورنيا. ربّما

سـيـنتهي الأمر بأن نساعد أطفالا أكثر بكثير، لا يمكن أن تكوني ضدّ هذا الأمر، أليس كذلك؟».

كان قـد وضعها في موضوع مقارنـة مع طفلة يتيمة، فردّت قائلة: «بالطّبع لا». كيف يمكن أن تظهر بصورة سيّئة في مقارنة كهذه؟ لكن إذا كانت مضطرّة للبقاء حتّى يتمّ نقل آخر طفل يتيم، فالوضع يختلف.

عندمـا حمـل دارو حقائبـه ليغادر، أطلقـت (لان) صرخة اعتراض. عاد ليجلس وتعلّقت هي بصدره. وهزّها وهو يغنّي لها أغنية. لكنه حاول الابتعاد بعدها بوقت قصير وردّت بالتذمّر.

قال دارو: «سأعود في الغد، اتّفقنا؟». تخلّت عنه الفتاة ببطء وقبّلته قبلة صغيرة على خدّه.

انحنـت هيلين لتعانق الفتاة واستنشـقت عفن رائحة العرق والحليب الحامض. كانـت الالتهابات الخفيفة قد ملأت وجهها وعنقها من القذارة.

نظـرت الفتاة بعمق إلى عيني هيلين وأخذت نفسـا وبدأت تبكي ممّا أتى بالممرّضة بطيئة الحركة.

قالت الممرضة: «إنها فتاةٌ مزاجيّةٌ».

«ستعتاد على فكرة أنّنا سنعود. لنذهب».

تنفّسـت هيلين الصّعداء لخروجها إلى الحديقة حيث كانت الشّـمس تملأ المكان بالضوء. جعلتها رائحة اللّحم المشويّ فوق مجمرة بائع على الرّصيف تشعر بالدوار من شدّة الجوع.

«دعنا نأكل».

لم تستطع هيلين وهي تتناول اللحم المشوي والمشروب البارد أن تمنع نفسـها مـن التفكير في الحالة التي شـاهدتها، أو من تجاهلها، كما لو أنّها كانت ألما في أسنانها. «هل هي يتيمةٌ؟».

أكل دارو لقمة ثانية ثمّ مسح فمه. «يمكنك أن تعدّيها كذلك، فعائلتها في غاية الفقر، ولا تستطيع فعل ما سنفعله لأجلها، وبرأيهم هي مجرّد فتاة».

«على الأرجح لديك الأولويّة والأقدميّة في الأمر، ونستطيع أن ننتهي منه في كاليفورنيا».

استدار دارو وأشار للنّادل أن يحضر طبقا آخر: «أريد أن أتابع تطوّر حالتها بشكل كامل، وسنتابع مباشرة مهامّ أخرى في الوقت ذاته».

«كنت أظنّ..».

توقّف ونظر إليها. فَهم خوفها، لكنّه فهم أيضا على العكس منها أنّها ستتغلب على هذا الخوف. مدّ يديه عبر الطّاولة وأخذ يدها بينما كان الفيتناميّون على الطّاولات المجاورة يضحكون ضحكات مكبوتة.

«الوقت في صالحنا».

نظرت هيلين عبر الشّارع إلى جدران المركز الّتي كان لها هيئةٌ عاتمةٌ وجامدةٌ وقاسيةٌ.

عادت ثاو إلى المنزل متعبة من الفتاة المشاغبة الّتي كانت تهتمّ بها بعد أن تأكّدت أن المرأة الأمريكيّة سبب عدم استجابة لين لعاطفتها. كان واجبه أن يتزوّج منها، ولم يكن ذلك شيئا غير اعتياديّ خلال الحرب، بل كان زيجة ملائمة لمصلحة الجميع. بدا لها لين ضائعا، كانت تستطيع أن تكون زوجة جيّدة وتحافظ على ماله وتهتمّ به بينما هو يعتني بها هي وأولادها.

في تلك اللّيلة دعته إلى الغداء على حسابها من النّقود الّتي كسبتها من الاعتناء بالطّفلة (لان)، اشترت ثوبا وسروالا جديدين ووسائد جديدة للشّقة. لم تعرف تلك الرّفاهية من قبل.

أتت ثاو وماي من أسـرة فقيرة وكانتا فتاتين قويّتين متعافيتين، ماي امتلكت الجمال وثاو كان لديها الذّكاء.

طلبت من جارتها أن تهتمّ بطفلتها ذاك المسـاء. والطّفل كان نائما. لم تكن ستنتظر لين أكثر، كما لم تكن لتنتظر الأحلام الّتي رسـمها لنفسه. في النّهاية هو ليس إلا رجلا، وهي كانت تعرف كيف تتعامل مع الرّجل.

عندما وصـل لين كانت تفوح من الشّـقة رائحة طبخ زكيّة، وعلى غير العادة ساد الهدوء في المكان.

«أين الأولاد؟» كان السـبب الرّئيسـيّ لزيارته هو المتعة الّتي كان يشعر بها من اللّعب معهم.

«البنت عند الجيران والطّفل نائمٌ».

جلـس لين. عندما خرجت ثاو أصابه ذهولٌ من تغيّرها، فقد وضعت الزّيوت على شعرها والمساحيق على وجهها، وارتدت ثوبا حريريّا بلونورديّ خجول.

قال: «تبدين جميلة». ما قصده كان أنّها بدت تشـبه زوجته المتوفّاة ماي. ابتسمت وصبّت له شراب البراندي الّذي كانت قد اشترته من أجل تلك المناسبة.

«ما كلّ هذا؟».

«لا شيء هو مجرّد شكر على ما فعلته لأجلنا».

استمرّت الأمسـية الّتي كانت فيها ثاو مضيفة رائعة تمطره بكؤوس الكحـول وتقدّم له طبق (السّـلطعون) المفضّل لديه مع حسـاء الهليون. كانت تكوم الطّعام على طبقه وتسأله عن عمله أسئلة تظهر الذكاء والمداهنة. عندما انتهى الغداء جعلته يجلس على الوسـائد الجديدة الّتي اشـترتها للأريكة غربيّة التّصميم، والّتي أتت مع الشّقة.

«أنا متعبٌ، سكران». قال لها.

«دعنــي أدلّك عنقــك». قالت وأبعدته عنهــا لتخفض حدّة الضّوء، وتبدأ بتدليك عضلات رقبته. «الكثير من الضّغط».

جلســا بعد ذلك إلى جانب بعضهما ليحتســيا الشّاي. نظر لين في الظّلام إليها وكاد قلبــه يتوقّف متصوّرا ماي أمامه. مع أنّه كان واعيا للأمر لكنّه لم يســتطع مقاومة ثاو وإغوامها الّذي استمرّ طوال تلك الأشهر. ضرب ذراعها ضربة خفيفة، لكن بعد ذلك بوقت قصير كانت أمامه وعندما شعر بالرغبة أصابه شعورٌ بأنّه يدنّس ذكرى ماي. أيّ رجل ضعيف كان؟ ابتعد عنها وأخفى رأسه بين يديه ممتلئا بالقرف والارتباك. نهضت ثاو ورمت كوبا في الحوض بغضب وذهبت لتتفقّد الطّفل.

مرّت أســابيع وما زال وقت الرّحيل يبتعــد أكثر وأكثر كلّما اقتربوا منه. كان دارو مأخوذا مع تيّار الحرب، وإذا سألته هيلين عن الرّحيل يعطيها إجابات مقتضبة.

قبلت مهمّة الذّهاب معه ومع لين إلى الميدان بيأس. انضمّ إليهم أربعة مراسلين آخرين في مقاطعة كوانغ نغاي. كان دارو يفضّل أن يعمــل وحيدا في أغلب الأوقات لأنه يكره الجولات الجماعيّة، لكنّه اضطرّ إلى قبول ذاك الوضع. كان ذلك بالنّسبة لهيلين إثباتا لكلام روبرت في معرفة رغبة دارو أن يغطّي بصوره أيّ شيء دون تمييز.

لــم يدركوا أنّ تانــر كان أحد المراســلين الأربعة حتّى ركبوا طائــرة الحمولة الأولى المتّجهة إلــى دانانغ. وحالما لاحظ وجود دارو أتى إليه مبتســما ابتسامة صغيرة بأسنانه المصفرّة. ثم مدّ إليه يده الكبيرة وقال: «لننسَ ما حصل ذاك اليوم».

توقّف دارو قليلا ثمّ أمسك بيد الرّجل الّذي أمامه وقال: «أيّ يوم تقصد؟».

أومأ تانر برأسه الطّويل النّحيل وقال: «معك حقّ يا رجل. يكفينا سوء الحرب ولسنا بحاجة أن نقاتل بعضنا».

انقسم الصّحافيّون إلى فريقين. أغضب هيلين رؤية تانر ينضمّ إلى فريقهم، فوجوده سيتسبّب بإزعاج دارو، وهذا سيجلب حظًّا سيّئا. كان لديهم أوامر بمسح ثلاث قرى والعودة، ليلتقوا في القاعدة المعسكرة إذا لم يواجهوا أية صعوبة.

عندما التقوا الضّابطَ المسؤول الكابتن (مولينا) الّذي كان رجلا نحيلا غامق البشرة خفيف الظلّ، أخبرهم بأنّ فريقه تعرّض لكمين في اليوم السابق، مع ذلك لم تكن هناك إصاباتٌ. ناقض التّوترُ الواضحُ هدوءه في نقل ما حصل في وحدته العسكريّة. رأت هيلين وجوها مرعوبة حيث كانت عيون الجنود قاسية ومرتابة وعصبيّة. كان الجوّ حارّا والجنود لا ينامون؛ يمشون في السّرية وأيديهم على الزّناد. خلق وجود لين إثارة بين الجنود حيث كانوا يتذمّرون حيال ما يحدث وينظرون إليه نظرات طويلة قاسية. ذهب مولينا للحديث مع صفّ الضّابط في سريّته وعاد.

«لا يمكنه المجيء معنا». قال مشيرا بإبهامه إلى لين.

مدّ دارو ذراعيه فوق رأسه ثمّ انحنى ليربط أربطة حذائه.

«هل لديك جلد حذاء داخليّ زائد يمكن أن تعطيني إيّاه؟ أظنّ أنّ لديّ بداية تقرّح».

خلع مولينا خوذته ومسح وجهه وقال: «أكيد».

فكّ دارو رباط حذائه وبدأ يخلع حذاءه: «إنّ لين معتمد لدى السلطات، وهو مساعدي منذ أربع سنوات ولا أستطيع تأدية عمل من دونه».

اقترب مولينا وقال: «الرّجال متوتّرون قليلا منذ البارحة وأنا لا أستطيع أن أضمن سلامته بينهم».

«هل أستطيع أن أنقل كلامك هذا للمسؤولين؟ أنت ضابطهم المسؤول؟». خلع داو حذاءه وجوربه: « أضف إلى ذلك.. مَن منهم يتحدّث الفيتناميّة لاستجواب أولئك القرويّين؟».

كان تانر واقفا يستمع. «استمع يا مولينا هؤلاء الرّجال جيّدون». قال: «وسيجعلون رجالك يبدون كالأبطال». عاد الكابتن إلى رجاله ليتكلّم معهم.

انتظروا تحت ظلّ صخرة صوّان كبيرة يشربون مشروبات غازيّة دافئة اختلسها أحدهم. أومأ دارو لتانر بينما كان لين يقف إلى جانبه. «هذا كثير. أليس كذلك؟» قال دارو وهو يدور بعينيه: «هذا كثير، أيّ كابتن هذا الّذي يعترف أنّه غير قادر على التّحكم برجاله؟». أتى مولينا بعد خمس عشرة دقيقة وقال بتردّد إنّهم قد وافقوا.

«لين هو أفضل كشّاف يمكن أن تأمل بالحصول عليه».

تجهّم مولينا وقال: «سيكون أوّل من يقع إذا قادنا إلى كمين».

بعد أن مشى مبتعدا شدّت هيلين ذراع دارو وقالت: «لديّ شعورٌ سيئٌ حول هذا الأمر، لنغادر المكان».

«أنت خائفةٌ؟».

تحرّك الجنود في نسق واحد على طول الطّريق الضّيق الّذي يحتوي على قذيفة محطّمة حفرت طريقها في كثبان الرّمل العالية. مشى تانر في الأمام وهو يغنّي «هاي هو هاي هو. إلى العمل، إلى العمل». ممّا جعل الجنود من حوله تحمحم. انتصف الصّباح وارتفعت درجة الحرارة إلى فوق المئة(*)، وبدت السّماء منخفضة مظلمة وبيضاء كالملح. ارتدى الجنود سترات

(*) يبدو أن المقصود مئة درجة فهرنهايت. (الفاحص)

واقية فتحوها فــوق صدورهم العارية. ارتدوا أربطة رأس تحت خوذاتهم ليمنعوا العرق من الدّخول إلى عيونهم.

القرية الأولى كان فيها خمســون شخصا بالغا حيث تجمّعت أكواخها عند قاعدة منحدر كلســيّ منقــوش بجانب البحر. بدا سـكّان القريــة ودودين بما فيــه الكفاية حيث كانوا مبتســمين يكملــون التّمثيليّة كما لو أنّ الجنود لم يكونوا موجودين. لم ينتج شــيءٌ عن التفتيش الكامل للمكان واســتعدّ الجنود للتّحرك من هناك مجددا.

دخــل لين وهيلين إلى أحد الأكواخ تحت إصرار امرأة عجوز لوّحــت لهما ليدخلا. كانت الغرفة صغيــرة ومظلمة مملوءة من الأرض إلى السّــقف بورق الأزهار في صفوف من الألوان: أحمر وأصفــر وأبيض. تردّد لين وهو يمســح وجهــه. «إنّها تعمل في تحضير أوراق الزّهور للاحتفالات ومذابح الكنائس».

تحدّثت العجوز بتمتمة منخفضة مع لين.

سألته هيلين: «ماذا تقول؟».

«تقــول إنّها خائفة من أن يقوم الجنود بحرق القرية، فلديها عمل سنة كاملة في الدّاخل وكلّه في طريقه لأن يباع في دانانغ».

«أخبرّها أنّنا على وشك الخروج».

ســمعوا صوت صفير قذيفة هاون بين أشجار النّخيل بينما كانــوا متجمّعين على طرف القرية يشــربون الماء من قِرَبهم في حرارة الجو المشــتعلة ويشعلون السّــجائر. ارتمى الجَميع على الأرض، لكــن عندما عادوا ووقفــوا كان هناك أربعة رجال قتلى على الطّرف الأيسر للشّجرة واثنان آخران يزحفان على الأرض.

عندما ســمع لين وهيلين الضّربة ألقيا بنفسيهما خلف كثيب رملــيّ بجانب بيت العجوز. وكلّ الخــوف الّذي ظنّت هيلين أنّها

قد تعافت منه عاد إليها عشــرة أضعاف. كانت رجلاها عديمتي الفائدة وتشــعر بحرقة في حلقها. ركض دارو وكاميراته تضرب صدره من عجلته ووضع يده خلف رأسها وقال: «هل أنتِ بخير؟».

أومأت.

«اعتنِ بها يا لين».

عاد دَارو ليختفي في سحب الدّخان.

أمر الكابتن كولينا بسحب من تعرّضوا لإصابات إلى الطّريق واتّصل بقوّات جوّية لأخذهم. شــاهدته هيلين وهو يحمل جهاز الاتّصال ووجهــه مبلّلٌ ومشــدودٌ، ورأت الارتجاف في يده وهو يعيد جهاز الاتّصال إلى الموظّف.

كانــت الطائــرات المروحية ســتأتي من الغــرب، لكي تجبر الفيتناميــين على الهــرب باتجاه المحيط، حيــث تتلقاهم الفرق الأخــرى وتحاصرهــم مــن الشــمال والجنــوب. وكان الصبي (كوستيللو) قد أصيب بجروح في كلتا رجليه بينما اخترقت جلده ثقوب ســوداء. فقام دارو وتانر بســحبه مــع الجرحى الآخرين نحو الطريــق العام. وبعدما أخذت الصدمة وقتها الكافي ارتعد الصبي دون أن يصدر عنه أي صوت.

شــعرت هيلــين بالغثيان بســبب اشــتداد الحــرارة والدم والضّجيج، لكنّها تمالكت نفسَــها، وركّزت على عدسة الكاميرا. وقــف مولينا فوق الصّبيّ ووجهه منقّطٌ باللّون الأحمر وشــفتاه مشــدودتان خلف أسنانه. في عدسة الكاميرا التقطت له صورة بــدا فيها أنّه يمتلك نوعا رهيبــا من القوّة. صوّرته هيلين صورة أخرى ممســكا بجهــاز الاتّصال وهو جالــسٌ القرفصاء بجانب الموظّف وإصبعه داخل أذنه بســبب صــدور صوت قذيفة هاون أخرى، بينما كان وجهه حاســم الملامــح متعلّقا من دون حماس

بطــرف الحبل. لوّح مولينا بذراعه ثمّ أنزلها بقوّة على فخذه كما لــو أنّه اســتطاع أن يتحكّم بظهور المروحيّــة غافلا عن الأدخنة المتصاعدة من السّــقف المقشّش الّذي خلفه، وغافلا عن الصّبيّ الّــذي دخل في غيبوبة عند قدميه. لو كان قد لاحظ كوســتيللو لكان على الأرجح سيطلق النّار عليه.

أنزلت هيلين كاميرتها في حيرة عندما رأت أشــكالا سوداء ترفرف في الهواء كأنّها فراشــاتٌ ســوداء. أمّا كوســتيللو فقد أصابه الجمود من منظر رجليه المصابتين، بينما تقوم هيلين بلفّ كيس بلاستيكي حول الجزء الأسفل من جسمه.

قال كوستيللو: «دعيني أرَها».

قال المسعف: «إصابتك ليست بهذه الخطورة».

لكنّ كوستيللو لم يكن يسمعه.

قالت هيلين: «ســتكون بخير». قالت الكلمات بشكل روتينيّ كأنّها تُطمئن طفلا، لكنّها شعرت بالغضب من حساسيّته المفرطة على الرّغم من وجود قتلى على بعد ياردات قليلة منه. كان هناك إحســاسٌ بالتّحرر وبالبرودة الّتي أحسّت بها وقلّة قلقها على ما حــدث للرّجل. هي لم ترد أن تعرف اســمه أو رتبته أو صورته، أرادت فقط أن تنساه في اللّحظة الّتي صعد فيها إلى المروحيّة.

خلال عــدّة دقائق حلّقت مروحيات مقاتلة فوقهم، ورشّــت الطّلقــات والقنابل فوق القرية. خلقت نارا جهنميّة وريحا حارّة، حرارةً غذّت حرارة الجو حتّى شــعرت هيلين بأنّ كلّ نفس كانت تتنفّسه كان يحرق رئتيها.

أشــار لين، ولاحظت هيلين من جديد ســرب أشكال سوداء مرفرفة بدت مثل طيور الســنونو أو خفافيــش ترتفع فوق كوخ المرأة العجوز: «أزهارها».

تذكّـرت هيلـين والدها عندما عـاد مـن أداء الواجب في إيطاليا. أحضر لها علبة قصديريّة حمراء من البسـكويت حيث أخذت الغلاف الشّـمعيّ الأحمر وأكلت قطع البسكويت وأشعلت شمعة تحت الغطاء الشّمعيّ، وابتسمت وهو يطير باتّجاه السّماء كما لو أنّه روحٌ أو شبحٌ وهي تصرخ من الفرح.

مع أنّهم شـاهدوا كوخ المرأة يحترق ويتحـوّل إلى رماد لكنّ المرأة لم تكن على مرأى من أحد في أيّ مكان.

بـدا أنّ المعركة شـارفت على الانتهاء، لـذا أصيب الجميع بصدمـة عندمـا خرجت مجموعـة رجال من نفـق على طرف القريـة، الحرارة النّاجمة عن الكـوخ المحروق فوق المدخل كانت تشـويهم داخل النفق وأجزاءٌ من ملابسهم كشفت عن ظهورهم واللّهب يأكلها. ركضوا إلى الشّـاطئ ليصلوا إلى الماء ويغطسوا في الرّطوبة ليوقفوا الاحتراق لكنّ ركضهم حرّك الجنود ونبّههم فأطلقوا عليهم النّار.

صرخ لين لكنّ دارو أمسـك به وقال: «لا!» مشيرا إلى هيلين «ابقـي بينهـا وبين الجنود». أمسـكت هي بكتف لين وشـعرت بارتجاف عضلاته.

قال: «إنّهم من أهل القرية وليسوا من جبهة التّحرير».

ركـض دارو باتّجاه صوت نار الأسـلحة الأوتوماتيكيّة. كان هناك الكثير مـن الدّخان وأصوات مروحيّات تصمّ الآذان حيث كان من المستحيل استيعاب ما حصل بوضوح.

ذهبت المروحيّات بعد خمس عشرة دقيقة. كان الشّاطئ مليئا بالأجسـاد المتناثرة على الرّمال حتّـى بداية الأمواج. حلّ صمتٌ غريبٌ عدا عن صوت عويل نسـاء القرية اللّواتي رأين الشّاطئ. تحـوّل مزاج الجنود إلى مزاج إجراميّ حيث عادوا مرّات عديدة

إلى الأجســاد الميّتة كأنّهم خافوا أن تُبعث فيها الرّوح. أخذ تانر الصّور وقام بتحريك الجثث برجلــه لتكون في موضع تصويريّ مناسب أكثر. «لا تظن أنّهم سيهربون إلى أيّ مكان». قال لجنديّ حدّق إلى الأسفل مصوّبا حربة سلاحه باتّجاه الجثّة.

تغضّنت جبهة دارو وانخفض رأسه عندما مشى باتّجاه هيلين «هذا يكفي فالنّساء يشاهدننا».

اســتدار تانر وضيّق عينيه قليلا: «لا تشــعر بالغيرة يا سام فأنت لست المصوّر الوحيد في فيتنام».

حدّق الجنود إلى لين وهو يمشي على الشّاطئ مع هيلين «لمَ لم يحذّرنا؟» سألوا مرّة بعد مرّة.

قال دارو: «لأنّه لم يكن يعرف، إنّه إلى جانبنا».

عندمــا حطّ الفريق الطّبيّ الأوّل انضمّ دارو إلى هيلين ولين «لنخرج ما لدينا، لقد حصلنا على ما يكفينا».

بقي تانر مع الفريق.

كان أهــل القريــة تحت الحراســة وهم يمشــون إلى جانب الجنود، شــعرت هيلين بعيونهم عليها. كانت النّســاء ممسكات بأطفالهــنّ بالقرب مــن أجســادهنّ لحمايتهم من الأســلحة.

«لمَ لا يطلقون سراحهم؟».

«من أجل التّحقيق فلا يمكنهم أن يسألوا الموتى إن كانوا من جبهة تحرير فيتنام».

قالت هيلين: «ربّما يجب علينا البقاء».

«الفريق خارج عن السّيطرة. وهذا هو بالأحرى أسلوب تانر».

شــعرت بالخوف ولم تكن لديهــا طاقةٌ أو قدرةٌ على الجدال لكنّها ستندم لاحقا على المغادرة والاستسلام. أثبت لها التّغيير في نفسها قلّة تفكيرها بمصير القرويّين وقلّة ارتياحها أثناء وجودها

مع جنودها. طاروا إلى المشفى الميداني ووضعوا كوستيللو فيه ليتلقّى العناية حيث أعطوه هناك كميّة كبيرة من المورفين ممّا جعله غافلا عن وداعهم له. كانت رحلة العودة إلى سايغون رحلة مظلمة.

في تلك اللّيلة وبينما كانت تحضّر نفسها لتأخذ حمّاما لاحظت أنّ أطراف شعرها كانت خشنة فقرّبتها من أنفها وشمّت رائحة احتراق. وبعد أن بقيت تحت اندفاع الماء لفترة طويلة أحسّت ببرودته، وعندما خرجت من الحمّام بملابسها الدّاخليّة وحمّالة الصدر وشعرها يقطر ماء، جلست على غطاء السّرير بجانب دارو. تمدّد هو على السرير بعينيه المغلقتين. ثم قال: «أنت تقطرين ماء على غطاء السّرير».

«لا يهمّني».

فتح عينيه: «لنذهب ونرى لان في الغد».

أخفضت هيلين رأسها. كيف لها أن تتمكّن من الاعتراف بما شعرت به بعد الظّهر حين عادت إلى البيت؟ كان الأمر لا يزال واضحا كما لو أنّهم قد غادروا الشّاطئ للتّو. لم تكن الصّورة كافية. إنها لم تساعد أحدا. الجنود ماتوا والمدنيّون عانوا، ولم تخفّف أيّة عمليّة تصوير أو فتح مصراع الكاميرا وإغلاقه شيئا من ذلك كله. كان الضّوء يضرب على الطّبقة الحسّاسة وكلّ ما كان يفعله هو التقاط الصور لمعاناتهم وبؤسهم. لم يكن هناك أيّ دفاع ضدّ الشّر الذي تغلغل في النفوس. كلّ ما تمّ على الشّاطئ ذلك اليوم لم يكن إلّا فشلا. حتّى أفضل صورة كانت ستنسى وستقلب الصّفحة عليها.

همست هيلين معتذرة للوسادة غير قادرة على ملاقاة عينيه: «لا أستطيع الاستمرار بفعل هذا».

أحـــاط دارو بها بجســـمه وعانقها: «هذا أوّل شـــيء يذهب، الإيمان. من الأفضل أن تتخلّي عنه».

كانـــت الوقائع القاســـية صعبة بســـبب تعرّضهـــا للتّحوير والتّلاعـــب من قبـــل كل من يتناقلها طبقا لحاجاتـــه أو لنزواته. فلم يكـــن للوقائع المدركة تأثيرٌ علـــى الحقيقة وهي مدفونةٌ في الجرائـــد أو التّقارير الحكوميّة. ومع ذلك كانت الشّـــائعة تنتقل كالنّار في الهشـــيم وتطير بســـرعة الأحداث نفســـها إن لم يكن أسرع، وتعيش في أذهان مستمعيها وتطاردهم.

لم يمض على وجودهم في ســـايغون إلّا ساعاتٌ قليلةٌ عندما بدؤوا بتناقَل الإشاعات الأولية عن مولينا وفرقته.

كانت النّســـخة الرّسميّة عن واحدة من أعضاء فرقة تحرير فيتنام الّتي تســـلّلت خارجة من أحد الأنفـــاق وفتحت النّار على الجنود مستخدمة سلاح الكلاشنكوف، مع أنّه لم يتمّ العثور على أيّ ســـلاح أو طلقات، وبعد الهجوم الأوّل لـــم يقتل أو يجرح أيّ جنديّ أمريكيّ.

نســـخةٌ أخرى من الحكاية هي أنّ امرأة من القرية شاهدت زوجها وهم يطلقون النّار عليه على الشّـــاطئ، فقامت بســـحب مســـدس فرنســـيّ قديم يدويّ الصّنع. أكان لقتل نفسها أم لقتل الأمريكان؟ فارتعب الجنود وفتحـــوا النّار وقتلوا جميع الأطفال والنّســـوة الهاربين. تمّ فحص المسدّس لاحقا ليكتشف أنّه صدئٌ وفارغٌ من الطّلقات.

قصّـــةٌ أخرى أكثر بؤســـا هـــي أنّ مولينا لـــم يحتمل ضغط الإصابات وتحدّي النّســـاء فأمر الجنود بفتح النّار عليهنّ. مشى موليـــنـــا في اليوم التّالي في المقدّمـــة لإحدى جولاته وداس على أحد مقاتلي كليمور المقتولين، منهيا بذلك كلّ التّحقيقات.

أيّـا كانت الحقيقـة، تمكّن تانر من الوصـول إلى الصّفحة الرّئيسـيّة لعدّة جرائد قامت بتوثيق الحادث، وقد دعمت صوره الادّعاءات القائلـة بأنّه تمّ إطلاق النّار على جبهة تحرير فيتنام وأنصارها في إحدى المعارك. رمى دارو الجريدة بعرض الغرفة.

قالت هيلين: «لم يكن بإمكانك إيقاف الأمر».

«لا يهمّ. كان يجب أن أقوم بعملي لا أن..».

«تهتمّ بي وتنتبه إليّ؟».

«كنت شارد الذّهن ويجب ألا أكون كذلك».

اسـتمرّت المعركـة وانتقلـت بين المـدن من (تـاي نين) إلى (بونغسون) ثمّ إلى (آن ثاي).

في اللّيل، اقترب دارو من هيلين معانقا إيّاها في ظلام غرفة النّوم، حيث كانت الرّياح تهدهد أوراق الشّـجرة البرّاقة كصوت المحيط. «ما رأيك أن نؤجّل الرّحيل إلى الشّـهر القادم يا هيلين؟ وأن نذهب إلى المَنطقة منزوعة السّلاح مرّة أخرى؟ فقد سمعت أنّ الأمور مستمرّة في (كوي نهون) و(آ شاو)».

لا شيء. لم تردّ عليه.

«سـتكون كاليفورنيا موجودة بعد عدّة أشـهر أليس كذلك؟ سنذهب بعد أن نغطّي عدّة أخبار أخرى».

فكّـرت هيلـين لاحقا في السـبب الذي جعلهـا تحافظ على صمتهـا. حبّهما لغزٌ لم تتمكّن مـن فهمه، والطّريقة الوحيدة كانت هي أن يأتي معها دارو بمشـيئته. وإلّا فسيكون الأمر وكأنّها ترغمه على فعل ما لا يريد، ولن تستطيع احتمال ذلك، وبخاصّة أنّه أصبح واضحا للجميع أنّها فقدت شهيّتها للعمل بينما هو خلق ليقوم به.

لذا ادّعى أنّه سـيغادر وادّعـت أنّها تصدّقه، وكلاهما عرفا أنّهما كانا يكذبان.

مـــرّت الأيّام وفي كلّ يوم كان هناك ما يغري دارو بتتبعه، أمّا هيلين فقد أخذت على عاتقها الاهتمام بالمهمّات الإنسانيّة الّتي كانت تمتعض منها ســابقا. كان مدار الأشياء الّتي تبعتها يضيق أكثر فأكثر، والمكان الوحيد الّذي شــعرت فيه بكامل الرّاحة كان الشّقة الموجودة في تشولون.

حسم دارو الأمر بأن أقام حفلته في فندق رويال المنهار. البار والمطعم كانا مهترئين منذ الفترة الاســتعماريّة، وكان هذا الأمر مناســبا لموضوع الحفلة. مشى روبرت في ردهة الفندق المحاطة بأشجار النّخيل في لباسه الصّوفيّ الأبيض وخوذته النّاعمة الّتي كانت كخوذة قائد عسكريّ فرنسيّ.

امتــلأ بهو الفندق بالنّاس حتّى اضطرّ بعضهم للوقوف على الدرج وعلى الرّصيف خارجا يشــربون الشّــمبانيا، بينما قامت فرقة بعزف موسيقى الفوكستروت والتّانغو في المراقص العُلويّة. مدّ أحد صبية الشّــارع يده الصّغيرة بســرعة كما لو كان منظار تلســكوب إلى أحد الأطباق الكبيرة وملأ فمه بكلّ ما استطاعت قبضته الإمســاك بــه قبل أن يأخذوه منه. اســتند أحد الجنود القدامى المقعدين على المبنى برجله اليمنى الوحيدة حيث اليسرى مفقودة، واحتسى كأسا من الشّمبانيا أعطاه إيّاها أحدهم.

فــي السّــيارة القادمة إلــى الحفلــة كان دارو يدندن بعض النّغمــات. اســتعارت هيلين ثوبــا طويلا بلون (الكريمــا) مزيّنا بشــريطة ســوداء كبيرة على الصّدر. قال دارو من دون اهتمام: «جميل». كان يرتدي بزّة وهو ممتعض ويجلس على المقعد الخلفيّ للسّيارة بركبة ملاصقة لصدره وهو يبدو محطّما وتعيسا.

مشــوا صاعدين الــدّرج حيث وقــف روبرت فــي المدخل. «أنــت أكثر الرّجال حظّا في فيتنام». صاح روبرت ورفع كأســه

«كن حذرا فقد أحاول سرقتها منك هذه اللّيلة».

ابتسم دارو ابتسامة مهذّبة مشدودة وقال: «افعل ذلك وأنا أتناول الشراب». ثمّ هرب مختفيا بين الحشد.

قال روبرت: «إنّه مرحٌ كالعادة».

«إنّه متعبٌ».

أتى عددٌ أكثر من النّاس وازدحمت السّيارات حول المبنى.

«كم عدد النّاس الّذين دعوتهم؟».

«خمسمئة شخص، ربّما أقلّ أو أكثر. قمت بدعوة كلّ من التقيت به في البلد، لكنّي لم أستطع التّعرف على نصف الوجوه هنا، أظنّ أنّ الأمر خارجٌ عن السّيطرة، وهو أمرٌ مناسبٌ لحرب مستقلّة بذاتها وأحداثها».

كانت آنوك على حقّ فقد استهانت به: «أنت تغادر المكانَ بكياسة».

«غادري معي».

ابتسمت هيلين ونظرت إلى الأسفل. فكّرت للحظة أنّه كان يسخر منها لكنه كان يتفهم سوءَ حالتها. بالإضافة إلى ذلك لم يكن في الأمر تسليةٌ كما لو كانوا يطلقون النّار على أسماك في برميل. «هل آنوك هنا؟».

«إنّها مع عشيقها الجديد، فليس لديها أيّ أحد يمكن أن تحقد عليه خاصّة في هذه الحفلة».

«كلّا هي لا تحقد على أحد، وهذا جزءٌ من روعتها».

اقترب منها روبرت ووضع يده على صدره وقال: «يا له من ثوب جميل ووجه حزين، تزوّجيني».

«أنت ثمل».

«هذا صحيح. أمثالي من الرّجال يشعرون بالجبن حين

يطلبون ما يريدونه، ولكن يكون الأوان قد فات على ذلك».

«لقد فات الأوان الآن. أليس كذلك؟» عضّت شفتها وقالت: «ستسقط ميّتا إن قبلتُ عرضك».

انفجر روبرت ضاحكا وشرب كأسه: «بالطّبع سأسقط، وهذا هو الأمر المضحك فيك، أنّك تفكّرين كالرّجال. لا.. فأنا بحاجة أن أتزوّج من امرأة لطَيفة من النّوع التّقليديّ العائلي، امرأة تحبّني وتبقى معي خارج منطقة الحرب».

قالت هيلين: «لستُ أنا من تبحث عنها». ابتسمت وقد لسعتها كلماته. «ماذا ستفعل في كل هذه الأجواء المفعمة بالسّلام؟».

هزّ روبرت رأسه وقال: «يزداد حبّي كلّما ابتعدت عنّي».

مشى دارو بينهما وهو يمسك بثلاث كؤوس مَن الشّمبانيا وقال: «من سيبتعد الآن؟».

قال روبرت: «أنا إذا حالفني الحظّ. كلّ ما يهمّني هو وقت المغادرة». غمز بعينه نحوها ووكز إصبعه على صدر دارو. «تعرف ما يقولونه: المراسلون الكبار لا يختفون بل يتحوّلون للعمل في المكاتب».

«لا تقل ذلك. لوس أنجلوس ممتعة».

شرب روبرت كأسه بجرعة واحدة: «هذا غير صحيح، إذا أردت أن تكون في موقع الحدث أو إن عدَدْتَ العملَ حرفة». جعلتْ لهفتُه المفاجئة الثّلاثة يصمتون. مع أنّه كان من الواضح أنّ دارو لم يفكّر به كثيرا، فإن روبرت كان يحترمه ويحبّه بالقدر نفسه.

امتعض دارو: «قل لا».

«يا عزيزي، هنا أنا وأنت نختلف، فأنا هنا منذ تسعة وعشرين شهرا وخمسة أيام في حفرة الجحيم هذه». الشّيء الوحيد الّذي

كان روبرت متأكدا منه أنّه من المخزي أنّ دارو كان يسحب هيلين معه.

«سنغادر قريبا». نظر دارو إلى قدميه.

رفع روبرت حاجبيه ونظر إليه وإلى هيلين. بدت هي متفاجئة بالقدر نفسه. «هذا عظيمٌ حقا. لقد خسرت مئتي دولار.. لكن لا يهمّ».

قالت هيلين: «هل راهنت علينا؟ أم ضدّنا؟».

«أنا مراسلٌ صحافيّ. لقد أخذت الاحتمالات بالحسبان».

تجوّلت هيلين في غرفة الطّعام ووجدت آنوك على طاولة أمريكيين من السّفارة. اعترض رجلٌ ضخمٌ بوجه سمين وشعر أسود مجعّد طريق آنوك عندما أبعدتها هيلين إلى البار لتنفرد بمشروب معها.

«أليس جميلا؟» نظرت آنوك إلى الرّجل الّذي لم يبعد عينيه عنها. «كأسان من الشّمبانيا».

«منذ متى وأنت تواعدينه؟».

«إنّه توءم الرّوح».

«قلت ذلك المرّة الماضية. أليس من عدم اللّباقة إحضاره إلى حفلة روبرت؟».

كانت آنوك ترتدي ثوبا أحمر مطرّزا يتلألأ كلّما تحرّكت. ابتعدت عن البار وبدأت بالتمايل مع الموسيقى. «انظري حولك، خيرة الرّجال إمّا غادروا وإمّا ماتوا، ما الفرق؟».

«ماذا لو انتهى بك الأمر وحيدة؟».

«كنتُ متزوّجة وانتهى بي الأمر وحيدة. الجميع يغادرون، روبرت، سام، وحتّى أنتَ والأمر يحزنني كثيرا».

«ابحثي عن شخصٍ آخر إذا».

نظرت آنوك إليها نظرة تخمين قويّة، وجه سيّدة الأعمال كان وجهها الحقيقيّ «أنتِ تفكّرين بالمستقبل كثيرا. اللّيلة ارقصي فقط».

ضحكت هيلين مشيرة إلى الطّاولة وشفتاها مضمومتان على بعضهما في عبوس «اذهبي إلى عشيقك».

«إنّه يكره الرّقص ويغار إذا رقصت مع رجل آخر، ستكون ليلتي سيّئة».

قالت هيلين: «لنرقص أنا وأنتِ إذا».

«أنت مجنونةٌ».

«أقنعَتني الآن».

رقصتِ المرأتان على أرض المرقص مع تشجيع من الطّاولات المجاورة. قادت هيلين الرّقصة وتعثّر كلاهما أضعافا من كثرة الضّحك، فكانتا بالكاد تقدران على الوقوف. واستطاعتا ببطء أن ترقصا رقصة الصّندوق بخطواتهما.

حلّقت هيلين مع الموسيقى وعقلها مشغولٌ بالمشهد السّخيف المسلّي الّذي تضمّنها هي وصديقتها، واجتاحتها موجةٌ من الارتياح وعدم القلق. كانت سعيدة أنّها لم تشرب الكثير من الشّمبانيا وأنّ الفرح الّذي شعرتْ به كان صافيا. بينما استدارت آنوك في دائرة بعيدة عنها بمظهرها البرّاق. فكّرت هيلين أنّها ربّما كانت على حقّ فقد كان هذا هو مكان الهروب الوحيد من الحرب.

كان توقُّف الفرقة المفاجئ وغير المنتظم ووقوف الرّاقصين على أرضيّة المرقص أوّلَ إشارة أنّ شيئا ما كان قد حدث. هناك صرخاتٌ غاضبةٌ، سمعت هيلين صوت دارو. شقّت طريقا بين الحشد ورأت تانر، لكن لم تستطع تفسير كلامه. وقف دارو

مقابله بهدوء بينما كان روبرت واقفا بينهما محاولا إبعاد تانر. لكنّه أفلت من قبضة روبرت وترنّح إلى الأمام وقال أشياء لم تستطع فهمها أيضا.

تحرّك دارو حركة واحدة إلى الأمام وضرب تانر على وجهه بقبضته اليمينيّة وأوقعه أرضا على ظهره. صدرت ضحكاتٌ غامضةٌ من الحشد ورأت هيلين لطخة دم تحت أنف تانر وهو يهزّ رأسه. جلس مسترخيا على الأرض وهو يمسح أنفه بمنديل أعطاه إيّاه أحدهم. عندما تكلّم كان صوته منخفضا جدّا ومتّزنا كما لو كان يتناقش في السّياسة ويحتسي البراندي.

«عليك اللّعنة يا دارو... أنت ميّتٌ، في الصور أو في غيرها».

«مشكلتي هي أنت».

وقف تانر وهو يترنح. اقترب منه بعض الرّجال ليمسكوا به لكنّه أبعدهم عنه: «لقد انتهيت أنا هنا». مسح فمه الملطّخ بالدّم ونظر إلى يده. «إنّها مقاطعة (كوانغ نغاي). وإنّ عليّ أن أتداخل مع بعض جنود المارينز المجانين. من كانوا في النّفق كانوا من جبهة تحرير فيتنام. ماذا لو قتلوا أحد رجالنا؟».

اتّكأ دارو على الحائط وفرك يديه «لقد قتلوا النّساء والأطفال».

«لسنا شرطة الفضيلة هنا. خاصّة أنت، أليس كذلك؟ طالما أنّ لديك زوجة وولدا في أمريكا وصديقة هنا، كلّ شيء بخير أليس كذلك؟».

اندفع دارو. واحتاج الأمر لروبرت وثلاثة رجال آخرين لسحبه إلى الخارج. ومع أنّ دارو وهيلين كانا متلازمين بشكل علنيّ لأكثر من سنة لكنّ تلك الكلمات كان لها وقع جديد، فقد شعرت بالنّظرات من بعض الرّجال والتّحديق من بعض الزّوجات والصّاحبات.

قال روبرت: «انســـي أمر تانر، إنّه شخصٌ وضيع وقد انتشى من مجرّد أنّك أخذته يوما ما على محمل الجدّ».

قال دارو: «أنا آسَف لم يكن عليّ المجيء إلى هنا».

قال روبرت: «عد إلى هنا، لا يزال الوقت مبكرا».

«ليس مبكرا بالنّسبة لي».

بحثت هيلين عن صديقتهـــا لتودّعها، ورأت ومضات حمراء تهتزّ في نهاية البار، وعندما اقتربت منها رأتها تبكي.

قالت هيلين: «ما الخطب؟».

امتعضت آنوك وقالت: «كلّ شيء يتداعى».

«ماذا تقصدين؟».

«كلّ شيء. الحرب تشارف على النّهاية».

«أين.... رَجلُك؟».

هزّت رأســـها بانزعاج «إنّه لا شـــيء، ظننت أنّه توءم الرّوح، الحرب فقط هي توءم الرّوح».

عـــاد دارو وهيلين بالسّـــيارة في صمت. علّقـــت هيلين ثوبها المســـتعار على الضّوء الأحمر. ذهبا إلى السّـــرير واستلقيا جنبا إلى جنـــب دون لمس أو كلام ثمّ اســـتدارا مبتعدين عن بعضهما وغطّا في النّوم.

في منتصـــف اللّيل، اســـتيقظت هيلين على صـــوت الرّعد وصوت المطر على السّـــطح. وكعادتها ســـارعت ووضعت بعض الأواني تحت أماكن رشـــح المياه المعتادة في السّـــقف. عادت إلى السّـــرير وأصغت إلى طقطقة قطرات المـــاء على المعدن ثمّ على الماء. نهض دارو وقف عند النّافذة ليدخّن.

قالـــت: «لا أظنّ أنّـــه يهمّك إمكانيّة غرقنا فـــي الوحل أثناء نومنا».

«ذاك الملعون. هل هو محقّ؟».

حدّقت إلى بقعة الماء الّتي على السّقف وقالت: «من تعني؟».

«الحقير.. تانر».

«ماذا تقصد؟».

«ما يغضبني أنّني أرى نفسي فيه».

عدّلت هيلين من جلستها بعد أن طوت ركبتيها تحت ذقنها.

«أنت لا تشبهه على الإطلاق». أتى دارو إلى السّرير وجلس. «لقد مضى على وجودي هنا زمنٌ طويلٌ. سمعت عن شيء حدث في (كان ثو) أو (بليكو)، وعليّ أن أكون أوّل الموجودين هناك».

«هذا عملك».

«لقد قمتُ بسحبك معي طوال هذا الوقت. لم أقصد أن أفعل ذلك». أحاط بذراعها وأخذ يربّت على بشرة معصمها.

قالت: «ليس عليك المغادرة من أجلي».

هزّ دارو راسه «لنذهب في رحلتنا إلى كمبوديا. أريد أن أرى آلهة الماء والغيوم. لدي أحلامٌ هناك».

أدركتْ وهو مستلق بين ذراعيها أنّ ما قاله لم تكن كلماته، بل كان كلمات أرادت هي سماعها، لكنّها لم تكن بالضّرورة هي الحقيقة. لقد خلق لنفسه مجموعة من القطع المختلفة لن تتمكّن من تجميعها أو فهمها أبدا.

«أنا متأهب للذّهاب معك».

لقد حلمت بتلك الكلَمات طويلا لدرجة أنّها بالكاد استوعبتها، لكنّها حاولت إقناع نفسها أنّ الحصار الطّويل قد انتهى. وفي النّهاية فإنه يحبّها، والآن أصبح بإمكانهما العودة إلى الوطن.

عندما غادر في ذلك الصّباح الباكر كانت لا تزال نائمة.

كانـــت تلك هـــي الطّريقة التي تمضي بها الأمــور في فيتنام خلال الحرب، فقد أحسّ دارو بالقوّة في بعض الأحيان، وأحسّ أنّه بإمكانه ركوب الحظ كما لو كان بســاطا طائرا أو كما لو كان مروحيّة، أحسّ أنّه استطاع أن يثني ظروفه ليقوم بفعل ما يريده هو. وفي أوقـــات أخرى كانت الظروف تذكّــره بأنّه مجرّد لعبة يمكن تحريكها بهذه الطّريقة أو تلك أو يمكن إبعادها أو تدميرها لمجرّد نزوة.

تمّ اتّخـــاذ القرار الصّعب وشـــعر دارو أنّه أكثـــر خفّة، وهو شعورٌ لم يتنبّه منذ سنين. وازنت هيلين حياتها معه وكان هو على اســـتعداد للتّخلي عن كلّ شـــيء وأن يتبعها ويتبع حياتها للخروج من ذلك المكان. وكما كان مخطّطا فقد انضمّ إلى طاقم مروحيّة عســـكريّة، يمضي دارو الصّباح طائرا فـــوق مقاطعة (تاي ننه) على طول حدود كمبوديا وهو يصوّر عمليّة تبادل للسّوق السوداء على الحدود. كان الصباح جيّدا والمروحيّة جيدة. شعر بالارتياح فـــي حالته تلك. حلّـــق الطّيار بخطّ متعـــرّج كاد يلمس فيه قمم الأشجار، ما كان يســـمى «إغفاءة الأرض». تمكّنت قوّاتٌ معاديةٌ من سماع صوت الطّائرة، لكن لم يكن لديهم الوقت لإطلاق النار في كثافة ظلال تلك الأدغال.

كان الكابتن أندرســـون في منتصف العشـــرينيّات من عمره وهو شابٌ أشبه بالجرو الصّغير يتحلى بابتسامة دائمة غير قادر على إخفاء متعته في الطّيران. أومض ضوء الشّـــمس على شعره الأشـــقر الحليق. ابتســـم دارو وخطرت له فكرةٌ حكيمةٌ، أنّه كان كبيرا في الســـنّ بما فيـــه الكفاية لأن يكون لديـــه ولدٌ في عمر أندرسون. كيف مضى كلّ ذلك الوقت؟

بعد القيام بمســـح هوائيّ تلقّى أندرســـون الأوامر بأن يهبط

في قاعدة عسكريّة في (باروت بيك). كانت المنطقة منعزلة، وتُعَدّ تلك البلدة وكرا للصوص مليئة بمواقع لجبهة تحرير فيتنام وجيش فيتنام الشّمالي. وكانت القاعدة العسكريّة قد تعرضت لهجوم في اللّيلة الماضية، وأضحت جثث العدوّ معلّقة على السلك المحيط وانتفخت في حرارة الشّمس كما لو كانت كؤوس انتصارات.

جلس دارو والطّيار على الأرض وظهورهم مستندة على أكياس الرّمل، وأكلوا طعام الجيش المعلّب متجاهلين الرّائحة النتنة الآتية من الأسلاك.

«أنا خجلٌ من قول ذلك.. لكنك كنتَ من ألتقط الصور لأبي عندما كان يخدم في كوريا».

«أتمزح؟».

«أقسم على ذلك وقد عرفت اسمك على الفور».

«هذا مذهلٌ. إذا هو عاد إلى الوطن وأنجبك».

«وخمسة آخرين. انتظرْ حتّى أخبره أنّك هنا».

«سيكون ذلك جيّدا، جيّدا جدّا».

سأله إندرسون «إلى أين أنت متّجهٌ بعد هذا؟».

«سأعود إلى الوطن». شعر بغرابة الكلمات في فمه كأنّه غير متّصل مع ذاته. بعد كلّ هذه السّنوات. أين كان الوطن؟ شعر أنّه في وطنه هناك مع هذا الشّاب الّذي كان من الممكن أن يكون ابنه لكنّه لم يكن. أطلق الشّاب نفسا «الوطن. أنت محظوظ».

«لا بدّ أنّ والدك فخورٌ جدّا بك. هل تشتاق للوطن؟» سأله دارو.

في ضوء الشّمس البرّاق فكّر في وجه الكابتن الشّاب واستحالة براءته وخلوّه من أيّ خطوط. أكان هو نفسه شابا

في يوم من الأيام؟ شعر بالاختناق فسحب سيجارة وعرض عليه واحدة. أخذها إندرسون لكنّه حوّل نظرَه وأدرك دارو أنّه افتقد تلك النّظرة وافتقد رؤية القوّة في فكّيه، وأنّ ذلك الكابتن لم يكن سوى صبي يستمتع بالطّيران.

«أحيانا أفتقد الوطن وأحيانا لا. أتفهم ذلك؟».

قهقه دارو «لقد مررت بذلك الشعور أيّها الشّاب».

قام إندرسون إثر تعرضه لذلك الإحساس وأومأ برأسه. «أعني أنّني في وضع ملائم. أخيرا أنا قادرٌ على فعل هذا الأمر.. لكن لم يعد للأمر معنى ولا أعرف إن كنتُ واثقا ممّا أفعله».

«أنا كذلك».

«لماذا تذهب إذا؟».

امتعض دارو: «بسبب امرأة، لم أستطع منع نفسي».

ضحك إندرسون بصوت عال «أتمزح؟ حسنا أتمنّى لك حظّا موفّقا، أنت رجلٌ أكثر شجاعة منّي». أخذ سحبة طويلة من سيجارته «عليّ أن أكون واحدا من أفضل الطّيارين، لذا يقومون بإرسالي في المهام الصّعبة وأعمال الأبطال كلّها؛ لذلك ففرصتي في الموت في إحدى المهامّ هي أفضل من كوني فاشلا. أليس ذلك أمرا غير منطقيّ في غاية التّعقيد؟».

«ليس عليك أن تكون أفضل طيّار».

ضحك إندرسون وقال: «أنت مخطئٌ، عليّ أن أكون أفضل طيّار وهم يعرفون ذلك ولا أستطيع أن أكون إلّا هكذا». مد جذعه بخلاعة وقال: «الطّيران هو الشّيء الوحيد الّذي أجدته طوال حياتي».

في اليوم التّالي كان إندرسون ودارو في طريقهما إلى قاعدة السّلاح في (كونتوم).

مرّ الصّباح هادئا وأمضى دارو ساعاته بمزاج حالم يهدهده القرب من الأشجار وسرعة مرورها تحت قدميه أثناء طيرانهما. عــدا عن صوت المحرّكات الذي يصمّ الآذان. كانت نظرته للعالم كله كأحلام الشّباب بالطّيران، قبل ظهور أحلام أخرى واستيلائها على كلّ شيء، وهي أحلام الحرب.

كان ســيأخذ هيلين إلى إنغكور ويريهــا تعابير الوجوه المليئة بالهــدوء الممزوج بالوحشــية. هي الوحيدة الّتي كانت ســتتمكّن مــن فهم أنّ تاريخ ذلك المكان يثير شــهوة عظيمة للعنف، وعدم اكتــراث به. ألم يكــن ذلك ما آل إليه حالهمــا؟ هو وهيلين كانا مترجمين للعنف وناقلين لــه.. كان ذلك نوعا ملتويا من التّذوق. كانا سيجلســان على الصّخور الدّافئة في المساء، وكان سيهمس لها بمخاوفه العظيمة.

مخاوفه كانت تكمن في أنّ الصّورة تخون صاحبها في النّهاية، تحزن وتغضب لكنّها في النّهاية تقتل. الصّورة الأولى أو الخامســة أو حتّى الخامســة والعشــرون كان لها قوّةٌ.. لكن فــي النّهاية فإن التّكرار جعل الرّعب سائغا. في السّنوات القليلة الماضية مهما بذل مــن جهد لم تكن صوره بالقوّة ذاتها قبــل أن يدرك تلك الحقيقة. لقــد كان كالمدمن الّذي يضطرّ إلى زيادة الجرعة لكي يحصل على النّشوة ذاتها، ووجد نفسه يخاطر أكثر ويعمل أكثر مقابل عائد أقلّ. لن يشعر مرّة أخرى بذلك الشّعور ذاته الّذي أحسّ به عندما شاهد صــورة ذاك الجندي المتوفّى في الحرب العالميّة الثّانية. أكان لعمله التّأثير نفسه على من كانوا يشاهدونه؟ أكان فقدان التّأثير المستمرّ هو السبب في أنّ العنف أصبح بلا معنى؟ شجاره السّخيف مع تانر عندمــا كان تانر في الحقيقة يمثــل النتيجة المنطقيّة لمهنتهم. ربّما كانوا يستحقّون أن يتّهموا بجرائم الحرب أيضا.

كان قلقا كلّما زادت سرعة الأشجار تحت قدميه، لكنّ هيلين لن تصدّق أنّه أحبّها إن لم يغادر معها.. لكنّه كان سيثبت الأمر بمئات آلاف الطّرق.

كانوا يطيرون فوق وادي (بليي تراب) عندما ربّت إندرسون، الّذي تخيّل دارو أنّه ابنه هو وهيلين، على كتفه وهو يصرخ ليعلو صوته فوق صوت المحرّكات وابتسامته الصبيانيّة سخيفة ومريحة «هل أنت بخير؟».

«أنا بخير لكنّ الحرارة تؤثّر عليّ».

«لديّ اثنان من الجرحى بحاجة إلى إخلاء طبّي عاجل ونحن الوحيدون القادرون على جلبهم. هل تمانع في ذلك؟» سأله بحماس كما لو أنّه كان يستعير مفاتيح سيّارة والده.

«لنذهب». ضحك دارو ورفع إبهامه مشجّعا. دخل في منطقة عميقة ثمّ دون قصد دخل أكثر عمقا. ألم يكن كلّ رجل في الحرب يؤمن بأنّه سينجو، سيعيش وسيعود للوطن ممتلئا بالحكايات؟ لم يكن دارو مختلفا عن الآخرين، فالحقيقة الخافية هي أنه كيف تمكّن كلّ منهم من البقاء حيا حتى الآن.

نزلوا في دائرة معركة بعد عدّة دقائق، وشعر بألم مألوف في المعدة وبأن فمه يجفّ. ثمّ كان هناك تحطّمٌ رهيبٌ، كأن الطّائرة قد تعرّضت للصّاعقة أو ضربت بيد ضخمة عوضا عن صاروخ. تحوّل الولد إلى محارب ووجهه أصبح متجهّما كما لو أنّه ارتدى قناعا، بينما طاروا بشكل حلزونيّ باتّجاه الأرض. أشار صوتٌ مصمٌّ للآذان أنّ ذيل الطّائرة لم يعد موجودا. اقترب خضارُ الأشجار منهم باندفاع يثير الغثيان، ورأى دارو وميض ضوء بين الأغصان. رأى المحارب البنّي النّاعم الّذي كان يقيم العبادات في بلده وقد اتسعت حدقاته. رفع دارو رأسه الّذي كان بثقل الجاذبيّة

الآن ونظر إلى إندرســون مرّة أخيرة. «يا ولدي». استأذنه ونظر إلى الخارج حيــث رأى اندفاعا من اللّون الأخضر ووجه هيلين. كانت الأغصان كالأذرع الممتدّة. حســب المرّات الّتي نجا فيها من قبل وسمع صوت صفير وفراغ الهواء بينما أصبح زجاج مقصورة الطّيران برّاقا كشمس جديدة. رأى مفاصل أصابع بيضاء وضوء الشّــمس وعينيها، والضوء الأخضر الممتد. رأى كلّ ظلال اللون الأخضر الموجودة في العالم.

(13)

كا داو
الأغاني

الاسم: صموئيل أندريه دارو
الرّتبة/ الفرع:
الوحدة:
تاريخ الميلاد: 7 مايو 1925
بلد التسجيل: مدينة نيويورك، ولاية نيويورك
تاريخ الوفاة: 14 نوفمبر 1967
بلد الوفاة: فيتنام الجنوبية
بيانات الوفاة: (14127N 1074920E ZAO45798)
الحالة: مفقود في المعركة
الفصيلة: 1
الطّائرة/ وسيلة النقل/ الأرض: طائرة استطلاع
أشخاص آخرون كانوا في الحادث: الكابتن جون إندرسون.

ظلت مهمّة العثور على الجثث مرفوضة لعدّة أشهر بسبب تحرّكات العدوّ الّتي كانت تُعَدّ في غاية الخطورة. لكنّ المسح كشف مؤخّرا أنّ العدوّ انسحب من المنطقة. أزيل ستارٌ غير مرئيّ ومع أنّه لم يتغيّر شيءٌ للعين المجرّدة، فالهضاب حافظت على خضارها والطّرقات امتدّت واعدة بالبراءة، والأرض عادت إلى كونها محايدة بشكل رسميّ.

ذهب كلّ من لين وهيلين مع عناصر من القوّات الخاصّة الأمريكيّة واثنين من الجوّالين من فيتنام الجنوبيّة ممّن كانوا على اطّلاع بتلك البقعة من شبكة طرقات (هوتشي منه)، ذهبوا في مركبات ناقلة للحمولة وصلتهم مصادفة مع مرتزقة قبائل الجبل الّذين قادهم ضبّاطٌ من القوّات الخاصّة.

بعد أن مشوا طوال الصّباح ذهبت القوّة الأساسيّة لتدمّر مجمعات تحصينات العدوّ، بينما مشت وحدتهم بطرق فرعيّة مسافةً خمسة كيلومترات إلى موقع الحادث. تمّ تصنيف دارو والطّيار على أنّهما مفقودان أثناء المعركة؛ لأنّه لم يتمّ العثور على الجثث. أثار غضب هيلين إعطاء الحقيقة عناوين خاطئة. كانت تتسلّق الجبال بروح صافية، ولم تكن تريد إحضار كاميرتها لكنّ لين أصرّ على إحضار حدّ أدنى من المعدّات.

من هضبة مجاورة، ركّزت هيلين منظارها ورأت بقعة سواد في موقع الحادث، حيث كانت الخضرة المجاورة محترقة حتّى تحوّلت إلى رماد بعد تلك النّار. «ها هي». قالت وهي تشعر بحماقة الحماس في صوتها.

شاهدها لين بعينين نصف مغلقتين من ضوء الشّمس البرّاق. ومن دون أيّة كلمة تبع أحد المشاة إلى واد منحدر. كان غاضبا من إلحاحها على المجيء وعدم وجود فائدة من تعريض نفسها للخطر.

بقيت هيلين بالقرب من الرّجل الّذي تمّ تعيينه كمرافق لها وهو الرّقيب جيمس. كان جيمس رجلا طويلا بشعر مائل للحمرة ووجه فاتح البشرة. وكلّما توقّفوا ليأخذوا استراحة كان يخرج قضيبا من الزّنك ويمرّره على وجهه ورقبته حتّى يبيضّ وجهه «لقد احترق وجهي وتقشّر عدّة مرّات ولم يبق عندي إلّا طبقةٌ واحدةٌ من الجلد».

أسرعت هيلين في خطواتها بالرّغم من سخف الأمر، ومشت أمام جيمس، ومرّت أمام لين في هيجانها وعجلتها ممّا جعل الوقت يبدو وكأنه عامل مهمّ يمكن أن يغيّر شيئا أساسيا في الموضوع.

كان موقع الحادث قريبا من قمّة الهضبة، وكان منظر الجبال الخضراء يمتدّ إلى لاوس وما بعدها. مال الضوء بعد الظّهر في السّماء وجعل لكلّ شيء ظلّا ذهبيّا مائلا للّون الأخضر. وكانت رائحة العشب ملطّخة برائحة الفحم. هبّت الرّيح، وحفيف أوراق الأشجار يصدر صوتا خفيفا كأجراس أشبه بالخيزران في مقبرة.

تذكّرت كيف أيقظها دارو فجرا ذات مرّة وشاهدا الشّمس تشرق على سلاسل جبال كورديلا. كانت الجبال بعيدة جدا لا يمكن الوصول إليها، لكن الآن كانت الجبال في داخلها، ومع ذلك بدت بعيدة وغير معروفة.

سألت: «هل ذهبت إلى هناك من قبل؟».

«غير وارد، إنّه مكانٌ مليء بالأخطار وقطّاع الطّرق. لكن العودة ليست سيئة فبعد موت الضّحيّة لا يهتمّ العدوّ بالنّظر في المكان من جديد».

انضمّ الرّقيب جيمس إلى الجنود الآخرين المحيطين بهيكل المروحيّة المحترق الّذي بدا كأنّه نجا من عاصفة حوادث وظل راقدا هناك لعشرات السّنين. جلس الرّجال القرفصاء إلى جانب الأكوام السّوداء الموجودة على الأرض وفتحوا كيسا لوضع الجثث مستخدمين قفّازات سوداء ومجرفات.

شعرت هيلين بألم كبير في رأسها ينذر بنوبة صداع نصفي. ثم وقفت هناك دون هدف. بالطّبع لم يكن هناك شيء يخصّها

لكنّها لم تكن قادرة علـى الابتعاد. كان كيانها مفكّكا، وكان عذر الذّهاب هـو راحتها الوحيدة. لم يكن مناسـبا أن تعيش معاناة المـوت دون مراسـم أو دون إحيـاء الذكـرى لمـا كان يربطهما ببعضهما. سـقطت قطرة دم حمراء علـى قميصها ثمّ بدأ الدّم بالسّيلان من أنفها.

كان لين إلى جانبها وبسرعة سحب منديلا وسندها إلى ظلّ إحدى الأشجار.

سألته: «ماذا حدث؟».

«ارتفاع في درجة حرارة الطقس».

جلسـت ورأسـها مائلٌ إلى الخلف وطعم الدّم المعدنيّ يسلخ غشاء حلقها.

«لا تغضب منّي».

كان لين ينظّف إحدى العدسات بقطعة قماش. «بسبب نزيف أنفك؟ جميعنا نفتقده».

«لماذا تنظر إليّ هكذا إذا».

«مضـى على وجودك هنا وقت كاف لكنّك ما زلت تتصرّفين كطفلة». تذكّر لين تصنّع دارو ردّة فعل على موت سـامانغ بلدغة من أفعى في إنغكور. لمَ لم يستطع أحد منهم قبول حكم القدر؟ لمـاذا اضطرّوا إلى المَجيء والمشـي طويلا إلى مـكان الحادث. بالطّبع لا بدّ له أن يسـأل نفسه السّـؤال ذاته. والجواب هو أنّه خـاف عليها أكثر من خوفه على نفسـه. آمـن بالانفصال أكثر وأكثر لأنّه كان الحلّ الوحيد للخسارة الدّائمة.

«فقط كن صديقي».

«أنا صديقك دائما».

فـي وقت لاحق مشـت جيئـة وذهابا على طـول حد مكان

الحــادث باحثة عــن بقايا منتشــرة على مســافات لا بأس بها من الحطــام. وجدت بين أراض منخفضة من العشــب الضّخم قصاصات صغيرة من أفلام بمقــاس 35 ميلمتر، كانت الطّبقة الحساسة محروقة حتّى بدا شكلها حليبيّا وغير واضح. استعاد لــين قطعة من ربــاط الرّقبة المطرّز الّذي كان دارو يســتخدمه للكاميرا (لايــكا) المفضّلة لديه، وجده تحت إحدى الصّخور. مع أنّــه كان يحب أن يحتفظ بــه لكنه أعطاه لهيلين الّتي حملته بين أصابعها بحذر وكأنّه محروقٌ لتوّه.

جــاء الرّقيــب جيمــس إليهــا وأعطاهــا قربة مــاء وقال: «يا آنسة؟».

تمتمت: «عفوا، إنّها الحرارة».

«علينا أن نغادر».

أومــأت هيلين وأصابعهــا كانت لا تزال تبحــث في الأرض المتفحّمة عن قصاصات أفلام: «مستعدة للمغادرة».

أخذ منها قربة الماء وقاد السيّارة عائدا. «آسف على خسارتك لقد ماتا ميتة الأبطال وهما يحاولان إنقاذ اثنين من رجالنا».

«لا أعلم».

جعّد أنفه كما لو أنه اشتمّ رائحة كريهة «ماذا قلت؟».

«العديد من الأبطال في حياتي وجميعهم رحلوا».

كانت أصابعها ملطخة باللّون الأســود وهي تضع ثلاث قطع صغيرة من الفيلم في جيبها.

عندما مسحت العرق عن جبهتها تركت لطخة سوداء عليها. انتهــى وقت الحزن المُســرف وجفّت عيناها وهــدأت، لقد تغيّر شيءٌ ما، مهما كانت الصّلة الّتي شعرت بها تُجاه الأرض أو تجاه الجنود فقد انكسرت.

أتى لين إليها وأشار إلى جبهتها.

اهتمّ بها خلال أيام فترة النّقاهة في شـقّة تشولون. قرّر لين أنّ الإجلال الوحيد الّذي يسـتطيع أن يقدّمه لذكرى دارو هو أن يرسـل هيلين إلى وطنها بأمان. وافقت علـى الذّهاب حالما يتمّ إحضار الجثّة. عندما تلقّوا خبر تحطّم الطّائرة أصرّ غاري على أن يذهب لين معه إلى الشقّة، وحالما فتحت هيلين الباب ونظرت إلى وجه لين عرفت على الفور. أسـوأ مـا في الأمر أنّه لم يكن مفاجئا وكان سهل القبول. أدخلت لين إلى الدّاخل وأغلقت الباب في وجه غاري. لكن حتّى مصيريّة الموت لم تسـاعدها في تقليل حزنهـا. كان صوت بكائها يمزّق جراحـه ويضعه في عذاب إن بقي، وعذاب إن غادر.

خلال تلك الأيام الطّويلة سألته عن حياته، وكشف عن أجزاء منها للمرّة الأولى. لقد اكتسـبت ثقتـه. أخبرها عن والده الّذي كان وطنيّا وكيف أنّه أراد ببسـاطة اسـتقلال بـلاده، وأنه اتبع هوتشـي عندما اعتنق الوعد الأوّل للشيوعيّة، وهذا ما جعل لين ينضمّ إلى جيش فيتنام الشّـماليّ إيمانا منه بأبيه، لكنّه سرعان مـا أدرك أنّه وعـدٌ كاذبٌ. كانت العائلة مسـتعدّة لأن تفقد كلّ شيء وتهرب. لكنّهم وجدوا أنّ الجنوب فاسدٌ أيضا ومليءٌ بالدم المسفوح بأيدي الأعداء.

فكّت هيلين منديلها وبلّلته بماء من القربة ومسحت حاجبيها ثمّ مرّرت القماشة المبلولة على وجهها كلّه لتغطّيه. كانوا يعذبون الرّجال بخنقهم بهذه الطّريقة.

«حان وقت المغادرة» نزع القماشة عن وجهها.

وقف الرّقيب جيمس مرتاحا مع بقيّة الجنود بمواجهة الوادي الّذي وصلـوا إليه، كانت قدماه مفتوحتين وذراعاه متشـابكتين

خلــف ظهــره كما لو كان حارســا . كان هناك كيســـان صغيران مخصّصان للجثث عند أقدام الجنود . اســـتطاعوا سماع صوت المتفجّــرات الّتي تحت الأرض بعيدا على الطّريق الأجوف كما لو كانت نبضات قلب. وانتشرت نفحات من الدّخان الرّقيق الأبيض في الهواء فوق قمم الهضاب.

من المفروض أن يقوم ســكّان الجبال بحمل البقايا وإبعادها لكنّهم لم يظهروا . قال جيمس إنّهم على الأرجح يقومون بتفجير الغرف المحصّنة الّتي تحـــت الأرض، لذا قرّر الجنود أن يحملوا الحقائب بأنفسهم وألا يخاطروا بكشف أنفسهم ليلا .

مشى الجنود في صفّ واحد خطوة خطوة على الطّريق الموحل، كانت الأرض ليّنة وحمراء تحت خطا أحذيتهم العسكريّة، كان كلٌّ منهم يحمل أطراف أعمدة خشـــبية، تمايلت الحقائب وأصدرت أصوات صرير بســـبب عدم تســـاوي خطا الجنـــود وانزلاقاتهم الصّغيرة. تبعهم لين وهيلين إلى عمق الوادي المكســـوّ بالأعشاب الطّويلة، حيث أعماهم ضوء الشّـــمس ثمّ غاصوا في ظلام الظّل وهم يتابعون خطاهم في ذلك المنحدر الجبليّ.

كانت الشّجيرات الشـــوكيّة تملأ الدّرب حيث شقّت إحداها ســـروال هيلين ومرّة أخرى وهي تحدّق إلى الوادي طعنتها شوكةٌ كبيـــرةٌ في ذراعهـــا . ظهرت على ذراعها قطـــرات دم على طول الجرح لكنّها تجاهلتها حتّى أتى إليها لين ومســـحها بقوّة بقطعة قماش وعيناه تلمعان.

«عليك أن تراقبي خطواتك وتكوني أكثر حذرا».

عندما عادوا إلى منطقة الهبوط كانت الشّـــمس قد غربت، وكانت مروحيّة مؤن في طريقهـــا إليهم. تاقت هيلين للعودة إلى المدينة وإلى شـــقّتها الّتي لم تنتقل منهـــا ونصف أغراضها فيها

ونصفها في صناديق جاهزة للانتقــال. انتظرت وظهرُها متكئٌ علــى الحقيبتــين الموضوعتين بجانب الأرض مقطوعة الشّــجر مكان الحادث.

بينما كانوا ينتظرون أربعة مشاة من حَمَلة الاستكشاف الطّويلة جاؤوا إليهم من بين الشّجيرات. سلّموا بأكفهم على الكتيبة التي كانت تقوم بالحفر طوال اللّيل ثمّ أومَؤُوا إلى الحقائب ثمّ جلسوا القرفصاء تحت شــجرة وبدؤوا بسلق الأرزّ واللّحم المجفّف. كان أولئك الرّجال من النّوع الّــذي يفضّله (ماك كراي)؛ لأنّهم كانوا يعملون متخفّين بعد أن يتكيّفوا مع اللّغة والحياة في البلاد.

ذهب لين وانضمّ إليهم مرهقا، جلســت هيلين على صندوق أطعمــة معلّبة. تفاجــأت عندما أعطى أحد الرّجال لين كأســا بلاستيكيّا، وتفاجأت أكثر عندما قبله منه وجلس ليشرب معهم. خمّنــت من اهتزاز رأس لــين والضّحكات العاليــة للجنود أنّهم يشربون الويســكي غير الشّــرعي الخاصّ بالقبيلة الّتي تسكن الهضبــة، وهو كحولٌ مخمّرٌ مصنوع من الأرزّ في غاية الخطورة حيث يمكن أن يكون قاتلا.

أتت الطّائرة وابتعد الجميع ليحموا وجوههم. شــارك المخيّم كلّــه في إنزال المــؤن. قفز اثنان من الكشّــافة مهتاجين من أثر الخمر وأمســك كلّ واحد منهما بطرف إحــدى حقائب الجثث وقذفوها من الأرض إلى المروحيّة بقوّة وعنف.

صرخت هيلين: «حاذروا!».

حدّق الرّجلان فيها بنظرات فارغة «لن يشــعروا بشيء بعد الآن». قال أحدهم وضحك الآخر بعواء.

حدّقت هيلين إليهما وإلى لين الجالس هناك كما لو أنّه واحد منهم وقالت: «سأتذكّر ذلك عندما أحمل حقيبتك».

حرّك الجنديّ يده كما لو أنّه لمس شيئا ساخنا «هسسسسسس!!».
شـاهدت هيلين عملية تحميل الحقيبة الثّانية بحذر ولطف.
تهادى لين إليها وقال: «لم نخرج لنستمتع، لقد خرجنا معهم في جولة استكشـافيّة». وأومأ برأسه باتّجاه أعضاء الكشّافة الّذين يتناولون غداءهم.
«أنت ثمل». اشـتملت نظرات هيلين علـى مجموعة الرّجال الّذين كانوا غافلين عن وجودهم. «هل يعلمون بذلك؟».
«لقد تمّ التّرتيب للأمر مسبقا».
«من قبل مَن؟».
هزّ رأسه وقال: «من قبلي أنا».
فركت حذاءها بالوحلِ ذهابا وإيابا بشكل قوس طويل متعب وقالـت: «أنا متعبـةٌ.. اذهب أنت. أنا سـأعود علـى متن هذه الطّائرة».
أمسـك لين بذراعها: «تعالي هذه المـرّة أكراما لي ومن دون أسئلة».
تـردّدت. فبعد موت دارو شـعرت بالغربة مـع لين، فذكرى وجودهم سـويّا هم الثّلاثة جعلت الغياب أكثر ألما، «ليس لديّ ما يكفي من الأفلام».
«لديك ما يكفي لإنجاز العمل».
«وما العمل؟».
نظر لين إلى وجهها كأنّه يبحث عن شيء: «قلت إنّك تريدين تصوير طريق (هوتشي منه)، أما زلت تريدين أن تفَعلي ذلك؟».
بعد مضي ثلاثة أيّام، لم تعد هيلينَ تفكّر بالشقّة أو بسايغون. حتّـى دارو تحوّل من ألـم خارجيّ موجع إلى ألم داخليّ أشـبه بالورم لا يَستمد الإحساس إلّا بمعاناة مستقبليّة. فاجأتها رسوخ

الأدغال مرّة أخرى بشـــهوانيّتها الاســـتثنائيّة، فتنتها بشهوانيّتها الفائضة. تدفّق الوقت في المسافات الخضراء الطّويلة وأراحتها حقيقـــة أنّ الأرض ســـتصمد أكثر من الحـــرب وأكثر من الزّمن نفسه.

ســـافروا دون توقّف نحو الغـــرب لثلاثة أيّام وعبروا الحدود بشكل غير قانونيّ ثمّ تابعوا طريقهم. تحرّكوا تحركات استثنائية، وكان حزنها اســـتثنائيا أيضا. وبشكل تدريجيّ كما حدث كلّ مرّة غرقت هيلين في تفاصيل الجولة الاستكشافيّة، الحرارة العالية، بقعـــة الأرض، الجنـــود، لدرجة أنّ الأشـــياء الأخرى اختفت من الوجود. أثار إعجابها الاستمتاع الّذي أنجزوا به عملهم بطريقة لم تكن موجـــودة لدى وحدات أخرى. عاشـــوا في عمق الأرض وتحرّكوا فيها كالأشـــباح دون قواعد لنصب الخيام ودون إيصال مؤن إليهم. فهموا أنّه لن يكون هناك رحمةٌ إذا تمّ القبض عليهم. دبّـــروا أمورهم بموارد قليلة أيّا كان مـــا حملوه على ظهورهم أو أخذوه من الأرض.

اختبـــرت هيلين ما تاقت له وهو الانزلاق تحت السّـــطح في عمـــق البريّـــة، حيث فقدت إحساســـها بنفســـها وانفصلت عن محيطها. بعد خمســـة أيّام اختفت كلّ أفكار الحرب ولم يبقَ إلّا الحركـــة والأرض الّتي مرّوا بها وأمان الرّجـــال وأمانها. فقدت تعبها وفقدت شـــهيّتها. ببســـاطة أكلت ونامت بقـــدر ما يكفيها لتقـــوى على متابعة المشـــي. كانت فكرة التقـــاط الصّور صغيرة وبعيـــدة عن الهدف. تجاهلها رجالُ الكشّـــافة في معظم الوقت إلّا عندما ردّوا على تعليقها حول حقيبة الجثّة. بعد أســـبوع أتى ذلك الجندي إليها وقال على ســـبيل المجاملـــة: «تكادين تكونين غير مرئيّة».

تلقّوا في اليوم العاشـــر رسالة على اللاسلكيّ بأنّ قافلة من جيش فيتنام الشّـــماليّ ســـتمرّ بموقعهم خلال ساعات. جهّزوا مواقع بين الشّـــجيرات توفّر لهم رؤية واضحة حيث يمكنهم رؤية الطّريـــق التّرابيّ الّذي يتقاطع مع نهر ســـريع المجرى. ســـترهم صوت الماء عن أيّ صوت مفاجئ.

أخـــذ كلّ مـــن هيلين ولين يقطعان أغصان الأشـــجار لوضع نصب ثلاثيّ بين الشّجيرات ثمّ أخفيا الكاميرا والعدسات المقرّبة بين أوراق الشّجر. كما أوصل لين حزمة أسلاك لمصراع الكاميرا. «عندما يأتون لا تتحرّكي ولا تصوّري. لا بدّ أن نكون محظوظين. إذا ارتجفت يداك لا مشكلة».

أصغت وفعلت ما طلبه لين دون أيّ سؤال كأنّها تقوم بطقس لاستحضار روح، واستحضار عدوّ بقي غير مرئيّ معظم الوقت ومن العالم الآخر. كان أمرا صعب التّصديق أنّ تلك القوّة يمكن أن تتشـــكّل من أفراد، وتساءلت إن كان الأمر متشابها بالنّسبة لفيتناميّ الشّمال. هل خافوا من سحر الأمريكان؟ من قنابلهم ومن طائراتهم؟ آلاتهم الّتي لا تنتهي. كلّ مرّة كانوا يمرّون بآثار أقدام لأحذيـــة مطاطيّة حديثة العهد، فكانـــوا يحدّقون فيهم برعب وغثيان. كان ذلك هو الدّليل الواضح الملموس على وجود العدوّ بعيدا عن الأجساد الميّتة، لكن لغرابة الأمر كانت الجثث أقلّ ولم تتســـاو مع الرعب والخوف من آثار الأقدام، كان الأمر مشابها لصعوبة تخيّل رؤية جثّة طير على الأرض من فوق متن طائرة.

مرّت ساعاتٌ كان لها ثقل أيّام. سمعت هيلين على بعد عشرة أقدام إرســـال الرّاديو مرّة أخرى، بينما مشـــى أعضاء الكشّافة على الخطّ جيئة وذهابا ثمّ أغلقوا الراديو.

مرّت ســاعاتٌ أكثر بحدّ أدنى مــن الحركة. كان اليوم قاتما وأكثر برودة وتشــكّلت طبقةٌ رقيقةٌ من الضّباب على قمم الجبال مع ظهور أوّل جنديّ من جنود العدوّ على الطّريق دون جلبة.

كانوا بالكاد أكبر بقليل من سنّ الصّبا مرتدين لباسهم الكاكي المهترئ وفي غاية النّحول، لدرجة أنّ سراويلهم المرفوعة كشفت عن العظام الكبيرة لركبهم.

كانت أحزمة الكلاشنكوف ملتفّة حول صدورهم، وبدت كبيرة جدّا عليهم كأنّهم أولاد يلعبون بأسلحة آبائهم. كانت وجوههم في غاية الجديّة لكنّهم تحرّكوا بطاقة مراهقين واثقين من خطاهم. عندما وصــل أوّل الجنود إلى النّهر، وقفوا ونظروا إليه من أوّله إلى آخره.

حرص أعضاء الكشّــافة على تمركزهم في مواقعهم، ضغطت هيلين على حزمة الأسلاك الموصولة بالكاميرا مرارا وتكرارا متمنّية أنّــه بمجرّد رؤية الأرقام ســتتمكّن من التقاط صورة مفيدة، كانت طقّة الكاميرا غير مسموعة إزاء الصوت العالي للمياه الجارية.

خــاض أوّل الجنود في منتصف الطّريــق إلى النّهر بحذائه المطاطــيّ حيث وصلت المياه المتدفّقة إلى مســتوى الخصر ممّا اضطرّهم إلى رفع أسلحتهم للأعلى. وخلف نقطة الحراسة أتى الجنــود بحمولات ثقيلة مربوطة على درّاجــات بأعواد خيزران كبيــرة موضوعة على مقــود الدّراجة، بينمــا يوجد جندي على المقعد من أجل إدارة الدفّة.

قال أحدهم لأحد الجنود شيئا ما عن الجدول فنظر الشّاب إلى النّهر من جديد وهز كتفيه.

ارتعــدت الدرّاجات في النّهر، وكان تدفق المياه يهزّ الحقائب الكتانيّــة، ممّا أجبر قائدي الدرّاجات على العبور بســرعة كما

لو أنّهم يهرولون لأنّ قوّة التّيار ســتنهكهم مع ثقل الحقائب الّتي زادها المــاء ثقلا ممّا جعل عملهم أكثر صعوبــة. مرّت أكثر من خمسين درّاجة خلال ساعة.

أتــت بعد ذلــك عربةٌ بســيطةٌ متوازنةٌ علــى أربع عجلات مطاطيّــة كبيرة. قــاد العربة اثنان من الجنــود واحدٌ من الأمام وآخر مــن الخلف. عندما وصلوا إلى نصــف الطّريق في النّهر علقت إحدى العجلات بشــيء في النّهــر من الخلف مما جعلها تغوص في المــاء أكثر وتميل العربة إلــى الأطراف حتى جنحت بزاويــة خمس وأربعين درجــة باتجاه الضّفة. حــاول اثنان من الجنود تعديلها وإسنادها لكنّ المركبة لم تتزحزح.

وقــف الجنــود الأقرب إلــى الأمريكان على جانــب الضّفة ووضعــوا درّاجاتهم وخلعوا حقائبهــم وغاصوا في الماء ليحرّروا العربــة من مكانهــا. احتاج الأمر إلــى ثمانية رجــال ليتمكّنوا من تحريكهــا وعندما وصلوا إلى الضّفــة الأخرى كانت الضّفة المنحــدرة زلقة جدّا ولم يكن بالإمــكان جرّ العجلات. تمّ إعطاء أمر بقصّ القضبان لعمل سلّم صعود.

أخذ خمسة جنود -بينهم صبيّ صغير- فؤوسا صغيرة هلاليّة الشّكل وبدؤوا بتمشيط المنطقة المحيطة. تحرّك أربعةٌ منهم ضدّ التّيار بعيدا عن الأمريكان، لكنّ الصبيّ الصّغير تحرّك مع التّيار باتّجاههم مباشرة.

حبســت هيلين أنفاسها وحرّكت رأسها في الوقت نفسه لكي ترى أقرب عنصر من عناصر الكشّــافة يســحب دبّوس القنبلة اليدويّة عندما أصبح الجنديّ الصبيّ بقربهم، لكنّه لم يكن يبحث عن قضيب بل بدا سعيدا لتوقّف التّقدم، ونظر إلى السماء وإلى الجدول، ومدّ يده في جيبه ثم ســحب منها شــيئا أبيض وضعه

في فمه بسرعة وبدأ يمضغه. أدركت هيلين أنّها علكةٌ والمفاجأة جعلتها تبتسم. تمّ إعطاء أمر من أحد الجنود الّذين يمسكون العربة في الجدول، وغيّر الصبيّ اتّجاهه مباشرة باتّجاه هيلين ولين عندما رأى إغراء الأغصان المقطوعة الّتي تسهّل المرور. مدّ يده وأمسك أحد القضبان الّتي تسند الكاميرا وسند يده اليمنى على الفأس الصّغيرة. عندما ابتعد الفأس في يده وجد نفسه ينظر إلى عيني لين. كبرت عينا الصّبي وهو يكتم صرخة في صدره عندما لمحت عيناه حركة يدي هيلين على الأسلاك واتسعت عيناه أكثر.

نظرت هيلين إليه وعرفت أنّها على الأرجح نهاية الجميع، لكن شيئا ما في وجهه وملامحه جعلها غير خائفة. رفعت يدها برفق ومرّرت سبّابتها برفق على عنقها لا لتهدّده لكن لتنقل إليه إحساسها بالحالة الّتي وجدوا أنفسهم فيها، تنفّس الجنديّ الصبيّ دون أيّ صوت وخطا إلى الخلف ثمّ عاد بنظره إلى لين الّذي رفع يده ليغطّي وجهه موجّها راحة يده للأسفل ليمرّر يده ببطء على قسمات وجهه لتصل أطراف أصابعه في النّهاية إلى ذقنه، كانت حركة ليمسح كلّ ما شوهد، استدار الجنديّ الصبيّ بسرعة استجابة لصوت الأوامر الجديدة من الرّجال الجنود في الجدول ثمّ نظر من جديد إلى النّهر وأغلق عينيه قليلا بسبب قوّة ضوء الشّمس الّذي انعكس من النّهر ووقف دون حراك لدقيقة ثمّ تحرّك مبتعدا بعد أن نفخ فقاعة كبيرة من علكته السكّريّة.

تمّ قطع العصيّ ووضعها تحت العربة الّتي حملت إلى الضفّة الموحلة. عبَر آخرُ الجنود النهرَ ومن ضمنهم الصبيّ، ثمّ خلت الأرض إلا من آثار أقدام لتثبت أنّ كلّ ما حدث لم يكن حلما.

عندما عادوا إلى سـايغون لم يتوقّفوا لأخذ حمّام أو ليغيّروا ملابسـهم، لكن ذهبوا مباشرة إلى غرفة المجلّة المظلمة وطردوا منها كلّ المساعدين.

سمع غاري عن وصول الصور، فغادر شقّته قبل موعد حظر التّجـوّل ليمضي ليلته في المكتب. «أنـت تمزحين أليس كذلك؟ كيف فعلتها؟». كان يمسك بقبّة كاميرته حول رقبته طوال الوقت كأنّها كانت تضغط عليه. أدركت هيلين لصدمتها أنّ شعره ابيَضَّ خلال الشّهر السابق.

قالت: «هل أنت بخير؟».

«أنـا أمنعـك أن تخاطـري مخاطرات كهـذه أو على الأقلّ أخبريني قبلها».

نظرت هيلين إليه ببرود. شـكّت لزمـن طويل أنّ غاري كان يهتـمّ بها أكثر ممّـا كان يدّعي، مع ذلك كانـت تلك من طبيعة العمـل. هم جميعـا أرادوا أن يرضوه لأنّه خلـق نزعة التّنافس والمخاطرة بينهم بكلّ رقيّ، وكان ذلك هو السـبب في ظهور تلك الصّور. «قمنا بذلك في وقتنا الخاصّ».

«احسبي نفسك مطرودة إن قمت بذلك مرّة أخرى، وسأعين خمسة موظّفين أفضل منك في اليومَ التّالي».

كانـت قد تجاوزت المرحلة الّتي اضطرّت فيها أن تصغي إلى طلباته، فبالطّبع سـتخاطر من جديد على أيّة حال، وإذا احتاج الأمر فإنها بكل ببسـاطة سـتبيع صورها لمجلـة أخرى. لم تعد الصّورة هي المهمّة في الأمر.

قال: «لا تجعليني أُعان خسارة مصوّر آخر». هذا كان عقابها.

«سـتكون جميـع الصّوَر تحت عنـوان عريض الخـطّ، اتّفقنا؟ لا تُدخل أحدا إلى الغرفة السريّة حتّى ننتهي، لا أحد سيرى الأفلام».

«دعيني أرَها أنا فقط، اتّفقنا؟ على الأقل أوّل الصّور».

«سنرى». كانت قلقة على نوعيّة الكشف من الضّوء المنخفض ونقص تعديل الفتحة.

«أنت أغلى الموظّفين أجرا لديّ الآن. أخبري لين أنّه سيعمل معنا بدوَام كامل».

أومأت هيلين برأسها وأغلقت باب الغرفة المظلمة خلفها. بدأ لين بفحص الصّور. خافت هيلين لأنّ الضّوء كان خافتا جدّا. ترك لين الفيلم في آلة التّحميض وقتا أطول ليزيد التّضاد في الصّور ويزيد من حدّة الأطراف. أصبحت صوره أفضل مرّة بعد مرّة، لكن في تلك اللّحظة رأى كلّ منهما أنّ التعرّض للضّوء كان مثاليّا فقد ظهر الضّباب في الظّلال.

قال: «الصورة طويلة جدّا، سنقصّر الصّورة التّالية».

جلست هيلين على مقعد في الظّلام، ولين يتحرّك جيئة وذهابا في الضّوء الأحمر. «ما رأيك؟».

نظر لين إلى الفيلم التّالي ثمّ وجّه الضّوء الرأسيّ إليه. أعطاه لهيلين الّتي شعرت بالاختناق عندما رأت التّدرج السيّئ في درجة اللّون والأطراف السيّئة الظّاهرة في الفيلم. «هذا لن يجدي. هذه الصّور في غاية السّوء».

«نستطيع إصلاحه. سنتركه في مظهِّر الأفلام وقتا أطول، سنستخدم مَغطسين للتّحميض. سأخرج هذه الصّور».

قضمت هيلين أظافرها. «كيف تعلّمت أن تفعل كلّ هذا؟».

«هذا لا شيء. فقد اعتدت أن أعمل في الغابة في اللّيل على ضوء النّجوم فقط، وكنت أبلّل الأفلام بأن أجعل الماء يمرّ على اللّفافات في الجدول. وكنت أجفّفها بأن أعلّقها على أوراق أشجار صغيرة».

«سيضمّك غاري إلى طاقم التّصوير».

أخفض لين رأسه لدقيقة قبل أن يمدّ يده إلى صواني الطّباعة. «هذا شرفٌ عظيم».

«شرفٌ!! هذا كلامٌ سخيف. إنّه خائفٌ أن يخسرك لصالح مجلّة منافسة، وهذا يعني أنّهم يستطيعون إخراجك من البلد إذا رغبت».

«نعم».

«أشكرك على أخذي إلى هناك. فقد كان حلما بالنّسبة لي أن أرى ما رأيت. وبعد أن فعلت ما فعلته لأجلي سأنفّذ وعدي وأعود إلى الوطن».

«نعم».

«تعال معي».

لم يقل لين شيئا.

«روبرت سيدبّر لك عملا جيّدا».

«لا أستطيع».

«ولا حتّى إكراما لي..». كانت هيلين تقول جملا أكثر مما تقول أسئلة.

«أنت تطلبين الكثير».

بعد مرور ساعات طبعا صورة قريبة للجنديّ الصبيّ عرّضها لين لأضواء عالية، وكما وعد كانت الصّورة لائقة النّوعيّة واستثنائيّة في المادّة. سلّموا الصّورة لغاري الّذي كان واقفا عند الباب كما لو كان ممرّضة تنتظر أن تحمل مولودا جديدا، وقد نسي أمر لين وهيلين حالما حصل على جائزته. جلسا في الغرفة المظلمة والباب مفتوحٌ وضوء الأمان الأحمر يومض كنجمة خافتة. كان كلاهما متعبَين ويرغبان فى النوم، لكن غير راغبَين في المغادرة.

«نشكّل فريقا جيّدا أنا وأنت». قالت.

ابتسم لين.

«هل سـيؤذون الصبيّ عندما يرون صورته؟ هل سيظنّون أنّه خائنٌ؟».

قال لين: «لا. سيفكّر ببديهته السّريعة كما فعل معنا وسينجو».

«انتابني شعورٌ جيّد هناك».

«اذهبي إلى كاليفورنيا. هناك أفضل لك».

جرحَها نبْذُه المستمرُّ لها. «ماذا عنكَ؟».

«لا تقلقـي، فبعد ذهابك سـأكون أفضل مصوّر في فيتنام.. ربّما سـأتزوّج أخت (ماي)، فهي بحاجة لزوج من أجل أولادها».

اسـتمرّ بالتّفكير بالدَّين الّذي عليه لدارو وهو أمان هيلين الّذي كان مهتمّا به أكثر من أيّ شيء آخر.

تيبّس ظهر هيلين: «لم يكن لديّ فكرةٌ عن هذا».

قال لين: «إنّ الاهتمام بالعائلة من تقاليد فيتنام».

«أرادك دارو أن تكون سـعيدا. عش حياة جميلة إكراما له».

وقفت على قدميها وأشعلت الضوء الرأسـيّ. «سأتمدّد لساعتين وأنام على السرير النّقال».

«لقد أخرجنا صورا جيّدة».

«كيف لي أن أبتهج بذلك؟ بأن نكون الرابحين أليس كذلك؟».

انتقلت هيلين من شـقّتها في تشـولون وسلّمت المفاتيح إلى لين وعادت إلى فندق الكونتيننتال الّذي بدأت منه. وفي الصّباح التّالي أجرت الترتيبات لتسافر إلى أمريكا. لم تشعر بحزن أقلّ أو أكثـر ممّا شـعرت به قبل أن تخرج مع لـين إلى الميدان، لكنّ شيئا ما كان قد تغيّر. عرفت ما هو، وشكّت أنّ لين عرف أيضا، لكنّهما لم يتحدّثا عنه. تظاهرا أنّ شيئا لم يتغيّر بينهما.

بقيت هيلين مستيقظة حتّى وقت متأخّر من اللّيل في غرفتها في الفندق، فلم يعد بالإمكان الاعتماد على النّوم، استلقت في سريرها مسنودة بالوسائد محدّقة في الظّلام حتّى استطاعت أن ترى أشكال القرميد على الجدار وشفرات المروحة تدفع ثقل الهواء. كانت تخزّن زجاجة من الويسكي على الطّاولة القابعة بجانب السّرير، وخفّفت من عطشها ومن وحدتها الّتي أحسّت بها في تلك السّاعات الطّويلة لتأكّدها أنّ أحدا لن يطرق الباب. درّبت هيلين نفسها ببطء على تقبّل موت دارو. لقد كان دارو هو دليلها ومعلّمها النّاصح وأيضا حبيبها، ولم تشعر أنّها بحجم تحدّي الحرب من دونه.

هل كان الأمر مشابها بالنّسبة للآخرين؟ كالأطفال الذين ينتظرون إعادة ظهور الشخص المحبوب لديهم، إن الموت هو مجرّد كلمة، وما مغزى عدم وجود طَرْق على الباب؟ كان وعيها أفضل من ذلك بعد أن شاهدت حقائب الجثث على الضفّة المنحدرة، وبعد أن رأتهم يتمايلون على أكتاف الأحياء.

ومع ذلك فإنّ رؤية جنود جيش فيتنام الشّماليّ غيّر كلّ شيء بالنّسبة إليها. فعندما ظنّت أنّه لم يعد هناك شيءٌ جديدٌ سوى تكرار نفسها، ظهر لها عالمٌ آخر لم يكن مرئيّا من قبل. لم يصوّر أيّ أمريكيّ الطّرف الآخر من قبل، كان هذا الأمرُ مثيرا كاكتشاف قارّة غير معروفة على خريطة. لم يكن أحد ليفهم الأمر إلّا دارو وماك كراي اللّذان رحلا. فقط لين هو الّذي كان مصمّما على إرسالها إلى الوطن. كانت تحلم بالصّبي الجنديّ بشكل متكرّر، هو الّذي حمل حياتهم بين يديه، هو الّذي أنقذهم وأنقذ نفسه ليوم آخر، وكيف جلس أعضاء الكشّافة بتوتّر، وكيف بلّل أحدهم سبّابته وأشّر في الهواء، واحدٌ ناقصٌ، كطريقة النّقاط في لعبة رياضيّة.

استيقظت هيلين مترنّحة في الصّباح، وغرفتها حارّةٌ جدًا وفمها حامضٌ من الكحول. قدّم لها خادم الغرفة القهوة الفيتناميّة الغنيّة والمحلّاة مع الحليب المكثّف الّذي صبّه من إبريق فضّي مع لفافات خبز طازجة على صحن من الخزف الصينيّ مع ثلاثة أطباق صغيرة من المربّى والحمضيّات والفريز والجوافة، وكلاهما يعرفان أنّها كانت تأكل مربّى الحمضيّات فقط.

وضعت الزّبدة على الخبز، لكنّها استخدمت البرتقال باعتدال لتترك للصّبي الطبقين غير مستخدمين ليأخذهما إلى منزله كلّ يوم. لماذا عندما كانت على وشك المغادرة بدأت تشعر أنّها في وطنها؟

عندما عبّرت هيلين عن رغبتها في رؤية الشقّة مرّة أخيرة أخبرها لين أنّ ثاو انتقلت إليها وأنّ المبنى كلّه يهتزّ من حركة الأولاد وركضهم صعودا ونزولا على الدّرج.

«جيّد». قالت هيلين، «هناك شيءٌ ما يوقف الحظّ السيّئ».

بعد أن تمّ التّعرّف على بقايا موقع الحادث أخرج غاري وصيّة دارو الّتي قال فيها إنّه يرغب أن يتمّ إحراق جثّته في فيتنام. لكنّ زوجته قدّمت شكوى رسميّة للمجلّة ونفّذوا رغبتها بأن تتمّ إعادة الجثّة إلى نيويورك ليتمّ دفنها هناك.

كانت هيلين جاهزة للطّيران وشعرت بالحزن يتجدّد فيها. لم تكن تعني شيئًا لدارو. توسّلت إلى غاري أن يقرأ رسالة دارو على الهاتف لزوجته، لكنّ المرأة بقيت على ثباتها مقتنعة أنّه لم يكن في كامل قواه العقليّة خلال السّنة الماضية. وفي النّهاية تمّت إعادة الجثة إلى الولايات المتّحدة، وأجرى له طاقم المجلّة جنازة بوذيّة بتابوت فارغ والّتي يقومون بها بشكل متكرّر، بسبب زيادة عدد الموتى وزيادة صعوبة استعادة الجثث.

بدأ الموكب من شـقّته في تشولون. نظرت هيلين إلى النّافذة متمنّية أن ترى أخت زوجة لـين وأولادها يملؤون حافّة النّافذة، لكـنّ الحافة بقيت فارغة. أكان من الممكن أنّ لين أراد أن يبقيها بعيـدة لكيلا تغيّر الذّكريات رأيهـا بالرّحيل؟ ارتدى الفيتناميّون في الموكب شـالات بيضاء تقليديّة على رؤوسهم خاصّة بالحزن. أمّا الرّهبان فقد أنشـدوا ترانيمهم وأحرقوا البخور، ثم شـقّوا طريقهـم إلى مركز البلدة ووصلوا إلى السّـاحة العامّة الموجودة إلى جانب تمثال جنديّ المارينز تحت نوافذ المكتب.

جفّت عينا هيلين وآلمها رأسـها. في السّـاحة العامّة استند غاري على شجرة مُشيحا بنظره عنهم، وكلّ ما استطاعت رؤيته هو التفاف كتفيه وشـعره الأبيض الجديـد. لكنّها لم تكن قادرة علـى إزالة الألم عنـه. ألم يكونوا جميعا أطفـالا يدّعون وجود مأساة عندما كان من الواضح لهم الخطر الّذي وضعوا أنفسهم فيـه؟ ألا يجب عليهم فقط أن يتقبّلوا الأمر؟ عندما مرّوا بفندق الكونتيننتال أخرج كبير السّاقينَ في الحانة كأسا من شراب دارو المفضّل، ويسكي على صينيّة من الفضّة.

في مقبرة (ماك دنه تشـي) نثر لين أرزّا غير مطبوخ وأوراقا ماليّة. تجمّعت الغيوم وهبّت الرّياح عندما فرشـت سجّادة عند موقع القبر. وتمّ وضع طبق من السّلطعون المفتوح تمّ إحضاره من فونغ تاو مع طبق من الأرزّ وكأس من الويسـكي. أشياء ملموسة فهمتها هيلين وقارنتها مع أشياء أخرى توضع في الجنائز عموما كالأزهار والأكفان وموسيقى الأرغن الّتي كانت تسمعها في وطنه. بعد ذلك تمّ إشعال حزمة من البخور ثمّ انتهى الأمر.

أظلمت الغيوم أكثر وهطل المطر الّذي تاق إليه الجميع وتفرّق النّاس إلى أقرب ملجأ يمكن إيجاده.

بحثت هيلين عن آنوك في الموكب مع أنّها أخبرتها بأنّها لن تأتي لأنّها حسب قولها حضرت الكثير من الجنازات من قبل، فإذا ذهبت إليها كلّها فهذا هو كلّ ما تفعله. لكنّ هيلين كانت ستغادر تلك اللّيلة وأرادت أن تودّعها لذلك مشت وهي تغطّي نفسها بمظلّة، وتحرّكت في الشّارع الّذي كان يغرق بالماء وتطوف حوله جداولُ مائيّة صغيرةٌ تعوم على وجهها القمامة. استمرّ المطر الرّمادي بالهطول بقوّة وهو يضرب الأرض، بينما تهب عاصفة الرّياح على النّهر، وقد رفعت هيلين أسلاك المظلّة المعدنيّة ممّا جعلها تجمع ماء المطر ولا توفر أيّ ملجأ منه، فتركت المظلة تسقط على الطّريق لمعرفتها أنّ أحدا ما سيلتقطها ويصلحها ويعيد استخدامها خلال دقائق. كلّ شيء كان يُعاد تجسيده مرّات لا تعدّ ولا تحصى. تعلّمت في فيتنام أنّ التقمّص وإعادة التّجسد لم يكن في جيل آخر فقط بل أيضا كان يمكن أن يكون الآن. تابعت طريقها والمطر يرشقها حتّى وصلت إلى محلّ بيع القبّعات ووقفت تحت السّقيفة ومسحت الماء عن وجهها. كان في نافذة العرض ثوب زفاف تمنّت أن يكون قد صُمّم لعروس رفضها عريسها وليس لأجلها هي.

في الدّاخل كانت الخيّاطتان الفيتناميّتان جالستين على مقعديهما القصبيّين المعتادين يخيطان بشكل أسرع وبتركيز أعلى من المعتاد. من الخارج ومع صوت المطر خمّنت هيلين أنّها سمعت كلاما وضحكا، أمّا في الدّاخل فقد كان المحلّ صامتا كالقبر. وقفت عند الطّاولة لكنّ آنوك لم تكن قد أتت من المكان الّذي تختبئ فيه عادة؛ وهو خلفيّة المتجر الّذي تدخّن فيه السّجائر وتشرب النّبيذ. لم يظهر على الخيّاطتين أنّهما لاحظتا وجود هيلين، فدقّت الجرس الموجود على الطّاولة.

عند سماع الصّوت وقفت الخيّاطة الكبرى. كانت ترتدي الثّوبَ الأسودَ نفسَه الّذي رأتها به هيلين في المرّة الأولى، وفي كلّ مرّة كانت تأتي فيها هيلين إلى المحلّ ممّا أقنع هيلين أنّ الخيّاطتين كان لديهما سبعة أثواب متماثلة تماما، واحدٌ لكلّ يوم بالتّرتيب لكي يتمّ غسل الأثواب المستعملة وتنشيتها وتجهيزها. تمتمت الخيّاطة الكبيرة لنفسها، بينما مشت هيلين خطواتها إلى الطّاولة بتيبّس وبطء وهي تنظر طوال الوقت إلى أصابعها التي أصبحت خاملة بشكل مفاجئ.

«بونجور مدام» قالت هيلين بالفرنسيّة وردّت السيّدة تحيّتها بصوتها الموسيقيّ الّذي بدا كأنّه لازمةُ أغنية أكثر من كونه تحيّة، وقد تم كلّ ذلك دون تلاقي الأعين.

«أين السيّدة آنوك؟» سألت هيلين.

تنهّدت الخيّاطة وأجابت: «السيّدة ذهبت».

«إلى أين؟».

نظرت إليها الخيّاطة نظرة أجفلت هيلين بلون عينيها الرّمادي العاتم. «لقد رحلت». انحنت المرأة إلى الجانب تحت الطّاولة وأخرجت صندوقا مسطّحا صغيرا مربوطا برباط من الحرير. فتحته هيلين ووجدت بطاقة من آنوك فوق وشاح ذهبيّ.

هكذا دون وداع. رحلة ممتعة يا عزيزتي.

«شكرا وداعا». ردّت عليها الخيّاطة وانحنت انحناءة احترام صغيرة وعادت إلى كرسيّها في ارتياح واضح لكي تتابع تطريزها مرّة أخرى.

في الفندق تلك اللّيلة، اعتذر لين عن كونه غير قادر على اصطحابها إلى المطار. لم يحاول أن يقدّم عذرا، فلم يكن يثق بنفسه وبقدرته على خيانة رحيلها بأن يتوسّل إليها ألا ترحل.

وقفا هناك بارتباك عند مدخل الفندق.

قالت: «سأفتقدكَ».

بعد أن مشـــى لين مبتعدا كان هناك جنديٌّ يتكلّم مع حارس البـــاب حيث انصـــرف انتباه هيلين إلى صوتـــه العالي. وعندما نظرت إلـــى المكان الّذي كان لين واقفا فيـــه وجدته فارغا. لكن عندما وقفت السّيارة لتأخذ حقائبها ظهر من جديد.

«كلّ شيء بخير، أستطيع أن آتيَ وأودّعك».

ركبا السّـــيارة وبقيا صامتين طوال الطّريَق دون أن يقدّم لها أيّ تفسير عن سبب تغيير خطّته، وجرَحَها أنّه لم يُرِد أن يودّعها، وتساءلت لماذا غيّر رأيه الآن؟

عندما ارتفعت الطّائرة بشـــكل حادّ عند الإقلاع بقي جميع المســـافرين هادئـــين، وعندما حلّقت فوق بحـــر الصّين الجنوبيّ انفجر الجميع بالتصفيق. كانت هيلين الوحيدة الّتي لم تبتســـم. طفت قوارب صيد الحبّار في الأســـفل على البحر القاتم كما لو أنّها كرنفالاتٌ مضاءةٌ بالنّور.

بعد أن غادرت هيلين ســـايغون جلس لين وحيدا في الشـــقّة دون أخت زوجتـــه وأولادها، فبعد أن رفض لين عرضها بالزّواج التقت بميكانيكيّ كانـــت ترغب في الارتباط به وهي الآن تعيش معـــه ومع الأولاد في الطّرف الآخر من البلدة. كما اســـتمرّ لين بإرسال النّقود إليهم.

وقـــف لـــين عاجزا عنـــد باب الطّائـــرة بعـــد أن توقف عن انضباطه وأربكها بأفعالـــه. وبحالة من الضعف طلب من هيلين شيئا ليتذكّرها به، لكن الأوان كان قد فات. كلّ ما كان لديها هو وشـــاحٌ ذهبيّ حول عنقها لا يزال جديـــدا ولم يصبح ملكها بعد، لكنّها خلعته وأعطته إيّاه. أمسكه واستنشق رائحته لكنّ عطرها

لـم يكن عليه. فطـواه ولفّه ببطء على معصمه. وعندما سـمع طرقـا على الباب لم يـرد أن يفتحه فلم يكن بمقدوره تحمّل باو في تلك اللّحظة، لكن متابعة تجاهله ستكون أسوأ. ففتح الباب.

مشـى باو فـي الغرفة على عكّاز خشـبيّ بعـد أن رأى كلّ محتوياتها الّتي لم يتبق منها إلّا الأثاث الرّئيسـيّ. «يبدو الآن أنّه عليّ أن آتي إليك فقد مضت شهورٌ منذ أن تحدّثنا آخر مرّة».

«لا يوجد تطوّرات سوى أنّهم ضمّوني إلى طاقم التّصوير».

«هذا جيّد، أبقِ عينيك وأذنيك مفتوحتَين».

«هذا عملي».

نظر إليه باو بحدّة وبعينيه الصّغيرتين اللّتين بدتا أكبر خلف النّظـارات. «لا تنسَ إلى أي جانب تنتمي أنت. فالعاطفة تلزمك بـأن تكون إلـى جانبنا. الرّجال أمثالك يفعلـون ذلك. لا تجعلنا نشكّ بك».

«لـمَ الادّعاء؟ لم يكـن ذلك تطوّعا منّـي. كيف حال تجارة الهيروَئـين؟ أهي مزدهـرةٌ؟». إن مـا أذهل لين هـو كيف كان الشّماليّون لا يزالون ضعفاء عندما يتعلّق الأمر بالأمريكان، دون إدراكهم أنّ سـعي الغـرب وراء الأخبار كان أقوى من أيّ شـيء يمكن أن يقودهم هو إليه.

التقط باو تمثالا صغيرا لبوذا وهو حليةٌ رخيصةٌ من الأسواق كان متروكا في ذلك المكان.

«إذا مغامرتُك السيدة الصّغيرة قد رحلت، أليس كذلك؟».

«نعم».

«هذا سيّئ. لمَ لم تقنعها بالبقاء؟».

«لا أسـتطيعَ التّحكّم بالأمر». الحقيقة كانت أنّه شعر بالعار بسـبب كبريائه وبسـبب ما حدث، وبأنّه كان يستطيع أن يقنعها

بالبقـــاء. لكنّ وفاءه لدارو تغلّب على حبّه وعلى غضبه. لم يدرك الأمريكان بعد أنّهم سيخسـرون الحرب. كان لين يشعر بنوع من اليقين اليائس بأنّ ضـــررا لن يلحق به في تلك الحرب وأنّه كان أحد المســحورين، مــع أنّه لم يكن مهتمّا كثيــرا ببقائه على قيد الحياة، كان يشــعر بالغضب لأنّه لم يكن مع دارو ليحميه ويعيق موته.

«لا يهــمّ، فعدم التّعامل مع امرأة أفضل على أيّة حال. فماذا لو عشقتك؟». ضحك باو ونظر إلى الوشاح. «ما هذا؟».

«تركَتْــه هنا». رأى حاجبي باو يرتفعان ثمّ أضاف بســرعة: «طلبتْ منّي أن أعطيه لصديق ليرسله لها».

مــدّ باو يده ولمــس القماش «يجب ألا تجعّده إذا. يا لَســوء الحظّ فنوعيّته جيّدة وكان سيعجب زوجتي».

(14)
العودة إلى العالم

رفضت هيلين حضور جنازة دارو في نيويورك. عدّت الأمر استيلاء على رغباته، ورفضت أن تكون جزءا من هذا الأمر، ورفضت أن تطلق النّساء الأخريات عليها الألقاب. غاري وباقي الطّاقم رأوا أنّ في الأمر قسوة ألّا تذهب لتمثّل رفاقه في فيتنام. توقّعوا منها أن تكون لطيفة وتنسى الماضي، لكن لم تكن لديها القدرة أو الرّغبة على فعل ذلك.

طارت من طوكيو إلى سان فرانسيسكو وشعرت بحماس طفوليّ عندما نظرت بين الغيوم، فقد أصبحت فكرة الوطن فجأة واقعا بعد غياب طويل؛ الوطن سيصلح الحال. على متن الطّائرة إلى لوس أنجلوس الّتي كانت رحلتها الأخيرة جلست مع جنود يرتدون لباسهم العسكريّ بعد أن انتقلوا من (ترافيس) إلى وطنهم. هل كان أمر ترك الحرب سهلا سهولة الصّعود إلى الطائرة؟

استقبلتها والدتها شارلوت في المطار بباقة أزهار ملفوفة بالسّلوفان. رأت وجهها أمام وجه أمّها أكثر نعومةً وأكثر ضعفا. كيف افتقدت رائحة عطر (جوري)؟ أبعدت عنها الإحساس بالذّنب وأمّها كانت قد استسلمت لكلّ تلك القبيلة من الأنانيّين

الّذين ربّتهم. بعد أن تعانقتا شاهدت هيلين الجنود العائدين تتمّ مقاطعتهم من قبل مجموعة صغيرة من المحتجّين على الحرب. وقفت فتاة سمراء نحيلة ترتدي سروالَ جينز ممزّق وسترة سويديّة معلّقة أمام الجنود وهي تعيق طريقهم. كان شعرها البنّي الطّويل متشابكا تتدلّى ريشةٌ من إحدى خصله المجدولة. بمجرّد نظرة مدّ أحد الجنود ذراعه ليبعدها جانبا.

اتّسعت عينا الفتاة حتّى ظهر بياضهما وصرخت: «من تظنّ نفسك حتّى تلمسني؟» لكنّ الجنود تجاهلوها وتابعوا طريقهم.

قالت هيلين: «لنغادر».

قالت أمّها: «أنت في غاية النّحول، بالكاد تعرّفت عليك!!».

وضعت الأمّ ذراعَها حول الخصر النّحيل وهي تمشي بجانب الفتاة السمراء. أبطأت هيلين خطواتها ونظرت إليها فنظرت إليها الفتاة نظرة حالمة فارغة، نظرة دون أيّ تناقض أو أي شكّ. «فكّري بالسلام». قالت الفتاة ثمّ شربت من علبة مياه غازيّة.

وقفت هيلين ثابتة في مكانها وأمّها تجرّها من ذراعها.

نظرت الفتاة إليها من جديد بعد أن احمرّ وجهها: «ماذا؟».

«إنّ ما تفعلينه هنا هو في غاية الشّجاعة».

قالت شارلوت: «أريد أن أغادر».

قالت السمراء بضحكة مرتبكة: «أشكرك» ثمّ استدارت لتتابع حديثها مع الرّجلين اللّذين كانا برفقتها.

«أنت تُدلين بتصريح مهمّ حقا هنا في هذا المطار المكيّف».

قالت الفتَاة: «اسمعي، لقد جنّدوا صديقي، هل كنتِ هناك؟».

«نعم».

اتّسعت عينا الفتاة: «هذا رائعٌ جدا، هل رأيتِ أحدا من أطفال الحربة؟».

هزّت هيلين رأسها بغضب لأنّها لم تكن على دراية بما يعتمر بداخلها. جرّتها شارلوت بعيدا إلى الممشى.

«ماذا كان الهدف من كلّ ذلك؟» صرخت الفتاة بعد أن زادت ثقتها لانسحابهما.

توقّفت هيلين غير قادرة على التّفكير؛ فلم يسألها أحد ذلك السّؤال من قبل.

أوّل ما فعلته هيلين عندما وصلتا إلى البيت هو الذّهاب خلف المبنى والنظر إلى المشهد الّذي كبرت معه، وهو مشهد أمواج المحيط تتكسّر على الصّخور في الأسفل. ثمّ مشت من غرفة إلى غرفة مبدية إعجابها، كيف بدا كلّ شيء كبيرا ونظيفا. لم يتغيّر شيءٌ منذ أن غادرت إلّا هي نفسها. وكان من الصّعب أن تتخيّل ما الّذي اشتعل فيها لتترك ذلك المكان وتعبر نصف العالم. أرادت أن تعود لما كانت عليه قبل أن تغادر، بل وأن تكون أفضل وأذكى وأكثر رضا.

«تعالي وانظري». قالت أمّها وأرتها حزمة من المجلّات والجرائد الّتي كانت تحمل الصّور الّتي التقطتها. «هذه أتت للتّو». أمسكت بالمجلّة الّتي كانت تحمل على غلافها صورة الجنديّ الصبيّ من جيش فيتنام الشّماليّ. كانت هناك في الدّاخل افتتاحيةٌ تعلن موت دارو مع الصّورة الّتي صوّره إيّاها لين في مخيّم القوّات الخاصّة.

«فظيع جدّا. هذا محزن».

لم تقل هيلين شيئا، فقد أدركت أنّها إن أخبرتها عن علاقتها بدارو فإنّها ستتحوّل إلى قصّة رومانسيّة وضيعة. كم أرادت أن تحضر دارو إلى بيتها ليلتقي بأمّها ويرى أين كبرت.

«من فضلك أبعديها الآن».

حرّكت أمها يديها بتململ وشعرت بالخجل أمام ابنتها وقالت: «كيف كان الوضع هناك؟».

«كان مخيفا ومحبطا وفي بعض الأجزاء كان رائعا».

«لا يمكنني أن أتخيّل...».

«نعم».

«هل وجدتِ ما كنتِ تبحثين عنه؟».

لم تجبها.

«أنا في غاية السّعادة أنّك عدت. أشعر بالفخر، فالنّاس يقولون أشياء عن فيتنام دونَ أن أكَون موجودة.. لكنّ فتاتي الشّجاعة ذهبت إلى هناك».

حدّقت هيلين نحو الأرض: «هذا يعني لي الكثير».

قالت الأم: «لقد دعوتُ بعض أصدقائنا، والجميع في غاية الحماس ليرى أنّك عدتِ بسلام».

«ليس بعد».

وقفت شارلوت في وسط الغرفة: «هذا الجزء من الحياة مهمّ أيضا». ثم عضت شفتها وقالت: «جميعكم تصرّفتم وكأنّ الحرب هي الجزء الوحيد المهمّ في الحياة».

عانقتها هيلين ثمّ تمدّدت على الأريكة.

«أنزلي حذاءك عن الأريكة ولا تكوني كسولة. تعالي وشاهدي غرفتك. لم أغيّر فيها شيئا». كان ذلك تأكيدا مريحا يمكن أن يعطيه المرء لشخص آخر، لكنّ كلتيهما تعرفان أنّه لا شيء قد بقي على حاله. كانت غرفتها لا تزال تحتوي على السّرير الأبيض المزدوج وغطاء السّرير المطويّ المطرّز بأزهار رقيقة فاتحة اللّون. أمّا الجدران فقد عُلّقت عليها صورٌ للهند الصينيّة كانت قد قامت بجمعها عندما كانت صبية مراهقة، ومنها صور لمساحات

شاســـعة من الحقول الّتي تهـــبّ عليها الرّياح الموســـميّة وصورٌ للوديان التي غمرتها الشّمس، وصورةٌ لشخصين يرتديان قبّعات مخروطيّة الشكل ويجلسان في قارب صيد على مسافة مائيّة من الشـــاطئ. كانت صورا غير حقيقيّة أشبه بالأفلام. أكانت قطع الرّيف هذه هـي ما جعلها تبدأ رحلتها إلى فيتنام؟ يا لَاســـتحالة السّذاجة الّتي كانت فيها!!

ضحكت هيلين وملأ وجهَ أمّها الأملُ، لكنّ الضّحكة استمرّت لوقت أطول، وأصبحت صاخبة ومُـــرّة، وانهار وجه أمّها بعد أن هربت من الغرفة.

كان يوجد تحت الصّور صندوقٌ من أشياء دارو الخاصّة الّتي كانت في شقّة تِشولون.

تجنّبت هيلين الصندوق لأيّام، ثمّ استســـلمت بعد ظهر أحد الأيّام وفتحته لتتذوّق وتستنشق رائحة سايغون الخفيفة الجميلة العفنـــة بغرابة وقـــذارة جرذ مكتمل النّمو من تشـــولون. أحبّتها الآن بالقدر نفســـه الّذي كرهتها فيه عندما كانت هناك. جلست هيلـــين بجانبَ الصّندوق الّذي نقلها إلى شـــقّتها القديمة.. إلى الباب المتلئ برســـوم بوذا والدرج الّذي يصدر صريرا والمصباح الخافـــت. أغلقت عينيها وحلمت أنّها تســـتطيع ســـماع ضجيج الشّـــارع في الخارج وتتوق إلى هـــدوء الحياة في أمريكا وصوت همهمة تكييف الهواء.

اهتمّت المجلّة بالأشـــياء الّتي تخصّه رسميّا في الفندق، لكنّ زوجتـــه طالبت بكلّ مقتنياته الخاصّة. «افعلي ما تريدين». «قال غاري. كانت هيلين ســـتتجاهل الزّوجة، لكـــنّ فكرة وجود الولد جعلتهـــا تتوقّف. فعندما كانت صبيّة صغيرة تابعت كلّ التفاصيل التي تتعلّق بوالدها ليكون ذلك دليلا يدلّها على نفسها.

فتّشت الملفّات كلّها ببطء لكلّ الطّبعات والأفلام، فأيّ مصوّر حرب بحجم دارو سيكون لديه عددٌ كبيُر من الصّور غير القابلة للطّباعة تحتوي على موّاد مروّعة لن تقبل أيّ مجلة أن تنشرها. لكــنّ أيّ مصوّر كان عليه أن يلتقطهـــا وألّا يصدر الأحكام حتّى يعــود إلى الغرفـــة المظلمة. بعد أن نظرت إلـــى أعماله رأت أنّه تحـــوّل من مصوّر متوسّـــط في أوّل أيّامه في الكونغو والشّـــرق الأوسط إلى ما ســـمّاه البعض عبقريّا. اكتمل شيءٌ لديه عندما وصل إلى فيتنام والمكان نفســـه تخاطب معـــه. فالإنجاز المذهل جلب لـــه ثمنا مذهلا. احتفظت هيلين بالصّور المروّعة واختارت منها ما أحاط بالّذي تم نشره قبلا. لقد اشتهر بأخذ عدّة زوايا لكلّ صورة أراد أن يصوّرها ممّا أظهر أســـلوبه الفنّيّ في عمله. كان يجب على الطّفل أن يعرف ذلك عن أبيه.

وجدت الصّور الّتي تمّ التقاطها في إنغكور وأذهلتها روعتها. لم تشـــبه أيّ شيء قام بتصويره من قبل. كان لين في إحدى تلك الصّور يتوســـط مجموعة من العمـــال الكمبوديّين. ومع أنّه كان يبتسّـــم لكنه بدا صغيـــرا جدّا على الألم الّـــذي كان في عينيه. احتفظت هيلين أيضـــا بكلّ الصّور الّتي ظهرت فيها. واحتفظت بـــكلّ كاميراتـــه ومعدّاته وتعبه وهو يحمـــل قميصا واحدا فقط مكتوبا اســـمه فيه على شـــريط أبيض فوق الجَيب الموجود على الصّدر. كانت كلّ حياته مختصرة في ذلك الصّندوق.

عندما أتى أفراد العائلة والأصدقاء للتّرحيب بعودتها، خرجت هيلين مرتدية ثوبا رســـميّا وحذاء بكعب عال، فضحتها مشيتها الملتوية بسبب عدم اعتيادها على ارتداء الأحذية بالكعب العالي لأنّهـــا لم تكن في كليّة للبنـــات. وعندما بدأ الحديث عن الحرب كانـــت تغيّر الموضوع وتقول النّكت وتســـأل الجيران عن أولادهم

وكيف يمضون أيّام عطلاتهم، كانت تقول أيّ شـــيء لتتظاهر أنّ كلّ شـــيء طبيعيّ. لم تكن تريـــد أن يعاملوها كحيوان معزول في قفص.

هي الّتي كانت فتاة مســـترجلة، بدأت تطبخ للمرّة الأولى في حياتها. أيّاما طويلة أمضتها في المطبخ وهي تســـتغرق في قراءة كتـــب الطّبخ والطّحـــين.. وكانت صفحات الكتـــاب مغطّاة بغبار الطّحين أو بالصّلصة. انضمت هي وأمّها إلى الوليمة، ثمّ مشـــت بتهاد مبتعدة عن الطّاولة. ضحكت أمّها وأظهرت الخطوط الّتي حول عينيها قلقها. كان لديهم الكثير من الطّعام فدعوا جيرانهم، وهم عائلةٌ من إيرلندا جميعهم بشـــعر أحمر، كانت الأمّ (غوين) تعمل في توصيـــل الأطعمة الّتي تصنعهـــا. وبعد أن أكلت ثلاث قطع من كعكة هيلين بالشّوكولاته النّاعمة، بحثت عن هيلين الّتي كانت في المطبخ تغســـل الأطباق وقالت: «إنّها لذيذةٌ جدا، يجب أن تأتي للعمل لديّ».

«هـــذا علاج بالنّســـبة لي». كانـــت فكرة العمـــل بعيدة جدّا وسخيفة جدّا لدى هيلين لتفكّر فيها.

لكـــن كان لديهم ولدٌ مراهقٌ يدعـــى (فين)، وقد حاول مرارا لفـــت انتباه هيلـــين ولم يضطرّها للادّعاء والمجاملة. كان شـــعر الصّبـــيّ ناعما بلون أحمر ذهبيّ ويداه وقدماه كجرو صغير أكبر من هيكله. تذكّرت هيلين الصبيّ الّذي كان له شعرٌ أشقر بشكل الفريز والصبيّ الّذي قتل في أوّل كمين أنقذها منه لين.

«كيف كان الأمر؟».

قالت له هيلين: «لا تدعهم يجنّدوك، اذهب إلى كندا».

قال الأب: «أظنّ أنّ الخدمة..»..

«أيّ نوع من الشّوكولاته استعملت؟» قاطعتهم (غوين).

ما من شــيء سـيثني هيلـين عن الأمر. قالــت: «إذا ذهبت فسيستغلّونك كالعاهرة».

كشف التّوتر في وجه (غوين) عن مؤامرة للنّساء في محاولة منهنّ لإبعاد حديث الحرب.

«هل رأيت معركة حقيقيّــة؟ هل رأيت أحدا يتعرّض للقتل؟» سألها الصبيّ بعناد.

فتحت هيلين الصّنبور قليلا من أجل (غوين) وابنها. تحدّثت بصوتهــا المنخفــض والمســتوي، فالكلمات بذاتهــا كانت كافية، الكلمات كانت نارا.

لاحظت شارلوت بانخفاض أجوف في قلبها أنّها المرّة الأولى الّتي بدت فيها هيلين على قيد الحياة. فرغت الغرفة بعد خمس عشرة دقيقة إلّا من الصبيّ الّذي كان يستمع بطرب.

«إنّهــم لا يتعلّمــون». قالت هيلين بعــد أن غادر الصبي «من الصور أو من القصص ولا نحن أيضا.. لم نتعلّم».

كانت شارلوت تدخل أحيانا إلى غرفة تظنّ أنّها فارغة لتجد هيلــين هناك تحدّق في الفراغ ووجهها ممــزّق، ابنتها أصبحت كلوحة امرأة بيكاســو الباكية. كانت هيلــين تجلس على الأريكة ورجلاها مطويّتان والدّموع تسيل على وجهها، وكلّ ما استطاعت الأم فعله هو أن تأخذها بين ذراعيها وتهزّها لساعات متظاهرة أنّها ما زالت مجرّد طفلة خائفة من الظّلام ويمكن تهدئتها.

طلبت زوجة دارو من هيلين أن تحضر أغراض دارو بنفسها. ومع أنّ هيلين شكّت أنّ في الأمر تصفية حساب أخير مع الزّوجة لكنّها لم تقرّر بعد ما تفعله. كان أسهل شيء تفعله هو أن تعطي الصّندوق لروبرت وتطلب مــن المجلّة أن تقوم بالتّرتيبات، لكنّها تمسّكت به.

في البداية بدا أنّ البلدة الصّغيرة الّتي على الشـاطئ والّتي تاقت إليها عندما كانت في فيتنام، متكلّسة، ميّتة وبيضاء ونظيفة كعظمـة، لكنّها عادت إلى الحياة أو أنّهـا هي عادت إلى الحياة وهي فيها، لكنّها لم تكن الحياة الّتي أرادتها.. وكان البيت كذلك.

كان مشـهد النّاس وهم يسـعون في حياتهم يتسـوّقون في الأسواق، يأكلون في المطاعم، يلعبون مع أطفالهم في المنتزهات، يضحكون ويشربون ويتحدّثون، كلّ ذلك ولّد فيها استياء عميقا. كانوا يعيشـون حياتهم بسـعادة كبيرة، فكّرت هيلين أنّ هذا ما يريده أيّ شـخص ولكن كم كانوا عميان وغافلين عن أكبر قصّة في العالم! ألم يروا أنّ فيتنام كانت مركز العالم في تلك اللّحظة؟ عندما رأتها من وطنها بدا كبرياؤها وحشيّا. كانت فيتنام شنيعة وما حصل فيها لا يصدّق. اشتعل وجهها لفكرة المخاطرة بالتقاط تلك الصّور الّتي احترقت في النّفايات.

في منتصف اللّيل كانت تشعر أنّها هي نفسها، وعند السّاعة الثّالثة أو الرّابعة كانت تجلس مستيقظة في سريرها كأنّها تجهّز نفسـها لمهمّة وتحاول أن تتذكّر التّفاصيل، جعلتها رائحة الغرفة والحرارة والنّعاس تشـعر بهياج من الأدرينالين في داخلها. كانت أحيانا تنهض وتذهب إلى الحمّام وتغسل وجهها وتنظر في المرآة. هل أصابها الجنون؟

وصلت رسـالةٌ من لين فيها صورةٌ تجمعها به. عندما فتحت الرّسـالة نزل في حجرها حزمة من سيقان الأرزّ الذّهبي. كُتب في الرّسـالة تفاصيل أنشـطته الجديدة كمصوّر في الجريدة. لم تعرف إن كان السّـبب استخدامه الأخرق للإنكليزيّة المكتوبة، لكـن الرّسـالة كلّها لـم تكن شـخصيّة البتّة ممّا خيّـب أملها. خاطبها فقط في السّـطر الأخير فاسـتطاعت سـماع صوته:

(كلّ ليلة أصلّي أن تعود لك الحياة جزءا.. جزءا، كما يعود العشب ليظهر من جديد على التّلال المحروقة). حدّقت في الصّورة عن قرب أكثر، كان ذلك في اليوم الّذي أمضوه في فونغ تاو. لم يكن لين ينظر إلـى الكاميرا بل إليها. كانت تعرف ذلك بالطّبع لكنّها تجاهلـت ما كانت تعرفه. لن تنتهي الحرب بالنّسـبة إليها حتّى ترى العشب يعود للظّهور على تلك التّلال المليئة بالنّدوب.

هـذا ما يحصل عندما يغادر المـرء وطنه.. تتناثر أجزاءٌ من نفسـه في أنحاء العالم كلّها.. لم يكن مكان واحد ليرضيه بشكل كامل، فدائما يصيبه الحنين إلـى المكان الّذي يتركه وراءه. لقد تركت أجزاء من نفسـها في فيتنـام وأجزاء أخرى في عظامها. قرّبت الرّسالة من أنفها واشتمّت رائحة فيتنام الّتي كانت مزيجا مـن رائحة الغابات والرّطوبة والبهـارات والعفن. هي رائحةٌ لم تدرك أنّها افتقدتها.

لكن ماذا كانت سـتفعل بعد أن أدركت ذلك؟ حتّى بالنّسبة لهـا كانت فكرة العودة إلى فيتنـام فكرة مجنونة، فخاضت في لغـز بناء حياة جديدة. بدأت العمل لـدى (غوين) في خدمات المطاعم، فـي خبز الكعك والشّـطائر. وكانت تسـتيقظ عند الفجر وتذهب إلى العمل باكرا وتصنع القهوة وتجلس في ضوء المطبخ السّـاطع. كانت حركة (غوين) ثقيلـة وخرقاء، فدبّرت مكيدة لتحضر قريبها ليشـتري لفافات الكعك. كان اسمه توم ويعمل وكيل عقارات، كان سابقا لاعب كرة قدم في فريق جامعة شمال كاليفورنيا. دار بينهما حديثٌ صغيرٌ جانبيّ وهم يحتسون القهـوة ويتناولون الكعك، وقد طلب من هيلين الخروج معه في موعد، لكنهـا لم تكن لطيفة معه، اكتفـت بأخذ رقمه دون أن تنوي استخدامه.

لكنّها لن تستسلم، بل ستسعى لأن تعيش حياة طبيعيّة. كانت تركض على الشّاطئ عند المساء ولاحظت وجود عائلة يلعبون (الفريسبي) مع كلبهم، وفي انفجار للإلهام لديها ذهبت إلى إحدى المجلات وأحضرت جروا ذهبيّا صغيرا من نوع المكتشف. عندما جلبته إلى المنزل كان ممتدّا بين ذراعيها كباقة ورد كبيرة جدا، فتحت أمّها الباب وضحكت وهي تهزّ رأسها: «كلب؟ كلب! لِمَ لا؟ آن أوان إحضار كلب إلى هذا البيت».

«نعم آن الأوان». أخذت تربّت على أذنيه الذّهبيّتين المخمليّتين وتحاول أن تتجاهل نظرة أمّها الثّاقبة.

«ماذا سنسمّيه؟».

«أراد مايكل دائما كلبا اسمه ديوك».

أومأت أمّها: «ديوك إذا».

«لم لم نحضر كلبا قبل الآن؟».

«لَا أظنّ أنّ والدك كان يحبّه. ألم يتعرّض للعضّ عندما كان صغيرا؟ حصل شيءٌ ما كهذا».

«لكنّك لم تفكّري بالحصول على كلب بعد رحيله».

«انتهتَ الحياة بعد ذلك».

تذمّر الكلب لأنّها كانت تخرجه في اللّيل، كانت هيلين تنهض كالطّلقة وتحمل الكلب إلى الخارج في الحديقة وتقف نعسانة وحافية على العشب النديّ وتحدّق في النّجوم. كانت تمشي به على الأرصفة الخالية جيئة وذهابا وتستمتع بالعالم وهو مقلوبٌ رأسا على عقب في اللّيل، فتلك الحالة الوحيدة الّتي تحاكي حالتها الدّاخليّة.

بعد أسبوعين اتّصلت هيلين بتوم وبدا متفاجئا: «ظننت أنّنا لم نتفق مع بعضنا». قال.

«أنت محقّ».

توقّف وقال: «ما خططك؟».

«أريد أن أخفف من ضغينتي الّتي تكلّمت عنها».

ضحك.

قالت: «أدعوكَ لنتناول الغداء مع أمّي حوالي السّاعة السّابعة». كان غداء مع صحبة أخرى ليبعد عنها الضّغط.

«لمَ لا؟».

خَلال الغداء قامت هيلين بدور المضيفة حيث مرّرت السّلطة وقطع الخبز وأخذت تبتسم وتقول النّكت. ما من كلمة تصف سرور أمّها من توم، فرحت آملة أن تكون تلك خطوةً أولى لابنتها. رمت هيلين فضلات الطّعام للكلب (ديوك) تحت الطّاولة.

عندما سأل توم هيلين عن صورها في فيتنام تكلّمت عن جمال الرّيف هناك «حظّك سيئٌ أنّك لم ترَ المكان بنفسك. إنّها في غاية الجمال يا أمّي. ربّما سنذهب إلى هناك بعد أن تنتهي الحرب».

عبست شارلوت: «ما الّذي يدعوني أن أذهب إلى مكان كهذا؟ مكان قُتل فيه ابني؟».

نهضت هيلين وأخذت طبقها لتغسله. اقترحت شارلوت بعد الغداء على توم وهيلين أن يمشيا على الشّاطئ. عندما كانا في السّيارة على الطّريق السّاحليّ السّريع أصرّت هيلين على التّوقف عند أوّل متجر لبيع الكحول لتشتري زجاجة ويسكي. شربت مباشرة من الزّجاجة وشغّلت المذياع في سيّارة توم بصوت عال. على قمّة الهضبة والبلدة ممتدّةٌ أمامهما حرّكت رجليها فوق علبة السّرعة وحول عصا المحرّك. مرّر توم يده على ركبتها وهي تضع قدمها على دوّاسة الوقود وتثبّت نفسها على

المقعد لكي لا يتمكّن من تحريك الدواسة، وانطلقت السّيارة على الطّريق المتعرّج. أمسك توم بالمقود وضغط على الفرامل «هل أنت مجنونةٌ؟».

«أنا أتسلّى فقط».

«ما هذه التّسلية الّتي ستسبّب قتلنا؟».

«ألم تعطك شعورا جيّدا، فقط قليلا؟ ألم تحمِك من الموت مللا؟».

أوقفا السّيارة عند الطّريق الشّاطئيّ ومشيا على الرّمل حافيين وهما يتناوبان على الشرب من زجاجة الويسكي.

«أنت جامحة إذا؟» قال.

«هذه أنا».

«كم قلت مضى على عودتك؟».

«لم أقلْ..». وقفت وغرست رجلها في الرّمل البارد. كانت الأمواج في ضوء القمر حادّة كشفرات السّكاكين «ستة أسابيع وأربعة أيّام».

عند أوّل الشاطئ كانت مجموعة مراهقين تتجمع حول موقد إضاءة المنحدرات المحيطة، لكنّ المكان الّذي وقف فيه توم وهيلين كان مظلما ومهجورا.

«ماذا تفعلين في أيّامك هذه؟» سألها. شرب رشفة طويلة من زجاجة الويسكي ومرّر أصابعه على أصابعها عندما أعادها إليها.

«أعمل في الخبز مع (غوين)». ضحكت «أخبز الكعك والمعجّنات والخبز».

«لا، أقصد على المدى الطّويل، متى ستعودين للعمل في التّصوير؟».

«لقد انتهيت من ذاك العمل».

«لقــد أخبَــرت كلّ أصدقائي عنك وكلّ مــا فعلته بصورك. جميعهم شــاهدوا ما قمت به وأعجبواً بعملك كثيرا، وهذا سببَ مجيئي عندما اتّصلتِ بــيَ على الرّغم من أنّك لم تكوني لطيفة معي ذلك اليوم».

«واو». صراحته الواضحة جعلتها تعجب به أكثر.

«لمــاذا لا تعملين فــي إحدى الجرائد؟ أو فــي تغطية حرب أخرى؟ أليس هذا ما يفترض أن تقومي به؟».

«ذهبتُ هناك للّهو وتحوّل الأمر إلى شيء آخر. ماذا ستفعل إن كان لديــك موهبـــةٌ خطيرةٌ كركوب الشّــلالات داخل برميل؟ موهبةٌ خطيرةٌ على صحّتك؟».

بعد أن خرج السؤال من فمها شعرت بالحرج.

توقّف وأخذ رشــفة: «لا أعرف إن كنتُ قد أجدتُ فعل شيء بهذه الخطورة يوما ما. ســيكون من الصّعب التّوقّف. العمل في طهو الخبز أمرٌ تافه».

عادت هيلين لتجلس في الظلّ أسفل الهضبة وتعثّرت بالرّمال. أكان ذلك هو الجواب البسيط للأمر، إنّ دارو لم يستطع أن يترك عمله لأنّه كان يجيده. إنّها أحبّت عملها أكثر من هذه الحياة الّتي جعلتها تشــعر أنّها تموت وهي على قيد الحيــاة؟ مهما حاولت كانت حياتها تنزلق من بين يديها ولم تســتطع أن تمســك بها أو تتحكّــم فيها. كان ذهنها غائبا دوما يطنّ في مكان آخر. لم تكن مدركة كيف كانت الحياة تــدبّ بها في فيتنام. كيف على الرّغم من الخوف والغضب كانت متيقّظة بشــكل عميق جدّا، وبطريقة ما لم تستطع الحياة العاديّة أن تماثل ما أحسّت به هناك. قرّبت توم منها.

«قادك كلّ الرجال هنـــاك إلى الجنون، أليس كذلك؟ يمكننا الذّهاب إلَى بيتي، لديّ سرير».

«العمــل في الخبز ليس بذلك السّــوء فهنـــاك طحينٌ وزبدةٌ وســـكرٌ ورائحة الخبز». هزّت رأســـها وتلوّت تحته ومدّت يدها لتلتقط الزّجاجة الّتي في الرّمل وأخذت منها رشفة طويلة.

أخذ الزّجاجة منها: «هذا يكفي، لا أريد أن تغيبي عن الوعي وأنا معك». قبّلها وتلمّس أزرار سترتها.

أغمضت عينيها، لكنّ ذلك جعلها تشعر بالدوار بشكل أسرع ففتحتهما من جديد. «كان هنـــاك مكانٌ في (تو دو) يصنع أروع كرواسان». على الرّغم من حركة الأمواج والأوقات التي أمضتها في الثّانويـــة والكليّة، وعلى الرّغم من طعم الدّخان والويســـكي على لسانها، لم تكن تلك لحظة نسيان.

«هيّا».

«لا». لم تستطع أن تتذكّر لماذا ظنّت أنّ الأمور يمكن أن تنجح ولماذا اتّصلت به. فكّ أزرار ســـترتها. وللحظة قصيرة بدا نبض دفء اللّحظة يجرّهما بعمق، لكن بدل أن تصرف الإثارة انتباهها فتحت في داخلها بابا لحزن عميق.

فتحت هيلين مشـــبك حزامــه لكن الويســـكي ولّد فيها شـــعورا متدفّقا بالغثيان، فاندفعت إلـــى صدره لتبعده عنها لعــدم قدرتها علـــى تحمّل ذلك الأمر لدقيقـــة أخرى، ففهم الأمر خطأ وظنّ أن تصرّفها هذا أتى من شـــغفها به فعانقها بقوّة أكثر فأصبحت صفعاتها أقوى وأشدّ هياجا وعنفا حتّى ابتعد عنها، واســـتدارت مبتعدة وجثمت برجليها ويديها على الأرض وتنهّدت.

جلس إلى جانبها وقال: «يا إلهي، هذا رائع».

جلست وركبتاها إلى فوق ورأسها على ذراعيها واستنشقت جرعات من الهواء.

وقف وخلع قميصه وسترته. مشى إلى الأمواج ثمّ عاد وقال: «خذي». وانحنى على ركبتيه وأعطاها سترته المبلّلة لتمسح وجهها. تنهّد وقال: «لا أفهم سبب ما جرى».

«لم يكن عليّ أن أتّصل بك».

«نعم ربّما».

«أردت أن أكون تلك الفتاة الّتي تخطر ببالك عندما تذهب إلى الحرب».

«أنت من يذهب إلى الحرب، هل نسيت؟».

«منَ الأفضل أن نذهب إلى البيت».

«أنت تعجبينني، لكنّك لست ذلك النّوع من النّساء الّذي يخطر بالبَال في الحرب».

في اليوم التّالي أخذت صندوق أغراض دارو وذهبت على متن رحلة إلى نيويورك.

لم تفكّر بما يمكن أن تجده، ولم تعرف عمّا كانت تبحث. لم تدرك إلّا لاحقا أنّ الحقائق ستخلط ذكرياتها معه دون أن تقرّبه إليها أكثر، وأنّها بعد أن أصبحت مؤرّخة حياته، فإنّ دارو نفسه سيبتعد أكثر وأكثر عن قبضتها. ومع أنّها كانت تعرفه بعمق فكلّ ما استطاعت اكتشافه الآن هو سطح حياته.

قادت السيّارة خارج المدينة في الطّرقات الملتفّة الّتي تظلّلها الألوان الحمراء والصّفراء للخريف الذّاوي. ومع أنّ الوقت كان أواخر سبتمبر لكن كانت هناك نفحة برودة في الهواء كما ألقت الشّمس المنخفضة ضوءا كئيبا على المروج والبيوت. وقد استدارت الطّرقات فيها دون هدف يمكّنها من تحديد مكان

دارو في خلفية الضّواحي تلك، وصلت إلى الشّارع الّذي يسكن فيه واستدارت. فكّرت أن تقود السيّارة حول البيت عدّة مرّات لتتمكّن من استطلاع المنطقة، لكن عندما رأت مرجا طويلا مرتفعا يقود إلى شبه جزيرة كيب كود توقّفت. كيف يمكن لهذا البيت أن ينسجم مع الشّقة الموجودة في تشولون؟ كيف يمكن للرّجل نفسه أن ينتمي إلى المكانين نفسيهما؟

أوقفت هيلين سيّارتها على طرف الطّريق ورأت فتاة سمراء ترتدي قلنسوة وثوبا مزركشا بالأزهار تحمل كيس بقّالة من صندوق السيّارة. بدت ملابسها رثّة وهي ترتدي سروال الجينز والسترة العسكريّة مع قميص من الكتّان فوقهما. كان من المستحيل هليها أن يتوافق دارو الّذي عرفته مع هذا المكان أو مع هذه المرأة. أكانت الحرب عذرا ليذهبا ويعيشا سويّا حياة أخرى؟ أيوجد في هذا المكان خزائن ممتلئة بملابسه؟ وإذا قرّبتها من أنفها فهل ستتمكّن من شم رائحته؟ نزلت من السيّارة وحاولت حمل الصّندوق بصعوبة فأسندته على فخذها وهي تغلق باب السيّارة.

كان طريق الممر منخفضا قبل أن يرتفع موصلا إلى البيت. وهناك بركةٌ صغيرةٌ ممتلئةٌ بأوراق متساقطة تشكّلت من سقوط للمطر. مشت هيلين حولها وخطت على المرج المبلّل وكادت تنزلق في حفرة صغيرة غير ظاهرة. كان طريق الممر طويلا والمرأة بعيدة عن هيلين فلم تتمكّن من تمييز ملامح وجهها. ما إن ترَ وجهها عن قرب فستعرف إن كان دارو قد أحبّها فعلا أم لا.

بينما مشت على الطّريق المفروش بالحصى، ركض صبيّ صغيرٌ حول زاوية المنزل وكلب من نوع (أيريديل) يطارده. كان الصبيّ يضحك وينادي أمّه والكلب يقفز ويعضّه في الهواء،

توقّفت هيلين. كان شـعره البنّيّ المجعّد هو نفس لون شعر دارو. شـعرت بضعف في قدميها. وفجأة شـعرت أنّهـا لم تكن تريد ما جاءت لتبحث عنه. لم يكن هناك شيءٌ يمكن إضافته، لا شيء يمكـن أن يغيّر حقائق الأمور. نادت الأمّ الصبيّ باسـم لم تميّزه هيلين تماما. انتفض الدّم في أذنيها كالأمواج وأدركت أنّ دارو لم يخبرها اسم الصبيّ أبدا ليبقيه غير حقيقيّ.

أشـار الصبيّ بذراعه إلى الطّريق باتّجاه هيلين. مدّت المرأة ذراعيها إليه لكنّه انحنى مبتعدا وبدأ يركض بكامل سرعته على الطّريق وهي تطارده. عندما وصلا إلى مسافة السمع من هيلين، وقفت المرأة وتصلّـب وجهها ونظرت ببرود وقالت: «هل يمكنني أن أساعدك؟».

«أنا هيلَين آدامز مـن مجلّة لايف، ولديّ لك.. لديّ أغراض سام».

«لقد تأخّرت، كان من المفروض أن تكوني هنا منذ ساعات». غطّت المرأة نفسَـها كما لو أنّ ريحا هبّـت عليها. «أنا للي دارو، تعالي». قالت ومشت عائدة إلى البيت.

كان البيـت من الداخـل أنيقا ومظلما والسّـقف منخفضا، تتدلـى منه مصابيـح تيفاني غير مضاءة وأثاثٌ غير مسـتخدم مغطّى بقماش قطنيّ، وقطع أثريّة من الخشب المنحوت وطاولات حجريـة مغطّاة بالرّخام، كان كلّ شـيء أسـمرَ ضاربا للصّفرة بـذوق رفيع. لم يبدُ أنّ رجلا عاش في ذاك المكان على الإطلاق، وبالتّأكيـد ليس مكان معيشـة دارو. عندما جلسـوا في غرفة المعيشـة المظلمة، لاحظـت هيلين وجه للي الّذي تميّز بتناسـق احترافيّ، كانت جبهتها عريضة وشـاحبة وابتسـامتها صارمة. كان وجها يليق به الإعجاب أكثر ممّا يليق به العشق.

«أترغبين بتناول بعض الشّاي؟» سألتها وهيلين لم تكن تصغي، كانت شاردة حتّى أشارت للي إلى أطباق تقديم من الخزف الصّينيّ وقالت: «أحبُّ أن أستضيف أحدا ما».

«هذا كثير».

«ليس كثيرا بعد أن طرت عابرة البلد».

حملت للي صينيّة الشّايَ ودفعت باب المطبخ المتمايل «تعالي إلى هنا إذا أردت فالمكان هنا مريحٌ أكثر».

كان الضّوء القَادم من النّوافذ ضبابيّا، كانت الشّمس مختبئة بين أشجار الصّنوبر الطّويلة الّتي ألقت على المرج ظلالا متمدّدة مائلة للأزرق. كانت الأواني النّحاسيّة معلّقة على جدران المطبخ. واصطفّت كومة من الأطباق في خزائن ذات أبواب من الألواح الزّجاجيّة. كانت للي على حقّ، فمقارنة بالغرفة الأخرى ذاك المكان كان مريحا أكثر. أعجبت هيلين بللي أكثر لأنّها لاحظت الفرق واعترفت به. كان ظهرها متّجها إلى هيلين وهي تملأ غلّاية الماء. وبدا قماش ثوبها غاليا وفي خيوطه لمعانٌ خافتٌ ثقيلٌ.

عندما دخل الصبيّ لم تستطع هيلين أن تبعد عينيها عنه. كان شعره البنّي غير مرتّب فيه خصلةٌ مرفوعةٌ فوق الجبين، ويشبه أباه المُثقل العينين بجسمه الطّويل النّحيل.

«اذهب إلى غرفتك يا سام. هذه صديقة والدك الّتي أتت من مكان بعيد لترانا وتحضر بعض كاميراته».

نظر إلى هيلين باهتمام جديد: «أتُريني إيّاها؟».

قاطعته للي قبل أن تتمكّن هيلين من الإجابة: «ليس الآن، سنراها لاحقا، والآن انطلق».

«لا بأس، لا أمانع». أرادت أن يبقى الولد ويكون هو من يخفّف صدمة كلّ شيء.

«أتعرفين أنّه لم يأت إلى هنا على الإطلاق». قالت للي وهي تخرج الحلويّات مــن علَبة، أعطى الجهد الواضــح الّذي بذلته انطباعا خاطئا عن عفويّتها.

«تزوّجنا في المدينة وعشــنا في شــقّة صغيرة قبل أن يغادر. أبواي يسكنان في آخر الشّارع. أخبرني أنّ وجود عائلة كان مهمّا بالنّسبة له، لذا بنيت هذا البيت من أجله».

«إنّه رائع».

«ليكون لديه بيتٌ يعــود إليه، وأحدٌ يعيش لأجله». هزّت للي رأسها.

لم تقل هيلين شــيئا وانتابها إحســاسٌ برهــاب الأماكن المغلقة، إحساسٌ بالرغبة في الهرب سيطر عليها، وتململت يداها في حضنها. وبرغم كلّ جراحها فقد كانت محظوظة مقارنة بما شاهدته هنا.

وضعــت للـــي مجموعة من الملاعق والشّــوك أمــام هيلين، ووضعت فطيرة واحدة وبعضا من ثمار التّوت مع الكْريمة وبعض السندويشـــات الصغيرة، وجلســت لتصبّ لها الشاي. عن قرب رأت هيلين ســنّا للي الأماميّتان في غاية الجمال ولا تشــوبهما شــائبةٌ سوىَ تداخل بسيط. تردّدت هيلين وهي محرجة لأنّها لم تعرف أيّ شوكة تلتقط.

«كنــتُ مخطوبة لطالــب حقوق من بلدتي، لكنّ ســام.. كان شديد الشّغف بتغيير العالم». التقطت الشّوكة الأبعد عن الطّبق: «كيــف كان يمكننـــي ألّا أعشــقه؟ أردت أن أنتظر قبل أن ننجب أطفــالا. أردت أن نبقى وحدنا بعض الوقت». ابتســمت ومالت للأمام كما لو أنّهــا تدلي باعتراف. «حتّى إنّني فكّرت أن أصبح مصــوّرة وأذهب معه، لكنّــه أصرّ أنّ ذاك المــكان لم يكن مكانا مناسبا لامرأة. أراد أن نُكَوّن عائلة».

استخدمت هيلين الشّوكة الصّغيرة لتقطّع كعكة التّفاح.

مدّت للي يدها وأمسكت بذراع هيلين للتّأكيد. «أنا لست ساذجة وأفهم الأمور. لقد كان يكره الحرب وقد واسيتما بعضكما هناك».

سعلت هيلين لتسهّل على نفسها الكلام: «أحضرتُ كلّ شيء خمّنت أنّ ابنك يمكن أن..».

«أنت الأولى بينهنّ الّتي تَحدّث عن الزواج منها».

مَن هنّ؟ هذا كان هدفها إذا؛ الانتقام بعد الموت. أنزلت هيلين الشّوكة الصّغيرة وأمسكت بالسّندويشة بأصابعها: «لقد كان يحبّ عمله».

«نعم». وقفت للي وتحرّكت إلى النّافذة المظلمة. ثم مرّرت يدها على شعرها ونظرت باتجاه الغروب. كانت إشارة طبيعيّة أنّها لم تكن واعية لنفسها وهي تتحدث عن أوقات أصيل أمضتْها وحيدة تحت وهج المصباح. استطاعت هيلين رؤية الجبهة الشّاحبة فقط وخطّ ذقنها المتعرّج. وتخيّلتها هي الشّابة الّتي تزوّجها دارو. «كان طَموحا أليس كذلك؟ هذا ما عليّ أن أقنع ولدي سام به، أنّه كان رجلا عظيما يقوم بعمل مهمّ وميتتُه كانت ميتة بطل».

«نعم». احتاجت هيلين لكلّ قوّتها لتبقى جالسة في الغرفة وألّا تهرب. كان المجيء إلى هنا خطأ فادحا، فهذه المرأة حرّفت كلّ شيء حتّى أصبح من المستحيل فهمُ الأمور على حقيقتها.

«كان في كلّ سنة يخبرني أنّه سيستقيل. وأنّ كلّ امرأة ستكون الأخيرة، ثمّ عرفت أخيرا أنّه سيبقى هناك حتّى يقتل».

«كنّا على وشك المغادرة».

«لقد وصلتني أوراق الطّلاق فجأة، لم يكن يفكّر تفكيرا سليما».

«طلب منك ذلك في سايغون».

«لم يطلب منّي شيئا كهذا. تناقشنا عن موعد عودته للوطن. أيّ أب هذا الّذي لا يرى ابنه؟».

«جئت من أجل الصبيّ. أنت لم تعرفي سام حقّ المعرفة. لم تعرفي كم كان الصبي مهمّا لدى سام وكم أحبّه! أنت لم تعرفيه جيّدا».

«سأقول: لا أنا ولا أنت كنّا حبَّهُ الأوّل». استندت للي بظهرها على الحائط، ومدّت ذراعيها لتلفّ حول الغرفة «لكن على الأقلّ أنا لديّ هذا. بيته وأنا أرملته، على الأقلّ لديّ ولدي سام».

«نعم».

اقتربت للي حتّى تمكّنت هيلين أن تشمّ عطرها وترى عينيها المركّزتين عليها، وفهمت للمرّة الأولى مدى غضبها ومدى صعوبة محاولتها السّيطرة على ذاك الغضب. «لا أستطيع أن أفهم النّساء أمثالك. أكان ذاك الجزء الصّغير منه كافيا حقا بالنّسبة لك؟».

كانت هيلين تشعر بالدّوار. «كان لدينا الحرب».

«تعرفين، لقد أحببتُه. أحببتُه عندما كان على طبيعته، لكنّه خسر نفسه هناك في ذاك البلد الصّغير المرعب، لكنّ ذلك لم يجعلني أتوقّف عن حبّي له».

أصبح المطبخ ظليلا وباردا. ارتجفت هيلين في سترتها القطنيّة الخفيفة. كانت تشعر بالبرد دوما.. أمّا للي فقد قطرت جبهتها عرقا وتوهّجت بنوع من الحرارة المعدنيّة. أخيرا رأت هيلين أنّ ذاك المكان لم يكن يمتّ لدارو بصلة فيما عدا الصّبي. ما كان حقيقيّا هو حياتهما سويّا والحرب داخلها وهي ببساطة لم تفهم ذلك.

«لقد كرهتُكِ في سايغون». قالت للي، وبدت متعبة من فترة

العصـــر الطّويلة. «لكنّي لم أعد أكرهك فقد خســـرتِ أكثر ممّا يمكن أن آخذه منك».

مرّ شهرٌ وعادتَ هيلين للعمل في المخبز. تمّ حلّ لغز كان يدور في ذهنها عن دارو وتعايشـــت مع الماضي بشـــكل أسهل. عندما أتى روبرت من لوس أنجلوس ومشيا سويّا متشابكَي الأذرع على الممرّ في هواء المســـاء البارد الرّطب كادت الحياة تبدو طبيعيّة. كان الشّـــارع يمتلئ على طول الشّاطئ بســـيّارات بطيئة الحركة ومراهقين يتجوّلون. بدا روبرت كأنّه أصغر بعشـــر ســـنوات ممّا كان يبدو عليه في سايغون.

«يليق بك السّلام». قالت هيلين.

«أتصدّقين أنّنا نجونا؟ يبدو الأمر أفضل من أن يكون حقيقيّا» قال «كلّ صباح أستيقظ وأشعر بامتنان لأصغر الأشياء».

لـــم تخبـــره عن فتح رســـالة لـــين وكيف كان وهـــج المحيط بنفســـجيّا والغرفة مظلمة، وكيف أضاء مصبـــاح المكتب عندما فتحـــت الظّرف لتجدَ أعواد الأرزّ الذّهبيّة تقع في حضنها. كيف انتقلت إلى هناك فورا ومدى الرّاحة الّتي شعرتْ بها.

كان على الورقة الّتي كتب عليها لين رسمٌ باهت لزهرة لوتس بالأصفر الفاتح، وكتابته كانت بالحبر الأســـود على الصّورة الّتي ذكّرتها بشوارع سايغون والتّضاد الدّائم بين الجمال والحاجة.

«يبدو كلّ شيء بعيدا جدا». نظرت إلى خطّ السّيارات الّذي يزحف على الطريق. وجفلت عندما اشـــتعل وقود ســـيارة قريبة منهما.

«أتذكريـــن أوّل ليلـــة أخذتك فيها للغـــداء؟ وحاولت تحرير أسراب البطّ في فيتنام؟».

«كيف كنتُ بذلك الغباء؟».

«رأيتُك فاتنة ورأيتُ أنك لن تستمرّي هناك».
«ذهبتُ لرؤية زوجة دارو السّابقة».
«لماذا؟» عبس وقد ملّ من نبشها المستمرّ للماضي.
«كلّ تجربتــي هناك كانت مبهمة. كنّا في حلم. كان حلما في غاية الوضوح. ظننتُ أنّه لــم يكن حقيقيّا. لكنّه كان كذلك. كان حقيقيّا أكثر من أيّ شيء آخر هنا».
«السّلام يليق بالجميع إلا بك».
مشــت مع روبرت إلى الرّمال وجلسـا قبالــة صخرة كبيرة يشـاهدان الأمواج تتلاشى في منظر الغســق القريب. انجرف عشب البحر بالقرب من الشّاطئ. وهبّت رائحة عطر مياه البحر بقوّة مــن الجزء الشّــماليّ للخليج. «لا شــيء يضاهي الضجة فــي فيتنام. أليس كذلك؟» كانت رائحة السّــمك المخمّرة توحي بنوع الغذاء الرئيســي في أيّ مطعم محلّي يمكن أن يدخله المرء في سايغون. أمســكت بيد روبرت وشبكت أصابعها مع أصابعه «أتعلم؟ ينتابني شعورٌ جميلٌ لكوني معك فأنت تتفهم الأمور. ألا تفتقد فيتنام ولو قليلا؟».
تنهّد روبرت «تقصدين ســايغون؟ أشعر بالسّعادة أنّني ذهبت إلى هناك ونجوت».
وضعت هيلين رأســها على كتفــه «لا أقصد الحرب، بالطّبع لا».
«تعالــي للعمل في لوس أنجلــوس. فالقصّة الّتي كتبتها أنت ودارو عــن لان لاقت نجاحا كبيرا. يريــدون متابعة لها هنا في كاليفورنيا».
«متابعة محليّة؟».
«لــن أعيدك إلــى فيتنــام، إذا كان هذا ما تســألين عنه».

لـــم يكـــن (لان) واحدا منهم، ولم يفهم ماك كـــراي أو حتّى دارو ذلـــك. لم تســـيطر الحرب على مخيّلته يومـــا. «إن ما حدث في ســـايغون.. ما لم يحدث.. الأمور كانت مجنونة. لكنّني فكّرتُ أنّه يمكننا أن نحاول رؤية بعضنا في ظروف طبيعيّة».

ضحكت هيلين ضحكة صغيرة «هل تقصد أن لقاءنا هنا هو في ظروف طبيعيّة؟».

«نعم فلســـنا فـــي منطقة حرب». انســـحب غاضبا «لا أؤمن بكذبةِ (الأيّام الخوالي) عن الحرب. الحرب كانت سيئة، سايغون كانت سيّئة، ونحن محظوظون لأنّنا خرجنا منها على قيد الحياة».

«بالتّأكيد». بعد كلّ ذلك لم تســـتطع أن تخبره أنّها تستيقظ فـــي منتصف اللّيل وتدّعي أنّهـــا بحاجة إلى أن تخرج في مهمّة، ولم تستطع أن تخبره عن جولاتها في الحيّ المجاور مع (ديوك).

«لقد صدّقتُ كلامك هناك أنّك لم تكوني على طبيعتك».

«هل سمعتَ شيئا عن لين؟».

صمت روبرت لبرهة طويلة: «سمعت منه مرّتين أنّه انضمّ إلى طاقم العمل. لقد عرضت عليه أن ينتقل ويحصل على الجنسيّة الأمريكيّة لكنّه رفض».

«ظننت أنّه تزوّج؟».

«مَن؟ لين؟ لا ليس الأمر كذلك. إمّا أن يكون وطنيّا أو وطنيّا حقّـــا، تفهمين قصدي. دارو كان دومـــا يمازحه أنّه يعمل لصالح العمّ (هو)».

«أيّا كان. أنا أثق بأن أسلّمه حياتي».

لم يقل روبرت شيئا.

«هل تذكر تلك اللّيلة الأولى؟ عندما تركتكَ في المطعم؟ ظننتُ أنّكَ سترغمني لكنّك لم تفعل».

«ألــم نذهب إلى مكان صينيّ قذر.. في تشــولون؟ لا أذكر». هــو بالطّبع تذكّر كلّ ما حــدث في تلك اللّيلة وكرهها لكنّ كرهه لها لم يستمرّ.

«أذكر أنّ دارو قــال: إنّهم محظوظون لأنّه دوما يوجد حربٌ أخرى. ظننت أنّ الأمر مجرّد استعراض ذكوريّ. لكنّ الآن أتمنّى لو كان هنا لأستطيع إخباره أنّني فهمت قصده أخيرا».

نهضا وعادا إلى الممرّ. كانت الســماء فوقهما سوداء والقمر شاحبا يلقي ضوءا عقيما على الماء وعلى البيوت وعلى الهضاب الّتي خلفها.

«يوجــد العديد من الشّــباب في العشــرينيّات من أعمارهم ظنّوا أنّهم خالدون. أنا وأنت نعرف الحقيقة». قال روبرت.

«سأقبل المهمّة».

«فتاة جيّدة».

أومــأت وأخذت يده من جديد وقرّبتها إلى شــفتيها «أحيانا أتمنّى أن أســتطيع العودة إلى هناك ولو لساعة واحدة، فساعة واحدة تكفيني لأستطيع أن أحبّ المكان هنا من جديد».

في تلك اللّيلة فتحت النّافذة وهي تغيّر ملابسها لتنام. كانت واثقة بعــد أن رأت روبرت أنّ الأحلام ســتأتيها في تلك اللّيلة. خلعت ملابســها في الظّلام وهي تستمع لانزلاق أمواج المحيط، لبســت ثوب النّوم الأشبه بالحجاب. وربطت شعرها إلى الخلف بشريط مطاط بسيط. أشعلت الضّوء ونظرت إلى الصّور المعلقة على الجدار.. الصور التي كانت موجودة مســبقا في رأسها، ثمّ أطفأت الضّوء بســرعة. بدأت الأحلام تبتعد، وعندما أتت إليها من جديــد كانت أقلّ حدّة، ووجدت أنّهــا بحاجة لإثارة ذاكرتها قبــل أن تخلد إلى النّوم لتتمكّن من لقاء دارو من جديد في ذاك

الظّلام الواسع. لكن بدلا عن دارو أتاها الحلم بالأطفال.

كانـــت راكعة علـــى ركبتيها ورجلٌ غير معروف مســـتلق إلى جانبهـــا وقد أحاطت بهمـــا مجموعةٌ من الأطفـــال الفيتناميّين تجمّعوا حولها هي ودارو ولفوا حولهما حتّى لامســـوهما، لكنّها عندمـــا حاولت التّحـــدّث معهم أداروا ظهورهـــم لها، حتّى وهي تحلـــم كانت تحاول أن تتذكّر من أين أتـــت الصّورة الّتي أعطتها إحساســـا بالتّهديد ذلك اليوم مع لين في (فـــونج تاو)، لكنّها لم تستطع أن تحدّد مكانها.

كان مركـــز إعـــادة التّأهيل فـــي مقاطعة (ويلشـــاير)، وقد استدارت وهيلين حول حيّ المشـــفى عدّة مرّات لتوقف سيّارتها فـــي النّهاية على بعد ربع ميل مـــن أحد المقاهي. كان اليوم حارّا والهواء يتصادم برياح (ســـانتا آنا) الشّديدة الجفاف، فبدلا عن السّـــديم الملطّخ بالضّباب والدّخان، كانـــت هناك حدّةٌ في الجوّ ارتســـمت على الأشـــجار والأبنية في الخلفية العامّة. جلســـت هيلين في المطعم وفقدت شـــهيّتها بســـبب رائحة الدّهون وشمع الأرض الملمّع والمطهّر. حاولت أن تركّز على المهمّة وأن تعدّ الفتاة (لان) قصّة أخرى عليها أن تغطّيها.

كانـــت قد تأخرت عـــن موعدها وهي تشـــقّ طريقها حاملة حقائب الكاميرات على كتفيها في الكراج وهي تمشـــي في ضوء الشّـــمس السّاحق ورائحة الإسفلت الحامضة تحت قدميها. في المشفى في طابق الأطفال انتظرها كامل طاقم الأطباء والمعالجين مرتدين معاطفهـــم البيضاء الطّويلة، جاهزيـــن للتّصوير. ألقى رئيس الأطبّاء المســـؤول عـــن الحالة محاضرات عـــن العمليّات مستخدما رسوما بيانيّة. وبدا معطفه الطبّي رسميّا ومطويّا كأنّه قـــد خرج لتوّه من الصنـــدوق. كان هناك نماذج أعضاء صناعيّة

موضوعة على طاولـــة الأكل، وكانت مغطّاة بقماش أحمر طويل ممـــا جعل الطاولة تبـــدو وكأنها طاولة جوائـــز، وكانت كلّ مادة ملونة بلون الدّم منفصلة عن الأخرى وقد سلطت عليها الإضاءة من فوق.

سألت أخيرا «أين (لان)؟».

«ظننـــتُ أنّ عليك أن تري تطوّر حالتهـــا أوّلا». قال الطّبيب مستاء من قلّة اهتمامَها.

«ما رأيك أن أراها أوّلا؟» قالت هيلين «سنتحدّث بعد ذلك».

أصبحـــت الغرفة أكثر هدوءا، سـعل الطّبيب في يده وقال: «حسنا إذا، لنذهب لرؤيتها».

اتخذت الطّبيبة النّفســـانيّة قرارا سريعا بأن تلخّص لهيلين الأمـــر. كانت قصيرة القامة وهي تمشـــى خطوة صغيرة بعد كلّ خطوتـــين لتتمكّن من اللّحاق بها. كانت تعضّ شـــفتها السّـــفلى كلّما تحدّثت وكأن لكلماتها مذاق مُرّ. مرّوا بجانب غرفة ممتلئة بالأطفـــال. «(لان) بمفردها الآن». همســـت «فقد حصل موقف عدائي جديد بينها وبين الأطفال الآخرين». ضيّقت المرأةُ عينيها حتّى لم تعـــودا ظاهرتين فوق لحم خدّيها الممتلئين. «إنّه العضُّ. تصرّفٌ غيرُ مقبول».

«لم تكن أوضاع معيشتها في سايفون مثاليّة».

قالت المرأة: «لكنّنا أنقذناها».

«في الحقيقة نحن الّذين تسبّبنا في أذيّتها».

وضعـــت المرأة يدها المليئـــة بالخدوش على وجهها كما لو أنّ بُغْض كلمات هيلين يمكن أن يسبّب لها طفحا جلديّا.

وقفت في نهاية الرّدهة وفتحت بابا. في البداية بدت الغرفة كأنّها فارغةٌ، ثمّ رأت هيلين (لان) جالســـة على طاولة منخفضة

في الزّاوية تشـكّل كرة من الصّلصال. شكّل الكبار نصف دائرة حول الطّاولة لكنّ (لان) تصرّفت كأنّها لم تسمع شيئا ولم تحرّك عينيها عن هيكل الصّلصال الّذي أمامها. من المستحيل التّصديق أنّها الفتاة ذاتها من سـايغون، فقد أصبحت الآن ممتلئة الخدود والأذرع وشـعرها لامعٌ مربوطٌ على شـكل ذيل الفرس بشريط زهريّ، مرتدية سترة سندريلا زهريّة اللون وسروالا.

«(لان؟)» قالت هيلين: «ألا تتذكّريني؟».

نظـرت الفتاة نظرة ملل ثقيلـة كأنّها تعدّ نفسـها لاهتمام إضافيّ غير مرغوب به. اقتربـت هيلين أكثر وانحنت لتعانقها. كانت رائحتها جميلة والأدوية لها رائحة شراب السّعال. وكان من الواضح عن قرب أنّ وجهها منتفخٌ وأن عينيها جافّتان وقاسيتان. تسـاءلت ما الأدوية الّتي كانوا يعطونها إيّاها؟ بقي جسـم (لان) مرتخيّا بين ذراعيها.

جلست على مقعد بلاسـتيكيّ صغير. كانت الطّاولة ممتلئة بالألعـاب لكنّ (لان) لم تكن مهتمـة إلّا بكرة الصّلصال الّتي بين يديهـا. كان عندها ألعـابٌ مملّةٌ تبعث على الكسـل كتصرّفات الحيوانات في الحديقة. «لديك الكثير من الألعاب» قالت هيلين. أمسكت (لان) بيدها وقالت: «هل أحضرت لي الحلوى؟».

ضحكت هيلـين بارتياح لحدّة ذاكرة الفتـاة. جعلها الأطباء الواقفون حولها تشعر أنّه يجب عليها أن تقدّم لها شيئا ما. «كنت أحضر لها الحلوى في سايغون».

هزّت (لان) رأسـها وقد نفد صبرهـا ومالت بذقنها بحدّة. «كان سام يحضر لي الحلوى. ماذا أحضرت لي الآن؟».

«أتيت لألتقط صورا من أجل المجلّة».

تثاءبت (لان) وقالت: «أنا جائعةٌ».

مشـــت الممرّضة إلى الأمام بحماس وقالت: «ســـأحضر لك بعض الطّعام يا حبيبتي».

«أريـــد الهامبرغـــر». قالـــت (لان) عندما ذهبـــت الممرّضة وأغلقت الباب خلفها.

نظـــرت هيلـــين إلى (لان) وإلـــى الأطباء وقالـــت: «هل نبدأ بالتقاط الصّور؟».

«ماذا ستعطينني؟» صرخت (لان).

تحرّك الأطباء مبتعدين خلفها وتهامســـوا وكتبوا ملاحظات فـــي ألواحهم. بدأت (لان) تغنّي بصـــوت ناعم، ثمّ بدأت كلماتها تعلو تدريجيّا حتّى أصبحت مســـموعة بشكل واضح: (كان هناك فتاةٌ من كونتوم، لكن هل كانت تحبّ القنابل...).

«لا» انحنت هيلين لتُسكت الفتاة. «يجب ألّا تغنّي في المشفى، لا تدعيهم يســـمعوك». شـــعرت بإحـــراج كما لو أنّهـــا تتكلّم مع والديها.

استهجنت (لان) الأمر وشدّت شعرها لتقطع بعض الضّفائر وترميها على الأرض.

«ماذا تريدينني أن أحضر لك في المرّة القادمة؟» قالت هيلين بعد أن قرّرت مساومة الطّفلة.

«كاميرا» قالت «سام وعدني أن يحضر لي كاميرا وكذب عليّ وذهـــب ليموت بدل أن يحضرها». تجمـــدت هيلين من وقع تلك الكلمـــات ولاحظت (لان) ذلك بعد أن انتبهت فجأة «كذب عليك أنت أيضا؟».

«لقد تعرّض لحادث يا (لان). هو لم يرد أن يموت».

«أمّي تقول إنّه لا وجود للحوادث وأنا فقدت رجلي لأنّي فتاةٌ غبيّةٌ».

«هذا غير صحيح. لم يكن ذلك ذنبك».

«كنت أقطف الخضراوات لأنّها تكبر، ولأنّ ذلك كان أسهل من الذّهاب إلى مكان آمن».

«لقد كان ذلك حادثا».

عادت الممرّضة وهي تحمل صينيّتين من طعام الكافتيريا، وضعت واحدة أمام كلّ منهما. غمزت لهيلين «إذا أنهيتما طعامكما فسأحضر لكما الحلويّات».

احمرّ وجه (لان) وقطّبت حاجبيها وقالت: «أمّي على حقّ، لا وجود للحوادث، أنت غبيّةٌ».

أخذت هيلين نفَسا عميقا، وأحسّت فجأة بالتّعب من فكرة جلسة التّصوير تلك ومن المجهود الزّائد، أرادت فقط أن تهرب من جنون تلك الفتاة. «أتحبّين أمريكا؟» سألتها هيلين وانحنت لتُخرج الكاميرا من حقيبتها.

«أريد تلك الكاميرا».

«هذه لي. سأشتري لك واحدة».

«أريد أن أعود إلى وطني. لماذا لا يمكن لوالديّ زيارتي؟»

دفعت (لان) صينيّةِ الطّعام عبر الطّاولة لتطير عن طرفها باتجاه الأرض. «أكره الدّجاج. (لان) فتاةٌ مميّزةٌ ويجب أن تأكل كلّ ما تريده». حرّكت نفسها إلى الجانبين على كرسيّها الصّغير وأمسكت بركائز الجدار وتحرّكت بسرعة كبيرة ففقدت توازنها ووقعت.

لم تتحرّك هيلين لتساعدها وعندما نظرت (لان) إليها ورأتها واقفة، بكت بصوت أعلى، فجاءت الممرّضة مسرعة وانحنت على ركبتيها إلى جانبها.

«لا تلمسيني» صرخت لان «لا تلمسيني».

امتلأ وجه هيلين بقطرات العرق لدرجة أنّها لم تستطع أن تتنفّس، أعادها الاضطراب الذي يحدث الآن إلى غرفة الصّليب الأحمر المنخفضة في سايغون وإلى رائحة البول والأجساد غير المغسولة.

تضاربت الصّور في رأسها واحدة بعد الأخرى. نهضت هيلين على قدميها غير المتّزنتين كأنّها تنهض من نوم ثقيل مخدّر. كان واضحا لها أنّها مهما فعلت فلن تستطيع الهرب. حتّى الموهبة الخطيرة أفضل من لا شيء.

تاقت إلى الهدوء والهواء البارد. علت صرخاتٌ أكثر وأكثر حتّى أصبحت خارجة عن السّيطرة، لكنّ هيلين لم تر أمامها إلّا أطفال سايغون الجرحى مستلقين على الأسرّة مثل سمك السّردين، والصّبيّ الصّغير الّذي يأكل أوراق زهرة (الجهنّميّة) في الحديقة. اهتزّت الكاميرا في يدها. و(لان) ارتعشت على الأرض عندما تجمّع الأطباء حولها كجنديّ جريح يحيط به المسعفون.

خفّت الصّرخات في الرّدهة، استندت هيلين على صورة أرنب مرسومة على الجدار وأغلقت عينيها.

خرجت الممرّضة «أعتذر عن ذلك، لقد كان تصرّفا سيّئا».

«هل فعلت ذلك من قبل؟».

«نعم مرارا وتكرارا، وهذا أمرٌ بشعٌ صادمٌ للأطفال».

«لم تكن هكذا من قبل».

«أنت نفسك لا تبدين بخير. لِمَ لا تستلقين وسأحضر الطّبيب ليراكِ؟».

«لَا بأس. أنا بخير». تحرّكت هيلين باتّجاه المصعد.

«ألن تودّعيها؟» قالت الممرّضة.

«لا أريد أن أزعجها». تمتمت هيلين بينما انفتح باب المصعد.

«أستطيع أن أخبرها أنّك ستعودين. أليس كذلك؟» صاحت الممرّضة، لكن هيلين كانت قد ذهبت.

مشت هيلين وأمّها مع (ديوك) بالقرب من بيتهما على الشّاطئ الهلاليّ الّذي كبرت بقربه، وعلى الرّمال الّتي خطت عليها خطواتها الأولى لتتهادى إلى ذراعيّ والدها بجانب الماء الّذي قضت هي ومايكل بجواره أوقاتا صيفيّة لا تعدّ ولا تحصى ليبنوا قلاع الرّمال، وأمّهما الشّابة جالسة تتحدّث مع الأمّهات الأخريات وتحضّر السّندويشات والعصير المحلّى للغداء. سارتا تحت الجروف الكلسيّة، كان جسم (ديوك) الذّهبيّ يتمايل بين الصّخور الّتي كانت هيلين وأصدقاؤها المراهقون يشعلون مواقدَ بالقرب منها في أوقات متأخّرة من اللّيل ويتحدّثون ويحتسون الجعة الدّافئة بغرض أن يتجمّع الشّبّان والشّابّات ويلتقوا في الظّلام ليستلقوا على الرّمال الباردة، ويستكشفوا بعضهم. كلّ ذلك الجمال وأولئك الصبية الّذين تفوح منهم رائحة الشّامبو يتحوّلون لاحقا إلى أشكال من أكياس للجثث. سارتا في وقت متأخّر عصرا والشّمس بلون الزّعفران، صاحت والدة هيلين وبدا وجهها شاحبا وملطّخا كأنّها تعرّضت لضربة ويداها مقبوضتان.

«أمنعك، لا». قالت «هذا ليس عدلا».

«لكن ليس هناك فائدة». قالت هيلين «فأنا لا أنتمي الآن إلى أيّ مكان آخر».

«لا..».

«أحتاج إلى أن أذهب». قالت هيلين.

سارتا بجانب عائلات تتناول غداءها في وقت متأخّر مع أطفال، وكلاب يتراكضون ويطاردون بعضهم و(ديوك) يحوم

حول طاولات النّزهة المليئة بالطّعام يجلس حولها أناسٌ يتحدّثون ويضحكون كما اعتادوا أن يفعلوا، تعثّرت هيلين بشــيء حادّ في كاحلهــا فاختلّ توازنها وفجأة وقعت بشــكل جانبيّ على وجهها وتأرجحت مســتندة على كتفها، وعندمــا نظرت ورأت أنّه خيطٌ مشــدودٌ إلى عصا صيد سمك مغروزة على طرف الماء، استدار صبيّان صغيران عن غدائهما لخوفهما أنّهما أصبحا في مشكلة بسبب ما حدث، فقدت هيلين سيطرتها على نفسها وبكت بشدة وضربت يديها على الرّمــل الّذي خانها وخانهم جميعا لأنّ ذلك الخيــط لم يكن كمينا فيه لغــمٌ أو قذيفةٌ أو لم ينته بالموت، أمّها تجمّدت، بهاجس أنّها لم تعرف تلك المرأة المســكونة الّتي وقفت علــى قدميها وحركاتُها بــدت غريبة كطيــف ذاك البلد البعيد الأخضــر، وعندمــا رأت بعينيها موت ابنتها الصّغيرة الشّــقراء الّتي عدّتها ميّتة الآن كولدها، أدركت أنّها خســرتهم جميعا، لم تكن بيدها حيلةٌ أمام هذا الشّــيء الّذي يســمّونه فيتنام. حدّق النّــاس على طاولة النّزهة بصمت. تــردّد رجلٌ كبير البطن بيده سندويشــةٌ في الاقتراب منهما، (ديــوك) ركض على طرف الماء بكرة في فمه والأمّ الشّابة ركضت إلى ولديها وحضنتهما بالقرب مــن ردفها، حيــث كانت طبيعة الحرب تنشــر الخوف على تلك الرّمال وتجتاح أخيرا عودتها إلى الوطن.

(15)
هانغ هوم نوك ران
وكر النّمر وسمّ الأفعى - مكان الخطر
نوفمبر 1968

عادت هيلين بعد غياب. وصلت إلى فيتنام في اللّيل، وعندما اقتربت الطّائرة من مدرّج مطار (تان سون نهوت) المظلم وأطفؤوا الضّوء على اللّوح ليتجنّبوا هجمات الصواريخ أو المدافع، كلّ ما استطاعت أن تشعر به في ذلك الظّلام هو الجذب المغناطيسيّ للمكان الّذي يجرّها لتعود إلى تلك الأرض، وشكّت أنّ ذلك الجذب المغناطيسي هو الذي بذل مجهودا زائدا معها وأحضرها من كاليفورنيا، حتّى ولو على نحو ضعيف.

وقفت عند باب الطّائرة المفتوح غير قادرة على رؤية أيّ شيء في ذاك اللّيل الأسود كلون الإسفلت على مدرّج الإقلاع، كان صوت الهواء صاخبا مع صوت محرّكات الطّائرة الّتي تهدر استعدادا لرحلات اللّيل.

جعلتها الحرارة والرّطوبة تشعر أنّها سمكةٌ أُعيدت إلى الماء. تنفّست بعمق تلك الرّائحة المنسيّة المألوفة الّتي عذّبتها أثناء وجودها في الولايات المتّحدة وقد أتت إليها أخيرا، الرّائحة الّتي هي انبثاقٌ لرائحة الأدغال والعفن في العالم الثّالث، رائحة

القمامة وطعام الغداء والجلد غير المغسول الممزوج مع رائحة المجاري والديزل والمطر، إنّه الوطن.

وقف لين وسط حالة الفوضى في المطار، لم يتغيّر. وكأنّ أشهر الغياب كانت لا شيء. أحسّت بالرّاحة الكبيرة لرؤيته بشحمه ولحمه، كأنّها خافت أنّه هو أيضا تحوّل إلى شبح، أنزلت حقائبها وركضت إليه وعانقته وقبّلته على خدّه.

ابتعد عنها لشعوره بالإحراج، ونظر حوله ليرى من كان يشاهدهما. كانت قد نسيت الكثير، كلّ صعوبات وعوائق الحياة في سايغون اختفت من ذاكرتها في لهفتها للعودة. أعطاها لين وشاحها الذّهبيّ.

أخذته ولفّته حول عنقها: «لقد افتقدته».

امتعض لين: «لقد كان ملكك دوما وينتظر عودتك».

«أنا سعيدةٌ أنّني عدت». حاولت أن تخفي خيبة أملها من التّعامل الرّسميّ بينهما. عندما أرسلت إليه لتعلمه بعودتها عَدّت إجابته بأنّه سيستقبلها في المطار بمثابة موافقة.

رأت تغييرا فيه، فقد زاد التّعب على وجهه أكثر ممّا كان قبلا. ببساطة لم تتوقّف الحرب فقط لأنّها غادرت البلاد.

«سعيدةٌ حقّا؟» سألها وحمل حقائبها.

«صدّق أو لا تصدّق». قالت «الوضع أكثر رعبا هناك من هنا».

قال: «لا أفهم قصدك».

ركبا السيّارة في المدينة وعبرا مسافات جديدة في صمت. توتّرت الصداقة الحميمة السّهلة بينهما دون حاجز وجود دارو. كانت هيلين واعية لوجود لين كرجل، وأحرجتها حميَميّتها اللّعوب السّابقة معه بما فيها أنّها قبّلته في مكان عامّ. كان من الواضح

أنّ علاقة الصّداقة بينهما قد وجدت بسبب دارو، ممّا سمح لها الآن أن تعرفه بطريقة لم تكن لتحدث لولا ذلك.

بدت الأشياء أصغر وأقذر وأكثر دناءة ممّا تذكّرتها. تباطأت السيّارة عند بداية الزّقاق في تشولون، وكان الفجر في بدايته يتوهّج في أطراف السّماء عندما كان أوائل التّجار يبدؤون حركتهم. مشيا في خطّ واحد ليتجنّبا المشيَ في البركة الكبيرة، كان لين في الأمام يحمل الحقائب حتّى وصلا إلى الشّقة الملتوية بسطحها الأزرق المائل الملتوي، والجصّ المهترئ بالبقع الّتي تغطّيه، وباب بوذا باهت اللون. وقفت هيلين في الزّقاق ورفعت بصرها وغمر قلبها مشهد المصباح الأحمر عند النّافذة. كانت بالنّسبة لها متعة تشعرها بالذنب مثل تدخين سيجارة بعد أشهر من التّقشف. شعرت بالدوار في مجال رؤيتها. كان غير حقيقيّ قبول غياب دارو هنا، وحينها شعرت أنّ وجوده أقوى ممّا كان عليه منذ أشهر. لم يكن أي شيء كما كان عليه قبلا، لكن ما كان يضايقها أنّه كان بالإمكان إعادة الزمن.

«هل تزوّجت يا لين؟».

نظر إلى وجهها دون أن يتمكّن من معرفة إحساسها. «لا». لكنّها عندما بقيت صامتة تابع كلامه قائلا: «وقعت ثاو في حبّ ميكانيكيّ وتزوّجته السّنة الماضية. وهي حامل الآن».

«أنا آسفة».

«أنا سعيدٌ من أجلها».

بدت هيلين بعيدة عنه لدرجة أخافته وأشعرته أنّه لن يصل إليها، توقّع وكلّه أملٌ أنّها ستعلم بالمحادثات المتخيّلة الّتي أجراها معها في شهور الغياب، وكيف ازدادت الحميميّة في أفكاره.

«نامي وسأعود إليكِ بعد الظهر».

«ابقَ لنتحدّث».

«أظـــنّ أنّه من الأفضــل أن ترتاحي. كونـــي صبورة. طابت ليلتك».

تفاجأت في المؤتمر الصّحافي كم كانت الغرفة ممتلئة بوجوه كثيرة لم تعرفها. كان هناك الكثير من الصّحافيّين الّذين ملؤوا المطاعــم والحانات بغرض الحصول علــى المعلومات. تعرّفت على عدد قليــل من الصّحافيّين المتمرّســين، وعندما انتبهوا إليهــا أتوا ليحيّوها ولم يتفاجؤوا من عودتها. بالنّســبة للّذين لديهم شهيّة كان الأمر ببساطة أنّهم أرادوا أن يكونوا في مكان الحدث.

لأوّل مرّة منذ أشــهر شــعرت هيلين بالانتماء، وأنّها تفعل ما كانــت تجيده، وأنّها مصدرٌ من مصادر صناعة التّاريخ لا القراءة عنه في الأوراق. لكنّها لاحظت عدم وجود أحاديث في الحفلات والتّقارير الصحافيّة عمّا إذا كانوا قد ربحوا الحرب أم خسروها. فلم يعد ذلك الأمر قضيّة كبيرة.

عندمــا عادت إلى مكاتب المجلّة فــي أوّل مرّة، قابلها غاري بعناق كبير وصمت قاس.

«ما بالك؟» قالت.

«لم يكن من المفروض أن تعودي».

«افتقدتكَ كثيرا».

«كاذبة».

«ولين أرسل إليّ رسالة».

«لا تقلقي على لين. لم يكن يضيّع وقته. إنّه نجم المراســلين الجدد لديّ».

«لم يقل شيئا».

«لقــد تغيّرت الأمور.. كوني حذرة، فالوضع يســوء يوما بعد يوم».

ذهب لين وهيلين في جولة إلى (بونغ سون). تاقت هيلين لمغادرة دفء سـايغون. أُعطيتْ أوامرُ لها ألّا تستحمّ بالماء والصابون أو الشّـامبو وألّا تطَع العطر. تمّ اكتشاف الكمائن لأنّ الفيتناميّين يمتلكون القدرة على أن يشمّوا الغربيّين الّذين يضعون العطر من مسافة بعيدة.

أثنـاء التّحضيـرات ذاك الصّباح اشــترى أعضـاء الفيلق غالونات من صلصة السّمك المخمّرة، ضحك لين بعد أن لطّخوا بها ملابسهم الكتانيّة ولباسهم العسكريّ.

أخذ عنصرٌ من الصفّ الأوّل الخاصّ عمره تسعة عشر عاما يدعــى (كربي) كمية كبيرة من الصلصة وضعها على ظهر هيلين وبدأ يفركها. «لو سمحت لي يا سيّدتي؟».

تصرّفــت هيلين بلطَف مــع أنّ الرّائحة أصابتهـا بالغثيان، وســيكون عليها أن ترمي لباســها الّذي صنعه لها الخيّاط بعد ذلك.. ما من غسيل مهما تكرّر يمكن أن يخفي تلك الرّائحة. «ألن يشــكّوا إذا فاحت رائحة صلصة السّمك في جزء من الأدغال؟» سألت. لكنّها شعرت بالحماس والانتباه للمرّة الأولى منذ شهور، وأكسبتها تلك الحملة إحساسا بالحيويّة، واختفى خوفها الواهن في إحساسها الجديد بالثّقة.

«لا. فبعد عدّة أيام ســتكون رائحتنا مثل أيّ شــخص مجند وضيع».

نظرت هيلين باتّجاه لين لترى إن كان سمع.

لكن بدلا من خفة الرائحة أصبحت أكثر نتانة. وتســلّلت من الملابس الكتانيّة إلى جلدها وغاصت في مســامها حتّى غمرتها

بالكامل، ثم ألهتها عن خطر الجولة. أعاد العرَق تنشيط عجينة الصلصـــة حتّى علقت في حلقها وأحرقـــت عينيها، ثم اخترقت شعرها كدخان السَّجائر حتّى صدرتِ رائحتها العفنة منه أيضا.

بعد يومين من الجولة كانوا في عمق الأدغال جالســين تحت قبّة أشــجار المظلّة ليمضوا اللّيل. تمّ توزيع الوجبات والبريد في وقت مبكر، وذهـــب (كربي) إلى هيلين الّتي كانت جالســة على صخرة تحدّق في صحن اللّحم والفاصولياء الخاصّ بها.

«ألســت جائعة؟» قال. كان جســمه نحيلا وملامحه ناعسة لدرجة أنّه من الممكن رؤية الخوف فيها. «أنا جائع طوال الوقت».

قالت: «رائحة السّمك تجعل طعم كلّ شيء سيّئا».

«لن يهمّك ذلك إذا كنت جائعة بما فيه الكفاية».

«أتريد وجبتي؟» جلسا بصمت لدقيقة. «هل حصلت على أية رسائل؟» سألته.

«من والدي».

«هل اشتقت للوطن؟ أنا اشتقت».

«أسمعك وأفهمك بوضوح». قال (كربي) ووجهه مسترخ بعد أن اســتند على ظهره ووضع رأســه على منحنى ذراعه، وأراحه الاعتراف المتبادل بالخوف.

«أحلــم برحلة العودة إلى الوطــن. والفتيات اللّواتي ينتظرن بطل الحرب، والنّاس الممتنّون سيمشــون فــي موكب من أجلي، وستبدو الحياة كواحدة من تلك الإعلانات الغبيّة».

«سيحصل ذلك». قالت هيلين وهي تحرّك طعامها الّذي بدا مقرّزا أكثر «أنت أحد المحظوظين».

نظر إليها وجعد أنفه. «أنت تغيظينني».

«لا. صدّقنــي». لم تُــرد أنَ يعطيَها دورُه الجديدُ تشــجيعا،

لم يكــن الأمر مضمونا. لم تُرد أن تعرف مســبقا ضعف فرص نجاة ذاك الصبيّ الخائف الّذي لا يصلح للأخطار.

«لا أستطيع أن أعرف إن كنت فعلا مخطئة؟» قال.

أعطته غداءها وقالت: «ستكوَن على متن تلك الطّائرة».

نظر (كربي) إلى وجهها لدقيقة ثمّ اقترب أكثر حتّى استطاعت هيلين أن تشــمّ رائحة صلصة السّــمك ممزوجة بشيء من طعم الحلوى. تكلّم بهمس خفيف.

«هل أخبرك شيئا بصفة شخصية؟».

«بالتّأكيد».

تصلّب وجهه. «أنت تعرفين ذلك الحلم الّذي كان مجرّد حلم مثير. وأنــا أعرف أنّ الأمور لن تكون هكــذا. وهذا يقلقني..». توقّــف عن الكلام لدقيقة وبلع طعامه بصعوبة. «ماذا لو تغيّر كلّ شيء؟ ماذا لو ألحقت العار بوالديّ؟ ماذا لو فقدت رجلي وقرّرت صديقتي أن تكون مع أحد أولئك الشّباب الّذين يرون أنّ الحرب فاشلة؟».

أحسّت هي الآن بالخوف بدلا عنه، وقالت: «ستكون محظوظا، محظوظا، محظوظا».

في الصباح التّالي فتحوا غالونا جديدا من صلصة السّــمك وتمّ إعطــاء أوامر لهم أن يمســحوا أنفســهم بهــا. وصلوا إلى طريــق تزويد للمؤن، وظهرت فيه علامات ســفر لم يمض عليه وقتٌ طويــلٌ، فنصبوا كمينا هناك. جعلتها القوّة المجدّدة لَرائحة السّــمك تشعر بالغثيان، ولم تســتطع أن تتناول فطورها. بحثت عن لين وانتظرا سويّا خلف ساتر ترابيّ. كانت قلّة الخوف تجربة جديدة، لكنّها وصلت إلى النّقطة الّتي كادت تشــعر فيها بالملل. قرّرت بعد ســاعة ونصف أن تربط منديــلا حول أنفها، وبدأت

تنقّب في حقيبتها عندما صدر صوت انفجار عال على يسارها.

أغلقت جفونها وسطع خلفهما ضوءٌ برّاقٌ بشكل نجمة البحر تتخلّله عروقٌ ورديّةٌ. كان هناك سكينةٍ في تلك الرّؤية فلم ترد أن تفتح عينيها على الفور.

اتخــذ أفراد الفيلق من حولها وضع القرفصاء ليطلقوا النّار مرّة بعــد مرّة إلى الأدغــال المحيطة حتّى أصبــح الهواء ثقيلا برائحة بارود الأسلحة. أشــار الكابتن إليهم لإنهاء إطلاق النّار، لكن الأمر أخذ دقيقة أخرى ليصل إلى الجميع، ودقيقة إضافيّة حتّى توقّف الإطلاق بشــكل كامل. في منتصف الطّريق رأوا جثّة أحد عناصر جبهــة تحرير فيتنام كان قد أتى إلى الكمين ورمى قذيفة واحدة.

«ضع خرطوما في فمه، سيكون رشاشا مثاليا». قال (كربي).

تمّ كشف المخبأ، واتّصل الكابتن ليتمّ الإخلاء. شعرت هيلين برنين في أذنيهــا، وعندما تحرّكت لتقف شــعرت بألم خفيف. حاولت أن تســتند على ركبتيها ومال رأســها بقوّة إلى اليســار وشــعرت بسائل دافئ يرطّب حضنها. مدّت يدها ولمست معدتها بحذر بينما كان المسعف يفحصها.

«أوه». قالت بشرود كأنّها وضعت شيئا في غير مكانه.

تمّ وضــع الكمّادات والضمادة، وهي مســتلقيةٌ على ظهرها فــي الطّين وواعية لصمت كلّ الرّجال من حولها. كانت في ذلك اليــوم متأكدة أنّها لا تُقهَر حتّــى بدا لها أن تعرّضها للأذى نكتة ســخيفة. عادت إلى رأســها كلّ التّحذيرات الّتي سمعتها مرارا وتكرارا ورؤية النّساء الجرحى التي أضعفت معنويّات الرّجال.

«أنا بخير». قالت للمســعف. «إنّه مجرّد خدش بسيط، حان وقت الاحتفال».

انتشـــر تأثير المورفين في أجزاء جسمها، وأحسّت بجسدها يمتــصّ الصّدمة ويعود لتوازنـــه. أخافها فهمها لما يحيط بها مع عــدم قدرتها علـــى الاهتمام بالنّتيجة. أثنـــاء وجودها الأوّل في البلد كانت مهووســـة بالتّعرّض لـــلأذى، لكن هذه المرّة لم يخطر ذلك الاحتمال ببالها أبدا.

شـــعرت أنّها منيعةٌ بحزنها. كان صـــوت النّقالة الّتي حملتها إلى المروحيّة مؤلما لكنّه بعيدٌ كلّ البعد عنها. آخر شيء رأته بعد أن حملوهـــا كان وجه (كربي) المخـــدوع. أيّ كاهن هذا الّذي لم يتمكّن من التنبّؤ بنهايته؟

أمســـك لين يدها، وحاول أن يبقي علـــى انتباهها كأنّه يلفّ خيط طائرة ورقيّة تواصل الابتعاد. «هل أنت بخير؟».

«حظٌّ سيّئٌ». قالت «في أوّل مرّة نخرج فيها».

«أظنّ أنّه خدشٌ فقط». قالها آملا أن تكون تلك هي الحقيقة. لكنّ كليهما خاف ألّا يكون الأمر كذلك.

كانت العمليّة الأولى في المستشـــفى الميدانـــي ناجحة، ولكن أصابتها الحمّـــى في تلك اللّيلة، ومع الصبـــاح التّالي عانت من نزيـــف داخليّ، وتمّت إعادتها ســـريعا إلى غرفـــة العمليّات بعد أن فقـــدت وعيها عدّة مرّات. كلّ ما اســـتطاعت أن تتذكّره أنّها اســـتيقظت مترنّحة بعد العمليّة الجراحيّة، وكانت الممرّضة تهزّ رأســـها وهي تقول إنّ الأمور يجب ألا تحدث بهذا الشّكل، والآن الجرّاحون كانـــوا جزّارين وغير معتادين على إجـــراء العمليّات للنّساء. مع ذلك، لاحقا عندما استعادت وعيها بشكل كامل، جاء طبيب إليها وأمســـك بيدها ليخبرها أنّ عملية استئصالِ الرّحم أوقفت النّزيف وأنقذت حياتها، مسح وجهه وقال: «لقد كانت ليلة طويلة». ثمّ غادر وبقيت وحيدة تســـمع صوت صخب المروحيّات

القادمة والأنفاس المرهقة البطيئة للجرحى في الأسرّة الّتي حولها.

عندما أتى لين، أحنى رأسه وقال: «أنا آسفٌ..». واختفى كلّ الارتباك الّذي ظهر بينهما منذ عودتها.

«لقد نجوتُ». أجبرت نفسها أن تكون رابطة الجأش وغير مبالية لأنّها لا تستطيع أن تحتمل شفقته.

«كان يجب أن أكون مكانك».

«أن تكون مَن تعرّض للأذى هو شيء أكثر سهولة من أن تشاهده».

عندما استعادت قواها وأصبح بالإمكان تحريكها تمّ تحويلها إلى جناح الباطنيّة في مأوى سفينة الولايات المتّحدة على السّاحل. امتدّت فترة الشّفاء لأكثر من شهر بجرح بطيء التّعافي. أنّب الأطبّاءُ على المركب المسعفَ لأنّه لم ينظّف إفرازات الجرح بشكل أسرع. كان لين يزورها بشكل يوميّ، وكانت رائحة اللّحم المتعفّن ثاقبة جدا في الجناح، لدرجة أنّه أخذ معه حبّات ليمون وقطعها إلى نصفين ليقرّبها إلى أنفه ويعصرها على يديه قبل وبعد الزّيارة.

بعد أن استجمعت قواها لتغادر المكان أخذها هو وغاري إلى شقّتها في تشولون. كان من الأسهل أن تقيم في الكونتيننتال لكنها ألحّت على أن الهدوء أكثر في تلك الشقة.

«لا أعرف ما الّذي ترينه في هذا المستنقع؟» تذمّر غاري. «سأجعلهم يرسلون إليك الوجبات من الفندق».

نظر لين وهيلين إلى بعضهما وضحكا.

«ما المضحك؟».

«الجميع يعرف أنّ هذا مركز الكون».

كان عند لين رفٌّ واحدٌ من الكتب أعطاه إيّاه دارو. أخذت هيلين أحدَ الكتب بغلافه الواسع وصفحاته المنتفخة والمتموّجة بفعل الرّطوبة، فتحت صفحة عشوائيّة ومن دون تركيز تبعت خربشات دارو على الهوامش والمقاطع الّتي وضع تحتها خط. وجدت في كتاب (لتاسيتوس) المقطع الآتي:

(يوجد بالتّأكيد رعبٌ وخوفٌ، يمكن أن تمحوها روابطُ اتّصال ضعيفةٌ، وأولئك الّذين توقّفوا عن الشّعور بالخوف سيبدؤون بالشّعور بالكراهيّة. كلّ حوافز النّصر ستكون إلى جانبهم. لم يكن لدى الرّومان زوجات لإيقاد الشّجاعة في قلوبهم ولا أبوان ليسخرا منهم إذا هربوا، والعديد منهم لا بلاد لديهم، ولا أحد لهم في مكان بعيد. قليل عدد أولئك الّذين أخافهم جهلهم لينظروا إلى السّماء والبحر والغابة الّتي كانت كلّها أماكن غير مألوفة بالنّسبة إليهم، أصابهم التردّد والتخبّط كما لو أنّهم وقعوا صيدا في أخد الشباك، سلّمهم الله إلى أيدينا. وبين صفوف العدوّ سنجد قوّاتنا).

أغلقت الكتّاب بسرعة. كانت تلك طريقة تعاملها مع الكتب الآن حيثَ كانت تنغمس في المقاطع كما لو أنّها أنهارٌ جليديّةٌ شديدةُ البرودة ولا يمكن تحمّلها لوقت طويل. لم تستطع أن تتخيّل قراءة كتاب من أوّله إلى آخره، كانت فكرة السرد قديمة وطريفة مثل كوب شاي دافئ في هذا العالم الجديد المتكسّر.

لم يكن ذاك كتابا من أفضل اختياراتها، لكن بالنّسبة لدارو بدا أنّ ذاك الكتاب لا يزال قيّما.

لكنّ شيئا ما في المقطع جعلها تفكّر بالتّشابه الواضح بين ما جاء فيه ووضع الجنود الأمريكان، بل جعل تفكيرها يذهب باتّجاه لين، فمنذ عودَتها وجدت نفسها تتساءل عن حاله في أغلب

الأوقـــات وتفكّر فيه. ألم يكـــن لين دون زوجة أو عائلة فيما عدا الظّهـــور القصير والغامض لثاو؟ ماذا حدث؟ لم يتكلّم عنهم أبدا رغم أنّ هيلين أعطته فرصا عديدة أخبرته فيها عن عائلتها. لين كان في بلده لكنّه لم يكن جزءا من ذاك الوضع السـيّئ. تساءلت أيـــن قلبه؟ كيف يمكن للمرء أن يرضى عن نفســـه بأن يكون مع طـــرف ثمّ مع الآخر؟ ماذا جال فـــي تفكيره عندما خوّنه الجنود الأمريكان؟ أو ما هو أســـوأ عندما عذّبـــوا الفيتناميّين؟ ألم يكن لديه أشياءٌ مشتركةٌ أكثر مع أبناء بلده حتّى لو كانوا من الأعداء؟ ماذا كان شـــعوره عندما ســـمع كلمات مثل الجنـــود العفنين أو أصحاب العيون المائلة؟ وفي النّهاية من سيكون المنتصر بالنّسبة له؟ ربّما النّصر الوحيد الحقيقيّ لأيّ منهم سيكون السّلام.

ابتعدت لإحساســـها بالذّنب عندما دخل مـــن الباب حاملا طعام الغـــداء، وأوقعت الكتاب من يدها وكأنّه قد أوقع بها وهي تفعل شيئا خاصّا أو منغمسة في لذّات شخصيّة.

كان لـــين يُحضر شـــيئا كلّ يوم ليجذب انتبـــاه هيلين؛ ففي أحد الأيّام أحضر ثمار الدّيوريان الفوّاحة كالجبن النّاضج، وفي اليـــوم التّالي أحضر صندوقا من البخور ثمّ حصوة نهريّة ملوّنة. كانت تشـــعر بمتعة طفوليّة في الأشياء الجديدة وتنتظرها بتوق. اشترى تســـجيلات موسيقيّة كلاســـيكيّة فيتناميّة استمعا إليها عند المســـاء. وفي إحدى اللّيالي كانـــا يلعبان الورق عندما قالت هيلين إنّها متعبة.

«أتريدين أن تنامي؟».

«احك لي قصة».

وبدأ لـــين يروي كلّ الحكايـــات الخرافيّة الّتـــي تعلّمها منذ صغـــره. وعندما نفـــدت حكاياته أحضر قصيـــدةَ حكايةِ (كايو)

الملحميّة، وترجمها لها صفحة صفحة، وقال إنّ هذه الحكاية من أحبّ الحكايات الفيتناميّة. بدأ كل منهما يفهم الآخر خلال تلكَ الأسابيع بطريقة لم تكن متوفّرة لهما قبلا، ودون أن يخبرها، في إحدى اللّيالي قرأ على مسامعها بصوت عال المسرحيّة الّتي كتبها له (ولماي) وهي الأخيرة الّتي أدّياها سويّا. وعندما أنهى قراءته سكنت هيلين للحظة.

«هذا جميلٌ جدا. ما اسمها؟».

«ليست معروفة كثيرا».

«من المؤلّف؟».

قال بتردّد: «أنا».

«لم يكن لديّ فكرةٌ عن قدرتك على الكتابة».

«كنت أحلم في السّابق أن أصبح كاتب مسرحيّات».

أومأت هيلين: «كان بإمكانك أن تكون كاتبا جيّدا. وما زال بإمكانك ذلك».

«هذه الأشياء غير مهمّة في الحرب».

«ربّما هي مهمّةٌ في وقت الحرب أكثر من أيّ وقت آخر؟».

«ربّما؟».

«هل كتبتَ قصصا أخرى؟».

كانت المرّة الأولى الّتي يُظهر فيها لين كتاباته بدءا من الدفتر الحلزونيّ الّذي أعطاه إيّاه دارو في إنغكور. وفي كلّ ليلة كانا يتناولان الطعام ثمّ تستمع هيلين إليه. لم يشعر لين باهتمام أخّاذ مخدّر منذ وقت طويل. عندما شارفت الصّفحات على الانتهاء بدأ بالكتابة من جديد. وبهذه الطّريقة، عاد إلى حياته الحقيقيّة.

تعافت بعد شهر حيث أصبح بإمكانها أن تبقى وحدها.

وأصبح لـين يغيب لفترات أطـول ليتابع المهمّـات الموكلة إليه. وفـي أحد الأيّام، مع أنّـه ترك لها طعامـا أرزًا محلّى وبرتقالا طازجـا وبرتقالا هنديّا قبل أن يذهب، لكنّها تاقت إلى طبق حارّ مـن المعكرونة الفيتناميّة. تحمّلت أثناء وجودها في المستشـفى حمية مخصّصة مؤلّفة من طعام نشويّ مدهن فقط مع البطاطا المهروسـة. بعد اسـتلقائها على السرير سـاعة بعد ساعة زاد هوسـها بفكرة الحسـاء اللّاذع، واقتنعت أنّ طبقـا واحدا منه سيعيد إليها قوّتها.

لـم تُرد أن تعترف أنّ السـبب الحقيقـيّ لانقضاضها على كشك بيع الحساء يمكن أن يكون أنّها لم تُرد أن تختلي بأفكارها. لقد حدثـت الإصابة وعمليّة اسـتئصال الرّحم بسـرعة كبيرة جـدّا، ولم تتعامل مع عواقب تلك الحادثة. كانت تتمنّى أن يكون لديها أطفالٌ في المسـتقبل البعيد لكنّ هذا الخيار لم يعد متاحا لها الآن. تجنّبت الكتابة لأمّها عـن الأخبار الّتي تُظهر ما فعلَتْه بمسـتقبل العائلة. لكن حتّى الحزن بـدا تصرّفا مُترَفا أمام كلّ هذا الموت الّذي يحيط بها، موت العديد من الأطفال والعديد من الآباء والأمّهات. كان حزنها يبدو قليلا في محيط تلك الأحزان.

ارتدت هيلين ملابسـها بحذر مع الألم الّذي كان يطعنها في معدتها في كلّ حركة. واسـتخدمت عكّازا لتنـزل الدّرج خطوة خطوة. أصبح من الواضح لها عندما وصلت إلى منتصف الدرج أنّهـا أخطأت بالخروج لكـنّ رغبة خالصة حثّتهـا على المتابعة كجنـديّ ينفّذ أحد الأوامر، وأن أكثر ما يهمّه هو عدم الاعتراف بالهزيمة. تشـكّل العرق على جبهتها وارتعشـت قدماها كأنّهما يتوعّدانها بالانزلاق من تحتها. أمسـكت بالعكّاز بقوّة واستندت على الجدار، فمن الممكن أن تسـبّب لنفسـها الأذى إذا سقطت

عن الدرج وكُسـرت رجلها، حيث سـتبقى محاصـرة في بيتها لساعات. زالَ تأثير المسـكّنات لأنّها منعت نفسها من أن تتناول كميّـة كبيرة منها لقلقها من الآثـار الجانبيّة كالدّوار، حتّى تعود مـن نزهتها. كانت تفكّر أن تتنـاول حبّة واحدة حين عودتها إلى السّرير بعد أن تكون قد ملأت معدتها بالحساء. أسندت نفسها علـى كلّ درجة من الدرج وهي تلهث حتّى وصلت في النّهاية إلى باب بوذا الموجود في الأسفل.

لاحظـت عند نهاية الدّرج المظلم أنّ الخشـب الخلفيّ للباب كان قد صار أسـود بسبب الأكسدة. وفي أحد الألواح كان هناك شقٌّ صغيرٌ بحجم شعرة يمرّ من خلاله ضوء الشّمس. بدا الباب سـليما وغير مكسور من الخارج، والأمر الّذي جعلها تلاحظ كل هذه الأشياء هو الفراغ الكبير الذي كانت تحس به.

وفي الشـارع أعاقها اشتداد الحرّ وضوء الشّمس من جديد لكنّها استطاعت أن تمشي على الأرض المستوية.

عانت في الوقت الّذي عبرت فيه الزّقاق إلى الشّارع الرئيسيّ الّذي كان فيه كشـك بيع الحساء. كان جسدها كلّه يهتزّ من آثار الألم والإعياء.

تعرّفت عليها بائعة الحسـاء، وقدّمـت لها المقعد الفارغ، ثمّ بدأت بصنع الحساء بالطّريقة الّتي تفضّلها هيلين؛ حيث وضعت الكثير مـن الفلفل وصلصـة الصويا، لكنّها عندمـا قدّمت لها الطبق، انحنت هيلين وبدأت ترتجف ولم تستطع أن تحرّك شيئا إلّا رأسها.

نظرت العجوز إلى وجهها لدقيقة ثمّ نادت ابن أخيها الصّغير الّذي كان يعمل لديها فانطلق مسرعا.

بعد نصف سـاعة عاد الصبيّ في سـيارة أجـرة. نزل منها

لين وقد ترك باب السيّارة مفتوحا دون أن يدفع الأجرة للسّائق، وركض إلى خلف العربة حيث كانت هيلين متكوّرة على بساط تحت ظلّ مظلّة العربة. نزل على ركبتيه ووضع يده على جبهتها.

«هل أنت بخير؟».

«أشعر بَدوار، لم يكن يجب عليّ أن أنزل».

«أتستطيعين الجلوس؟».

تحرّكت هيلين برفق خوفا من أن يتمزّق جرحها الدّاخليّ، وجعلها جهد الحركة تصرّ على أسنانها وهي تتكلّم لعدم قدرتها على استخدام ساعدها، فانزلقت من جديد على الأرض وغمرتها موجةٌ سوداء تأتي وتذهب.

«أيمكنك أن تضعي ذراعيك حول رقبتي؟».

جهدت نَفسها في أن تنهض مركّزة على وجه لين. أومأت له. رفعها كما لو كانت مكسورة وحملها على طول الزّقاق. أراحت هيلين رأسها على كتفه وشعرها يطير حول معصمه.

عرف أنّ للجسد ذاكرة خاصّة به. فهيكل الطّفل بين ذراعَي الإنسان يبقى محفورا للأبد، وشكل ذقن الحبيب يبقى. أما وزن هيلين بين ذراعيه فقد حطّم قلبه. تمنّى أن تكون رحلة العودة إلى الشقّة أطول بعشر مرّات أو بمئة مرّة، وتمنّى لو تمكّن من حملها والسير بها طوال اللّيل وطوال النّهار، وتابع المشي.

تمنّى أن يكرّر الرّحلة حتّى تنتهي بنتيجة مختلفة. كان سيموت ماشيا وهو يشعر بالسعادة، عرف أن تلك الرّغبة كانت خاطئة لكنّه استمرّ بالنّظر إلى وجهها.

مع نزع غطاء الطّاولة البلاستيكيّ أعلنت العجوز عن إغلاق كشكها هي والصبيّ وسائق السيّارة، الّذي أغلقها وأخذ المفاتيح ومشى مبتعدا وهو يصرخ في النّاس لكي يتنحّوا جانبا. تورّط

الصبيّ في الحدث أيضا والعجوز أصابتها الصدمة والسائق كان يريد أجرتـــه. وعندما وصلوا إلى المبنى فتحت العجوز باب بوذا وتبعتهـــم إلى الأعلى مع أنّ رجلها المصابة منعتها أن تســـبق لين الّذي كان يحمل ثقلا. عندما اســـتلقت هيلين على غطاء السّرير الأخضر بلون النّعناع أبعدته العجوز وأغلقت السّـــتائر الّتي بين الغرف وساعدت هيلين أن تغيّر ملابسها وتغسل وجهها. لم يكن للرّجال مكانٌ هناك حتّى لو كانت هي من تلك النّســـاء الغربيّات المتحرّرات.

ذهب لين إلى الباب ودفع للسّـــائق. وكان في غمرة قلقه قد نسي هذا الأمر حتّى قام السّائق بتذكيره. وبعد نصف ساعة بدأ تأثير مســـكّنات الألم يفعل فعله، وبدأت هيلين ترتاح. عرض لين المال على العجوز لكنّها رفضت.

أدارت هيلين رأســـها بنعاس، وقالت بالفيتناميّة: «شـــكرا يا جدّتي. وداعا».

ابتســـمت العجوز ابتسامة أظهرت سنّها الأسود وسألت لين: «هل بإمكانها أن تتحدّث الفيتناميّة؟».

«نعم لكنّي لا أجيدها». أجابت هيلين.

هـــزّت الجدّة رأســـها بذهول وأخبرت ابـــن أخيها أن يذهب ليحضر بعض الشّاي. «عليّ أن أقرأ طالعك يا ابنتي».

عبس لين، فقد فضّل أن يكون وحيدا مع مشـــاعره الجديدة على أن يكون مع عجوز تؤمن بالخرافات. «ليس الآن، هي متعبةٌ وهي لا تؤمن بتلك التّرهات».

قالت هيلين: «لا بأس دعها تفعل».

نظـــرت إليه الجدّة نظرة نصر: «صحيـــح أنّها أجنبيّة لكنّها تمتلـــك حكمة أكثـــر ممّن ولدوا هنا». نظرت فـــي أرجاء الغرفة

وهـــي تنتظر ورأت طبقا على الطّاولة الّتي عليها حليّ من قلائد وأقراط.

بعد أن صبّت الشّـــاي، نظرت هيلين إلى العجوز وهي تحمل كأســها وتحــدّق داخله عابســة ثمّ ذهبــت إلى النّافــذة ورمت محتوياته في الحديقة الموجودة أسفل المبنى. «هناك من يحبّك، عليــك أن تكوني حذرة فهذا الحبّ قد يســبّب لذاك الشّــخص بعض المشكلات».

شرد ذهن هيلين ولم تقل شيئا.

«قلت لك إنّ كلّ كلامها غير منطقي». قال لين، ثمّ اســتدار باتّجاه الجدّة وقال: «لنوفّر لها بعض الهدوء لتنام».

«لا هي على حقّ». قالت هيلين. «ربّما الطّالع بالنّسبة للغربيّين يتضح فقط بعد ظهور الحقيقة. أي بشكل عكسي».

«هذا اللّغو يبقي هذا البلد متخلّفا».

حدّقــت العجوز في لين بقــوّة وقالت: «أنا ذاهبــةٌ». لقد كان صعــب المراس، لكنّها لم تخف منه على الرّغم من قوّة الشّــائعات الّتي تكلّمت عن ارتباطه بجبهة تحرير فيتنام وزعيم المخدّرات باو.

نادتها هيلين: «ما اسمك؟».

قالت الجدّة شــيئا لم تتمكّــن هيلين من فهمه، ولين يضحك ساخطا بينما يرافقها إلى الخارج.

«ماذا قالت؟».

«قالت إنّها الجدة ســونغ الّتي ســتحضر لك الحساء كلّ يوم لكي لا تكسري رجلك وأنت تنزلين الدّرج».

وفّــت بوعدها في كلّ يوم، كانت الجــدّة تعبر الزّقاق وتصعد الدّرج بنفســها وابن أخيها يحمل قدرا مغطّى من الحساء، وهي تحمل جريدة تلفّ فيها أزهارا حصلت عليها من ابنة أخيها الّتي

كانت تعمل في السّوق. سمع الجميع بقصّة الصّحافيّة الأمريكيّة الّتـي خاطرت بحياتها من أجل طبق من حسـاء سـونغ، ومهما طالت زيارتها لكشـك العجوز كان هنـاك دوما صف من النّاس بانتظارهـا. لقد ازدهرت تجـارة العجوز. نشـر أحد الحمقى إشاعة أنّ الحساء يحتوي على عشبة طبيّة تعيد الخصوبة، وهذا هو السـبب الّذي جعـل الأمريكيّة ترغب به بشـدّة. كان العمل مزدهرا لدرجة أن العجوز فكّرت بفتح كشـك آخر على بعد عدّة أبنية لكـي تتمكّن من التّعامل مع المتهافتين على حسـائها. كان للحظّ تقلبات غامضةٌ.

جلسـت لوهلة فوق الكرسيّ الموجود بجانب النّافذة المفتوحة ورجلاها منفرجتان في بيجامتها الواسـعة، وقدماها المتصلّبتان ممتلئتـان بالغبار في صندلها. تبادلت هي والعجوز الجمل ذاتها كأنّهمـا تقولانها للمرّة الأولى. أحسّـت الجـدّة بالإهانة عندما تلقّت إكراميّة فوق ثمن الحسـاء، لكنّها لم تعارض تلقّيها لهدايا كعلب سجائر أمريكيّة في بعض الأحيان.

أشـارت العجوز بإصبعها إلى القلائـد الموجودة على الطّاولة وجرّيتها أمـام المرآة. وفي مرّة عندما لم تكن هيلين منتبهة فكّرت العجوز أن تأخذ سلسـلة ذهبيّـة صغيرة، لكنّ هيلين اسـتدارت وعرضت عليها القلادة إذا كانت ترغب بها. ربّما كانت هي الأمريكيّة الوحيدة الّتي كانت خارج السّـجن والفيتناميّـون في الدّاخل كما يقال. وضعت الجدّة القلادة في مكانها بسـرعة وشـعرت بالعار. كان الأمر ردّة فعل لعادة سيّئة وهي استغلال الأجانب.

فـي الأيّـام الّتي كان فيها لـين بعيدا كانت الجدّة تسـخّن الماء للشّـاي وتصبّه لهيلين. كانت تعبـس كلّ مرّة تنظر فيها إلى محتويات الكوب، كان القَدَر هو ذاته في كلّ مرّة.

«لا.. لا أريد أن أعرف المستقبل ولا الماضي». قالت هيلين.
أومأت الجدّة وقالت: «أنا أتكلّم عن المستقبل».
«لكنّ الرّجل الّذي أحبّني مات».
امتعضت العجوز ونهضت «هذا الرّجل موجودٌ الآن».
عندما عاد لين إلى الشّقة ووجد أزهار الجدّة تجمّدت ملامح وجهه. أخرجها من المزهريّة ورماها من النّافذة.
«ماذا تفعل؟» قالت هيلين.
«الأزهار تسبّب لي العطاس».
لم تقل هيلين شيئا. وعندما أتت الجدّة في اليوم التّالي توقّفت وحدّقت في الأزهار المرميّة المتناثرة على قرميد الحديقة. وفي اليوم الذي يليه أحضرت زهورا صفراء، فوضعتها هيلين في قارورة إلى جانب سريرها. رآها لين حالما دخل الشقّة. فأمسك الباقة وسحق تويجات الأزهار ثمّ رماها في مجمرة الفحم وأشعل النّار فيها مستخدما أعواد الثّقاب.
«لا تقل إنّ لديك حساسية من أوراق الورد؟».
«قولي لها ألّا تُحضر الأزهار ثانية». قال بوجه عابس وتابع: «لا تتعبي نفسك، سأقَول لها أنا ذلك».
«أخبرني ما الّذي يجري؟ ما خطب الأزهار؟».
أطفأ آخر الجمرات المشتعلة «لن تفهمي.. إنّه شيءٌ خاصٌّ بالفيتناميّين».
«هذا ما تقوله دائما».
«اسأليني عن أيّ شيء آخر».
جلست هيلين على السّرير وفكّرت. كان وجهها متّقدا بابتسامة خفيفة «توجد إشاعاتٌ تقول إنّك تعمل مع (هوتشي

منه) وإنّك جاسـوسٌ، وهـذا ما يجعلك تختفـي وتغيب. وذاك الرّجل الرّهيب الّذي كنت معه، باو. إلى أين ذهبتما؟».

أجاب أخيرا: «الأمر أكثر تعقيدا ممّا تظنّين».

«اشرحه لي إذا».

«أحيانا من الممكن أن يشـكّل ماضي المـرء صعوبة في فهم حاضره. أنا أحبّ الأمريكان لكنّي لا أعرف إذا كانوا صادقين مع الفيتناميّين أم لا. أريدهم أن يبقوا وأن يغادروا بالقدر نفسـه». أخذ لين نفَسا عميقا ثمّ هزّ رأسه. كيف بإمكانه أن يجعلها تفهم؟ إنّ علاقته معها ومع كلّ الأمريكيين كانت حقيقيّة وفي الوقت ذاته مزيّفـة أيضا. أرادها أن تغادر لكنّـه أغراها بالعودة من جديد. ذاك الازدواج الّذي في داخله مشـابه لعلاقـة والده المعقّدة مع الفرنسيّين. كيف لها أن تفهم؟ على الرّغم من كلّ الصعوبات التي واجهتهـا كانت لا تزال ترى العالـم من خلال أصحاب الامتياز. كيف كان لها أن تفهم معنى أن تكون دخيلة؟ خاصّة في بلده. إنّ الأمريـكان في تفاؤلهم دعموا الطّـرف الخاطئ؟ وهو طرفٌ لن يستطيع الاستمرار من دونهم.

بعد شفاء هيلين بشكل يسمح لها بالعودة إلى العمل أوكَل غاري إليها مهمّة متابعـة (لان) الّتي تمّت إعادتها إلى عائلتها من جديد. تجنّبت رؤية الفتاة لكنّها الآن اشترت لعائلتها الملابس وأدوات الطّبخ وهي أكثر الأشياء قيمة عدا عن الطّعام بالنّسبة للعائلة. أبعدت عن نفسها فكرة إعطاء الرّشوة. أما الطّفلة فقد اشترت لها كاميرا آليّة بسـيطة والكثير من الأفلام. بدأت الخطّـة تتضّح في رأس هيلين؛ وهي أن تحضر الفتاة لتعيش معها في شـقّة تشـولون لتكون أقرب إلى المدارس ومراكز العناية الصحيّة. فأثناء الحرب كان شائعا عند العائلات أن يعطوا الأطفال للّذين يمكنهم المساعدة.

لم يوافق لين على سـفرها إلى الرّيف لقلقه من صعوبة الأمر عليها جسـديّا. تناقش مع غاري حـول المهمّة، وغاري نظر إليه بدهشـة لكنّه لم يقل شـيئا. لم يدرك مدى تورّط لين في تحمل مسـؤوليتها. «لم تعد مسـؤولا عنها الآن، والأمـر يعود إليها إن أرادت الذّهاب أم لم ترد. أنت أو هي.. لا يهمّني من ينفّذ المهمّة. لقـد قدّم النّاس التّبرعات ويجـب أن نتابع الحملة من أجلهم». استسلم لين إثر إصرار هيلين على الذّهاب.

كان مسـتاء على متن الطّائرة «تجيبين عن السؤال الآن، لماذا تصرّين على فعل ذلك؟».

كانت هيلين متعبة من تسـاؤلاته «هذا هو سبب وجودي على قيـد الحياة، وهو ما يعطيني دفعـا لأصحو كل يوم في الصّباح. أيرضيـك هـذا الجواب؟ نعم يجب أن أكون أنـا من يفعل ذلك. فالمرأة ترى الحرب من زاوية مختلفة».

وصـلا إلى قرية العائلـة في مقاطعة (كوانغ نـام) ليجداها محترقة بشـكل كامل. ولا يوجد أيّ سجّل عسكريّ عن إخلائها. اكتشف لين اسم القرية بالمصّادفة عندما مشى بين بقايا البيوت المحترقة ووجد على الأرض إشـارة خشبيّة صغيرة مكتوبا عليها بالفيتناميّة (هنا كانت قرية كوانغ نام).

لم يرَ لين خلال السّنة الماضية إلّا الدّمار في بلده يتسارعُ ويتسـارع في أجزاء أكبر وأكبر. لم يسـتطع أن يشرح لهيلين شـعور المرض واليأس الّذي كان يسبّبه له ذلك. لم يستطع أن يعبّر عن الفكرة اليائسة الّتي كانت تتمنّى وجود أيّ شيء يوقف هذا الدّمـار. ما لم تتمكّن من فهمه هو أنّ كلا الطّرفين كانا على استعداد أن يدمّرا البلد ليحقّقا غاياتهما. إلى جانب مَن كان هو؟ كان إلى جانب مَن ينقذ الرّجال والنّساء والحيوانات

والأشجار والعشــب وقمم التّلال وحقول الأرزّ. ذاك الجانب الّذي بإمكانه إنقاذ القرى والأطفال، والّذي بإمكانه التّخلّص من السّــموم الّتي ملأت الأرض. لكنّه لم يعرف أيّ جانب كان ذلك.

عندما تواصلا مع القيادة العســكريّة في فيتنام بمقرّها في (دانانغ)، تمّ توجيههما إلى موقع آخر تمّ إرســال القرويّين إليه. بعد يوم آخر من الرّكوب في سيّارة الجيب عابرين الطّرقات اللّينة وقفت هيلين أمام أحد السّــجون المقفلة.. يملؤها الألم والغبار. كان هناك قرويّون من مناطق مختلفة يتجمعون ســويّا ويعيشون على أرض مفتوحة تحت أغطية الخيام لمدّة تفوق الشّهرين، كانوا من دون عمل يضطرّون إلــى أن يقفوا في صف ليتلقّوا معونات الطعام من الجيش.

لم يكن هناك ســجلّ عن عائلة (لان)، لكن بعد تفقّد الأجزاء الّتــي انعزلت ذاتيّا مــن قراها الأصليّة، وجــد لين أحد جيران العائلــة، ومقابل عدّة دولارات عرف لين أنّهم هربوا مبكرا لأنّهم لا يثقــون بالجيش الأمريكيّ، فانتقلوا إلى مقاطعة (كوانغ نغاي) المجاورة. «إنّهم أذكى منّي». قال.

«قالوا إنه لا شيء يأتي مجّانا».

ســافر لين وهيلين لمدّة أســبوع من قرية إلى قرية على طول الطّرقات المليئة بالمطبّات، وكانت الأيام تمرّ دون أن يكون الحظّ حليفهما. كانا يســمعان في بعض الأحيــان أجزاء من الحقيقة وفي أحيان أخرى يســمعان بالكذب أنّ العائلة كانت منتمية إلى جبهة تحرير فيتنام واختفت في نواحي الشّمال، وأنّ رجل الفتاة قد نمت من تلقاء نفســها بشــكل ســحريّ، أو أنّ الفَتاة ماتت، أو أنّ الأم هربت. كانت الشّــائعات تتســلّل إليهمــا واحدة بعد

الأخرى حتّى امتلأ رأساهما باحتمالات عديدة، كما كان الغبار يهبّ على الوادي والأرض المنبسطة في كلّ يوم.

«ما الفرق؟» سأل لين «إنّها مجرّد فتاة أخرى».

لم تجب هيلين عن ذلك السّؤال، إنّ الطّفلة كانت مهمّة بالنّسبة لدارو. لكن كان هناك سببٌ آخر. عندما كبرت الحرب أكثر ازداد إحساسها بالعقم أكثر. منذ عودتها لم تكن قادرة على التّركيز على تجربتها إلّا بالتّركيز على جنديّ واحد فقط في كلّ مرّة أو على طفل واحد أو قرية واحدة فقط. كانت تلك طريقتها في سرد قصصهم.

بعد أن طال البحث، أضعفتها قسوة السّفر وسوء الطّعام. قلق غاري من تأخّرهما فاتّصل بهما طالبا منهما أن يستسلما ويعودا إلى سايغون لكنّها رفضت. اعتمدت على معرفة لين بالبلد لتكتشف الحقيقة. كانت عيناها تترجاه، أخبرني، فشرع قرويٌّ آخر بسرد قصّة مختلفة تماما، لم تعرف ما عليها أن تصدّقه وما عليها أن تتجاهله.

قلق لين ممّا كان سيحدث إذا لم يجدا الطّفلة، وقلق أيضا ممّا سيحدث إذا وجداها.

في كشك لبيع الشّاي على طرف الطّريق تكلّم مع رجل عن عجلة درّاجته المثقوبة، واكتشف أنّه أحد أقرباء أمّ (لان). دلّهما الرجل على أن يذهبا إلى قرية على بعد ساعة باتّجاه الجنوب. بدا أنّ هناك خلافا في العائلة يخصّ المال. ذهبا إلى القرية وبعد أن سألا اكتشف لين أنّ أكبر البيوت وأكثرها ترفا يخصّ عائلة (لان).

عندما طرقا الباب استقبلتهما فتاةٌ صغيرةٌ تحمل مكنسة. كانت أمّ (لان) في الخارج تنجز عملا ووالدها كان مشغولا في

اجتماع في غرفة الطّعام. طلبا منهما أن ينتظرا. عندما جلسا على مقعد في الحديقة دخل العديد من النّاس وخرجوا وهم ينجزون المهامّ الموكلة إليهم. خرج الأب بعد نصف ساعة وهو رجلٌ قصيرٌ بأرجل منحنية وأيد خشنة كأيدي أي مزارع وصافح لين.

«نوّد أن نقابل (لان)» قال لين.

«حسنا حسنا. لكن هل ستكون هناك هدايا؟».

«لدينا أشياء سنقوم بتوزيعها. هل أنت بخير» لوّح لين بيده حول البيت.

نظر الأب إلى البيت ونفخ شفتيه. كان يرتدي ساعة ذهبيّة واسعة حول معصمه «العمل متعبٌ وأنا مشغولٌ جدّا، ستأخذكم الفتاة إلى (لان)».

غادر الأب وعادت الفتاة الّتي تحمل المكنسة وأخذت الأغراض من هيلين ثمّ دلّتهما على الغرفة. كانت (لان) جالسة على الأرض وحولها مجموعةٌ من الألعاب وفتياتٌ أخريات جالسات حولها يرتدين ملابس بلون واحد، لكنّ (لان) كانت ترتدي ثوبا أسود من الحرير اللّامع وفردة حذاء من الجلد الأسود ورجلها الصّناعية غير موجودة.

«(لان)» قالت هيلين.

نظرت الفتاة في حيرة. كانت قد ازدادت وزنا وقماش الثّوب مشدودٌ حول بطنها.

«أتذكرينني؟ أنا هيلين؟».

أومأت الفتاة وقالت: «لم تحضري لي الكاميرا».

«أحضرتها لك اليوم».

توهّج وجه الفتاة «لنرَ».

أخرجتهـــا هيلين وأعطتها إيّاها، لكـــن بعد أن ألقت الطفلة نظرة سريعة عليها وضعتها أرضا لأنّها لم تعجبها.

أتت الخادمة وأحضرت معها مشـــروبات غازيّة وبسكويتا مع زبدة الفول السّـــودانيّ. اســـتخدم والدا (لان) الأموال الّتي أتتها من المجلّة والمعونات ليؤسّســـا أعمالا كانـــت بادئة بالازدهار في اقتصاد السّوق السّوداء. عندما سأل لين عن الأقارب الموجودين فـــي المخيّم قالت الخادمة إنّ الأبوين غضبـــا عندما أتوا إليهما بأيد ممدودة.

بعـــد أن أنهيا تناول المشـــروب والبســـكوت طلبت هيلين من (لان) أن ترتـــدي الرِّجلَ الصناعيّـــة لتتمكّن من تصويرها صورة في الخارج لكن الفتاة أجابت أنّها لا تمتلك واحدة.

«لمَ لا؟».

«الَرجل القديمة تؤلمني».

«ليس هناك من لديه الوقت لكي يذهب إلى سايغون». قالت الخادمة «لقد ازداد وزنها كثيرا».

«النّـــاس يحضرون لي الأشـــياء الآن». قالت (لان) «أشـــياء أفضـــل بكثير». بعد التقاط الصّور شـــعرت (لان) بالملل، وعادت للّعب مع الفتيات الأخريات، ولم تكلّف نفسها أن تقول وداعا.

بينما وضعا معدّاتهما في سيّارة الجيب ظهر الأب من جديد «هل التقطتما صورا جيّدة؟».

«نعم». قال لين «شكرا جزيلا».

«أنا أعرف أطفالا آخرين لديهم مشكلات ويمكن أن تصوّراهم أيضا».

احمرّ وجه لين بعد أن حمل الحقيبة الأخيرة.

قادا الســـيّارة في صمت. وقفـــت قافلةٌ أمامهما، وكان قد تمّ

تنظيف الطّريق قبل ساعة على الأقلّ من عودة الازدحام إليه. أطفأ المحرّك وتركا سيّارة الجيب في قافلة السيّارات.

على طرف الطّريق كان هناك مزارعٌ يحرث حقل الأرزّ الّذي كان مرتكزا على خندق. كردّة فعل على المشهد بدأت هيلين تلتقط الصّور، ستمرّ قرونٌ قبل أن يطالب سوق الإعلام بصور مشاهد كهذه. ربّما ستكون هذه الصّور تاريخيّة بعد قرون كالصّور المعلّقة في غرفتها الّتي تظهر عالما قد تلاشى.

وقف لين على جانب الطّريق ويداه في جيبه.

«أردت أن أنقذها». قالت هيلين «خيالات الإنقاذ تسيطر عليّ. كنت بحاجة إلى أن أنقذها».

«لم تكن تخصك لكي تنقذيها».

«بالطّبع لا». لم تكن تخص دارو أيضا. كان ساذجا فقط لمجرّد التّفكير أنّ (لان) يمكن أن تعطي قيمة للأمور بعد أن قضى تلك السّنوات كلّها وهو يتغذّى على الحرب. كان من الأفضل إبعاد كلّ التبريرات ليكون سبب البقاء هناك واضحا.

امتعض لين «عندما كان أبي صبيّا صغيرا، أراد الفرنسيّون من النّاس أن ينسَوا بلادَهم، علّمونا أنّ أسلافنا الغيلان لهم عيونٌ زرقاء، وجعلونا ننسى أنّ لديهم ساعات ذهبيّة وزبدة الفول السّودانيّ».

حدّقا بصمت إلى حقل الأرزّ حيث كانت الشّمس في وقت العصر ترسل أشعّتها إلى الماء. أخذ الفلّاح ثوره وذهب إلى بيته.

قال لين: «أخبرتني أمّي أنّني إذا استيقظت مبكرا قبل الجميع فسأتمكّن من سماع همهمة الأرزّ وهو ينمو. كانت النّسوة تغنّي أغنية شعبية:

«من أجل حبّة أرزّ واحدة

حبّة ناعمة ومعطّرة
في فمك...
يا له من جهد كبير ومرارة!».

تمدّدت هيلين «أدعوك لتناول غداء ضخم عندما نعود إلى سايغون». شعرت بالحرج أثناء وجودها في منزل (لان) بسبب وضوح فساد إحسان الأمريكيين إليهم.

بدأ لين بالرّفض لكنّه توقّف حين رأى نظرة خيبة الأمل في عينيها بعد الحميميّة الّتي كانت بينهما في فترة مرضها، لم يعد يعرف كيف يعاملها في الأماكن العامّة، ولم يعرف ماذا يفعل بتلك المرأة.

«حسنا اتّفقنا» قالت.

ابتسم ابتسامة تنمّ عن الخسارة.

«إلى أين تريدين أن تذهبي؟».

«أفكّر في الذّهاب إلى الكونتيننتال وشرب كأس مثلّج من الجن والتّونيك وأكل سندويشة».

في المهمّة الّتي كانا فيها كجزء من «فريق الشّواذ» وفريق المروحيّات الّذي يوزّع المهام فيما بين تحديد الأهداف أو الهجوم عليها، جلس كلّ من هيلين ولين على مقعد المراقب الصّغير لأحد حاملي السّلاح وهما في طريقهما للانضمام لقوّات الجيش الحكوميّة أثناء خروجهم في مهمّة. وصل الطّيار مبكرا وسألهما إذا كانا يريدان أن يستمتعا برؤية المناظر الطبيعيّة للجبال على طول الحدود مع (لاوس).

«كلاكما سويّا لا تعادلان ثقل الجندي المسلّح». ضحك الطّيار لأنّه وجد أنّ الفكرة سخيفةٌ خاصّة في ذاك الصّباح.

جلسا مقابل بعضهما، بينما كانت مقدّمة المروحيّة تبدو كفقاعة طافية فوق الأرض. لا شيء يحجب عنهما الرؤية إلّا

الأرض المعدنيّة ولوحة التّحكّم. كانت قمم الجبال الجرداء مغطّاة بالضّباب. وكانت مروحيّة المراقبة معلّقة كالطّائر فوق الأشجار الّتي أحاطت نفسها بالصّخور مع آلاف آثار الأقدام في وديان الأنهار الضيّقة الّتي كانت مظلمة حتّى في وقت الظّهيرة.

حوّموا حول الشلالات الضخمة وغابات الخيزران وغابات الخشب الجاف والأدغال العريضة، وكلّها كان متشابكة في حقول صغيرة من أعشاب الفيل وهي أشبه بالمجوهرات. وبعد ساعة كان الإنسان الوحيد الّذي رأوه هو أحد رجال قبيلة (مونتا غنارد).

تألّمت عينا هيلين من ضغط البحث عن أية حركة في بحر من اللون الأخضر. كانت النّزهة في غاية الوضوح كحلم الطّيران على البساط السحريّ. طارت الأشجار تحت قدميها. وهدّأها تدفّق اللون الأخضر وضوء الشّمس والطيّار الّذي يسحب الآلة الّتي تهدر متحديّة الجاذبيّة. ترامت إلى خيالها رؤية خضار غير متناه، والحرارة الشّديدة جعلتها تشعر بالوخز بالرّغم من وجود التّكييف داخل المروحيّة. شعرت بالاحتراق وأغلقت عينيها.

تفحّص لين الّذي كان جالسا إلى جانبها الحقول بالمنظار، وضع يده على يدها ثمّ أعطاها المنظار، مشيرا إلى جرف ممتلئ بالصّخور: «أترين يا هيلين؟ تعالي الآن». قال في أذنها فوق صوت المحرّك.

عندما قرّبت المنظار من الطّريق التّرابي تحت المنحدر، خرج نمرٌ وظهر بوضوح كبير. لمعت الخطوط البرتقاليّة والسّوداء تحت ضوء الشّمس بعد سيل من الخضرة الّتي شاهدتها. وقف النمر بهدوء واستقلال وهو ينظر إلى الأرض الّتي تحته. كان الانعزال هو الشّيء الوحيد الّذي سيجعله متغطرسا لدرجة أن

يتجاهل هدير المروحيّة فوقه. وقف لدقيقة أخرى رافعا رأسه ليتفحّص الهواء عندما مالت المروحيّة ومرّت فوقه، حيث ناور الطيّار ليتمكّنوا من رؤيته عن قرب أكثر. مدّ يده إلى المروحيّة وتمدّد جسمه في حركة انثناء واحدة، كان جسده المنهك طويلا ونحيلا، وقد تلاشت سحابةٌ من الدّخان بعيدا وصارت الحافّة الصّخريّة خاوية.

«اللّعنة! هل رأيتما ذلك؟» صرخ الطيّار مبتهجا.

ابتسمت هيلين للطيّار ونظرت للأمام، لكنّ ما شعرت به هو اللّحظة الوجيزة الّتي لامست فيها يد لين يدها كهزّة كهربائيّة صغيرة. كانت بعيدة ومنغلقة لكنّها الآن استطاعت أن ترى، مالت وهمست له: «أنا هنا الآن معك».

(16)
تاي نغويين
المرتفعات الغربية

تغيّرت الحرب وغيّرت هيلين معها.

كانـــت هناك معركةٌ تدور فـــي وادي (داك تو) في المرتفعات المركزيّة، وهي المنطقة ذاتها الّتي شـــهدت ســـنوات من المعارك المروّعة في بدايات الحرب، حيث هُزم فيها أسطولٌ من المظلّيين، كانـــت هيلين قد قامت بتغطيـــة إنجازاته عدّة مرّات قبلا، والآن يتمّ إرسال فرق المشاة لقتال مواقع العدوّ المحاطة بالخنادق.

انتشرت الشّـــائعات بأنّ مجموعة من الجنود المتبقّين قاموا بإضرابـــات في مواقعهـــم آملين أنّهم إذا تفادوا ضربة مباشـــرة فسيتمكّنون من الهرب في الفوضى التي ستحدث بعد ذلك.

ألحـــت على غـــاري أن تقوم هي بتغطية الخبـــر، فقد كانوا جنودهـــا، والمنطقـــة كانت منطقتهـــا. لكنّها عندمـــا ذهبت إلى الحمّـــام بعد ذلك لـــم تتوقّف يداها عن الارتجـــاف. كانت تلك معرفة مسبقة بلعنة ستحل عليها.

«لست مضطرة لأن تذهبي». قال لين.

«أريـــد أن أذهب. الجنود ليس بيدهم حيلـــة». ما عنته أنّها كانت بحاجة أن تذهب، وأنّ التّوتر الّذي شعرت به كان هو الّذي

افتقدته في كاليفورنيا، وهو الأمر الّذي جعل الأدرينالين يسري في عروقها.

«لقد أثبتّ مسبقا أنّك شجاعة».

«كلّ صورة جيّدة عن الحرب هي صورةٌ مضادّةٌ للحرب. لماذا أنا هنا إن لم يكن من أجل هذا الأمر؟» ضحكت على لين. «توقّف عن القلق على أيّة حال فقد أصبحت واحدة من المسحورين، ألم تسمع بذلك؟».

أسماها الفيتناميّون المرتفعات الغربيّة؛ لأنّهم لا يزالون يرون البلد ككلّ كامل ولم يتقبّلوا التّقسيم الاصطناعي لجنوب وشمال.

كانت الأسماء مهمّة.

كانت الأسماء في النّهاية هي الشيء الوحيد الّذي خلّفه الفيتناميّون وراءهم.

على مرّ التّاريخ وُجِدَت فيتنام على رؤوس ألسن النّاس، وممنوع عليهم أن يذكروا اسمها بصوت عال.

أصبحت الجغرافيا قوّة.

الأسماء الّتي أعطيت لقطع من الأرض أو للبحر أو للجبل كانت تدل على من كان يتحكم في الأمور. فإحساسُ الأمريكان بالأماكن كان يغضب الفيتناميّين.

كان اسم بحر الصّين الشّماليّ مزعجا بشكل خاصّ لأنّه يضع بحرهم الشّرقيّ في اتّصال مع عدوّهم التّقليديّ وهو الصّين. شيءٌ آخر يغضبهم، كان الشّرق الأقصى، الشّرق الأقصى في اتّصاله مع ماذا؟ كانت لديهم تلك المشكلة قبلا؛ فقد كان الفرنسيّون يشيرون للمرتفعات على أنّها الهضاب العليا، وهو اسمٌ وصفيّ عقلانيٌّ للمرتفعات الممتدّة من الحدود الجنوبيّة لفيتنام الشّماليّة إلى مئات الأميال داخل سايغون، بداية من الشريط

الســـاحليّ للأرض المصقولة وحتى الشّـــرق حيث جبال أناميزي البريّة. كان الاســـم يشـــكّل صفعة أخرى بالنّســـبة للفيتاميّين، فهو خيالٌ استعماريّ فرنسيّ، القصد منه إزالة فيتنام الأصليّة. فأطلقوا على جبالهم اسم (الترونغ سون)؛ لأنّهم لم يجدوا سببا لتسمية أراضيهم بأسماء أجنبيّة.

كان لدى هيلين الجغرافيا الخاصّة بها. فكانت تعرف الأرض من ألوانهـــا. فمنطقة (ميكونغ) كانت خضـــراء وذهبيّة وزرقاء، والنّور رقيقٌ وشـــفّافٌ بســـبب الماء الموجود على الأرض والموجود في الهـــواء. كان الوحل يغطّي الجنود بشـــكل لا مفرّ منه، وكان طين الدّلتا ممزوجا بالصلصال على طول الطّرقات المائيّة، وكان يجفّ مبيضّا على الوجوه والأجساد للأحياء والأموات. كما كانت (المرتفعات المركزيّة) أرضا للجلاء وللقتامة وللظّلال الحادّة ذات التسلسل الرقيق لدرجات اللّون الأخضر الّذي يتدرّج من الأسود إلـــى أكثر الظّلال رقّة من الأخضر الطّحلبي. وهناك غابات من اللّونين البنّي والأســـود والخشب الجاف الّذي قطّعته الطّائرات، والأراضي المسطّحة من اللّون الرّماديّ، وجذوع الأشجار المقتلعة والجذور التي تشـــكّل تماثيل سيرياليّة. كان التّراب يشكّل طبقة حمراء غنيّة صبغت وجوه الجنود وملابســـهم وتلاشى لونها مع الوقت ليصبح أشبه باللّون الصّدئ للدّم الجافّ.

كانت جغرافيّتها أيضا مليئة بالمنعطفات والوديان الخطيرة. وكان عليها أن تبقى دوما محلّقة في الســـماء، وألّا ترتبط بمكان واحد لوقت طويل، وألّا تترك وزنا أو أثرا على القشـــرة الأرضيّة الّتي يمكن أن تشكّل طريقا ما. كان هناك سطرٌ للكاتب (سايتوس) يدور في بالها دوما وهو: (لأســـفه الشديد، وجد مصدر الرّاحة في الحرب).

مشــوا إلى مكان إنــزال الذّخيرة والقوافــل حتّى وصلوا إلى القيــادة العامّــة للميدان، والّتي كان مقرّها فــي واد قاحل عند خاصرة الجبل. كانت الفوضى العارمة تملأ خيمة الصّحافة، وفي خيمــة القيادة كان عمّال الهاتف يبلغون عن إســقاط المروحيّات الواحــدة تلو الأخرى. لم يحدث إخلاء خلال الأربع والعشــرين ساعة الأخيرة، وكانت حساباتهم تدل على أنّ الذّخيرة الّتي على الجبل ستنفد عند الصّباح.

كانت فرق المشــاة تذهب ســيرا على الأقــدام في الأدغال وتقاتــل حتّى تتوصل إلى الرّجال الأســرى. وكان صدى الأفواج العســكريّة لجيش فيتنام الشّــعبيّ يرنّ في الهضــاب المجاورة بمخازن أسلحتهم الّتي لا تتوقف.

كان يتمّ تقديم الطّعام للجنود المغادرين، لكنّهم كانوا يحصلون علــى وجبة واحدة هي مزيج من الإفطار والغداء، وذلك بســبب أوامر المغادرة المتعارضة. وضــع الرّجال الطّعام الّذي كان مكوّنا مــن الجزر والبيض المخفوق والأضــلاع وكعك الأناناس والبرغل على أطباقهــم. كان كلّ ذلك بمثابة وقود لهــم، فبدت لهم فكرة جيدة وهـي أن يملؤوا بطونهم ليكون ذلك درعا أخرى للبقاء. وضع ذلك الطّعام الّذي وصل صباحا ابتســامة على وجوههم الشّــابة الخائفة، وعدّوه إثباتا لقيمتهم. شعرت هيلين بالغثيان لمنظر تلك الغنيمة، ولأنّها كانت تعرف فســاد الجيــش فخمّنت أنّ هذا هو أفضــل طعام يقــدّم للمحكوم عليهم بالموت. كانــت تلك وجبتهم الأخيــرة، وعلــى الرّغم من معرفتها تلك لكنّهــا مضغت طعامها دون أن تشــعر بطعمه، لكن بعد عدّة ساعات وحتّى بعد عدة أيام ستعذّبها فكرة عدم الأكل. لذا اختارت أن تأكل حتّى الشبع لكيلا يختلط شعور الجوع مع الشعور الآخر الذي أحست به.

عندمـــا طالبـــت هيلين بأن تكون بصحبة أحـــد فرق الإنقاذ والمســاعدة رفـض مكتب الصّحافــة والمعلومـــات طلبها. «هذه أشـــياءٌ مهمّةٌ وفي غاية الخطورة وليس بالإمكان السّماح لامرأة بالمرافقة».

«لقد غطّيتُ هذه المجموعات من قبل».

«لا تتعبي نفســك، لا أستطيع أن أتخلّى عن أحد الرّجال كي يرافقك».

«أنا أغطّي المعارك منذ سنتين».

أصبحت ملامحه فظّة: «إنّها القوانين».

«لا تسري عليّ، لقد غطّيتُ هذه المنطقة في...».

«إنّها القوانين، هل فهمت؟».

تابعـــت «غطّيتُ المنطقة في عـــام 1966 قبل أن تعرف أنت أين هي فيتنام».

«لسنا بحاجة إلى امرأة ميّتة».

سمعت من خلفها صوتا عاليا وشعرت بصفعة يد عالية على كتفها: «هيلين آدامز».

استدارت وأصبحت وجها لوجه مع الكابتن أولسن. لم يتغيّر منذ سنتين ونصف، كأنّ ذاك اليوم المرعب في ميكونغ قد حدث بالأمس فقط.

«لا بدّ أنك أجريت اتّفاقيّة مع الشّيطان». قالت: «تبدو أصغر ممّا بدوت عليه آخر مرّة رأيتك فيها».

«أصابتنـــي الملاريا وانشــغلت بالعمل فـــي المكتب طول هذا الوقت».

«ذهبتُ مع البديل عنك الكابتن هورنر».

«حلّت لعنةٌ على تلك المهمّة، يا للعار!».

لم تذكر هيلين صموئيل، لكنّ الأمر لم يحتج منها أن تذكره. استطاعت أن ترى في عينَي الكابتن أولسن أنّه أخذ على عاتقه مسؤوليّة ما حدث. فلم يكن مثل دوريان غراي. «هذا الرّجل هنا». قالت هيلين مشيرة إلى مكتب الصّحافة والمعلومات «يرفض السّماح لي بالذّهاب، وفرقتي قد بدأت بالتحرك».

«لووين، هل تسبّب الإزعاج لهذه الفتاة؟».

«يقول إنّني سأموت إن ذهبت».

«رجلٌ نبيلٌ فعلا، أليس كذلك؟ هذه الفتاة هي الّتي جعلت منّي بطلا. هي ومن معها من المصوّرين. دعها تفعل ما تشاء».

عبس لووين وقال: «اذهبي واحملي سلاح 45».

«لن أحمل سلاحا» قالت هيلين.

وقف موظّف خدمة المعلومات وقد تغضّنَ وجهه «إذا كانت صديقتك فسوف أبلغها بالمعلومات».

أخذ الكابتن أولسن هيلين من ذراعها واصطحبها. أشارت هيلين إلى لين أن يأتي إليها وقالت: «أريد أن أغطّي هذه المهمّة».

أومأ أولسن وصافح لين «إنّ لووين أحمق لكنّه محقٌّ في هذا الأمر. فالأشياء سيّئةٌ هناك، خذي السّلاح».

هزّت هيلين رأسها.

«أنا جدّيٌّ، فلن يساعدك أحدٌ هناك».

قال لين: «سأحمله أنا».

عندما عادوا كان موظّف خدمة المعلومات يدخّن سيجارة.

قالت هيلين: «التّدخين مضرٌّ لك».

«إذا كان علينا أن نحمل أسلحة». قال لين «فأنا أريد بندقية إم 16 ومسدّس 45».

احمرّ وجه موظّف خدمة المعلومات «اللّعنة، لا أصدّق ذلك».

نظر إلى أولسن الّذي تجاهله «هل استخدمت أحد هذه الأسلحة قبلا؟».

لم يتردّد لين وقال: «عدّة مرّات».

بعد عدّة ساعات، وبعد أن تسلّقوا من خلال الأدغال الكثيفة إلى غابة الخشـــب الجاف وعادوا إلى الأدغال من جديد، وصلوا أخيرا إلى قاعدة الجبل عند الغســق. جلســوا فــي مكان عند الطّريق وأراحت هيلين ظهرها على إحدى الأشــجار. عادة كانوا ســيخيّمون طوال اللّيل، لكنّ الوقــت كان مهمّا، فمن المحتمل ألّا يبقــى أحدٌ منهم حتّى الصّباح. كانــت أصوات القصف المدفعيّ والضّربات على التّلال المحيطة تصمّ الآذان، وكانت الأرض تهتزّ من تحتهم وهم يمشــون، والأشجار المتساقطة على الأرض تعيق دربهم التّرابي الضيّق المنحدر.

تمركزت الفرقة عندما اقتربوا من القمّة، وأضاءت مشــاعل المظلّات المشــهد بضوء غريب. وعلى مدى النّظر كانت الأشجار محترقة ومهشــمة، وهي تشــكل غابة من الدّمار. وكان الدّخان الكثيف يشــكّلُ ضبابا. خبا ضوء المشاعل إلى ظلام أعمق وأكثر غرابة.

عندما مشت الفرقةُ المسافةَ الأخيرة المؤلّفة من مئات الياردات في الظّلام مرّوا بجوار قطع خشــبيّة متســاقطة من الأشجار، قطع توجد على انفــراد أو في مجموعات أو في ركام، وأرعبهم اكتشاف اشــتعال ضوء آخر، ثم وجدوا أن تلك الأشكال لم تكن أشجارا بل أجسادا متعرّية من لباسها وأحذيتها وأسلحتها أشبه بالأشجار المشوّهة المتناثرة.

فــي منتصف اللّيل تعثّــرت فرقةُ (الإنقاذ والمســاعدة) في متابعــة الطّريــق للوصول إلى غــرف محصّنة هجرهــا العدوّ

واحتلّهــا الأمريكان. فمن بين قوّة مؤلّفة من أكثر من مئة لم يبقَ إلّا دزّينة(*) من الرّجال. أمضوا يوما كاملا من دون طعام يقفون في شريط محاذ لغرف المراقبة الأماميّة الضحلة.

بعــد أن أبلغوا الأفــواج الجديدة بالمســتجدات أكل الرّجال حصصهــم من الطّعــام ثمّ غطّوا فــي النوم علــى أرض غرف المراقبة. كان أحد الرّجال قذر الوجه ولا يزال يحمل ملعقة وهو نائمٌ. أشــعلت هيلين ضوءا والتقطــت صورتَهُ ثم التقطت صورة أخرى لإشارة مصنوعة من غطاء صندوق ذخيرة موضوعة على مدخل الغرفة مكتوب عليها: مرحبا بكم في الجحيم.

وقــف جنديٌّ أســود من قوّات الدّرجــة الأولى الخاصّة إلى جانب هيلين «يبدو أنّنا لم نأتِ مبكرا».

«لقد نفّذوا فيهم حكم إعدَام بإرسالهم وحيدين إلى هنا».

قال: «وماذا عنّا يا سيّدتي؟».

لــم يكن هناك ما يمكن لهيلين ولين أن يفعلاه ســوى الجلوس والانتظــار حتّى طلوع الفجر، كان الهواء نتنــا برائحة الجيَف في الغابــة حولهما ودخــان النّيران يحيط بالهضــاب المجاورَة. كانت عيناها متوتّرتين. حاولت أن تغســلهما بالماء لكنّها لم تستفد شيئا، فأغلقتهما وحاولت أن ترتاح إلى جانب جدار غرفة المراقبة القذر الرّطــب. وعندما كانــت تغفو تلك اللّيلة لعــدّة دقائق كانت تجفل عند سماع أصوات ضرب الصّواريخ وحفيف الشّظايا المعدنيّة الّتي كانت تصطدم بأيّ شيء، كان السّطح الهوائيّ القذر يقطر عليهم.

انزلق جسدها من مكانه بعد عدّة ساعات حتى أصبح رأسها في حضن لين وهو يضع يده فوق أذنها ليخفّف من حدة الصّوت

(*) دزّينة: كناية عامية عن عدد يعادل 12. (الفاحص)

لكيلا تتمكّن من سـماع وابل الرّصـاص، تمّ إبعاد الصّوت قليلا بكثافة يـده الواحدة. جعلتها يده حول أذنها تسـمع طنين الدّم ونبض المحيط، كما أعطتها تأكيدا طفوليّا أن لا شـيء يمكن أن يحدث لها وهي محميّةٌ بتلك الطّريقة.

زاد تواتر مدافع الهاون عند السّـاعة الرّابعة صباحا، وأمر أحد الرّقباء هيلين ولين بأن يتحرّكا إلى الغرف الخلفيّة. لم تكن المنطقة الّتي فوق الأرض مألوفة بالنّسبة لهما، فطلبا أن يخاطرا ويبقيا في مكانهما، لكنّ الرّقيب لم يقبل حتّى الجدال.

انحنيا وعدَوَا على الأرض الممتلئة بالحطام المكسّر المتناثر.

من المفترض أن يكون المدخل على بعد عشرة أقدام فقط من غرفة المراقبة، لكنّهما مشيا ثلاثين قدما على الأقلّ حتّى وصلا إلى صفّ أشجار، ثم عادا أدراجهما وغيّرا اتّجاههما إلى اليسار ليجدا مدخلا أكبر من الّذي وصفـه لهما الرّقيب، لكنّهما قرّرا عدم الدّخول لدى سـماعهما صرخة ذعر مدويّة عند وصولهما، ألقت هيلين بنفسـها على الأرض في الدّاخل ولين على ظهرها، كان ذلك بسـبب صوت سقوط شيء من ارتفاع عدّة أقدام، مما جعلها خائفـة ولاهثة، وذلك عندما انفجر مدفع هاون على بعد عشـرين ياردة أسـفلهم. في الظّلام شعرت بشـيء ناعم ودبق؛ وأدركت أنّها كانت تغوص في اللّحم البشريّ.

قفـزت هيلين مفضّلة أن تجرّب حظّهـا في الخارج على أن تبقى محبوسة تحت الأرض. أخذت جرعة المياه المتبقّية وخلعت قميصها الملوّث ووضعته فوق سترتها. جلست مقابل جدار رمليّ صغيـر. كانت المدافع تطـنّ في أذنيها والأصـوات خانقة، ولم تستطع فهم كلمات لين إلّا عندما اقترب منها.

«عودي» مشيرا إلى غرفة المراقبة.

سَرَتْ دموع الارتباك والتّوتّر على خدّيها. لم تستطع إيقافها على الرّغم من أنّها لم تشعر بالخوف على الإطلاق. غادرها الخوف المستمرّ من التّعرض للأذى أو ما هو أسوأ منه. لكنّ الخطر الأكبر كان بعد ذهاب الخوف وصرخت مخاطبة لين: «تحرك أنت. أنا أفضل حالا هنا».

جلس إلى جوارها وهزّت رأسها وهي تدفعه ليبتعد لكنّه بقي إلى جانبها. عندما هدأت لاحقا حبَوَا إلى غرفة مراقبة فارغة أخرى وقضيا فيها بقيّة اللّيل. استمرّ ضرب القنابل حتّى الفجر. وعند بزوغ أوّل ضوء عادا إلى غرفة المراقبة. نظر الرّقيب إلى هيلين ثمّ أعطاها كأسا من القهوة الفاترة المصنوعة من كيس من القهوة الفوريّة المسخّنة.

بعد نصف ساعة وفي نور الصّباح الرّماديّ الضبابيّ رأت الجنود الأمريكان يقتربون من بين الأشجار. أخرج الرّقيب منظاره. شعرت هيلين بالرّاحة لانتهاء الأزمة، كان رأسها ثقيلا وشعرت بأنّ هناك خطبا ما، لكنّها لم تكن خائفة.

قال لين: «إنّ الجنود كانوا قادمين من الاتّجاه الخاطئ، وليس من الطّريق الّذي استخدموه قبلا».

مرّر الرّقيب منظاره بين الضّباب. وعندما أصبح الجنود على بعد أقلّ من خمسين ياردة رأت هيلين جنديّا مرشدا يرفع سلاحه. تباطأت أفكارها وشعرت بالبرود والانفصال عمّا كان يحدث أمامها. ربّما ظنّ الجنود أنّ الفيتناميّين كانوا في الغرف. فتح الجنود النّار ورشّوا الطّلقات، عبست هيلين لعدم قدرتها على استيعاب المنظر الّذي أمام عينيها. صرخ الرّقيب للجنود في الغرفة ففتحوا النّار على الرّجال الّذين كانوا يمشون بين الأشجار.

عندمــا تلاشــى الضّباب أطلقــوا قنابــل b-52s من مادة النّابالم شّــديدة الاشــتعال ممّا تســبّب في نشــوب حريق على الهضــاب المجاورة. وظهرت زوبعةٌ زرقاء - رماديّة في السّــماء. ثمّ أتت أفراد من القوّات المسلّحة، وتمكّنوا هذه المرّة أن يخرجوا ويدخلــوا دون أن يتأذّوا. فإمّا أنّهم تمكّنوا من هزيمة العدوّ وإمّا أنّه قد تراجع.

وقفت هيلين خارج غرفة المراقبة وهي تنظر إلى المنطقة الّتي كانت بالكاد تستطيع تلمّس خطاها بها في الظّلام.

اســتطاعت في الضّوء الضّبابيّ الدّخانــيّ الأبيض أن ترى بقايا الأشجار والأجساد المتفحّمة. قرّبت كاميرتها من عينها وهو فعلٌ يشــكّل راحة بالنّسبة إليها. تبعت خطا الجنود بين الأشجار والتقطت صــور الفيتناميّين الموتى في ملابــس الأمريكان. كان الجرحى مستلقين بصمت واستسلام لقدرهم دون أن يشتكوا أو يتوقّعوا أيّة مســاعدة. تفاجأت هيلــين من غرابة ردّة الفعل تلك ومن القدرة العجيبة على القسوة، ولم تستطع أن تكبح إحساسها بالاحتــرام الكريه. كــره الأمريكان قدرة العدوّ على اســتخدام المدنيّين وقدرتهم أن يرتدوا ملابس العدو، ومع ذلك فإنّ الالتزام بقواعد الحرب المعتادة كان سيكلّفهم الخسارة.

زحف الجنــود الأمريكان من تحت الأرض بوجوههم الهزيلة والقاتمــة وعيونهم الحادّة كالســكاكين من طــول فترة الخوف، وملابسهم المتشكّلة على أجسادهم والتي يبدو عليها صدأ العرق والوسخ. وعندما مدّدوا أجســادهم المتصلّبة المتشنّجة وتقدّموا فــي المخيّم أصبحوا أكثر حيويّــة، فالتقطت هيلين صورة لاثنين منهم، أحدهما يقذف علبة طعام كما لو أنّها كرة قدم. وقد كانت تلك لحظة راحة أنّهم رأوا ضوء النّهار.

مشت في المخيّم والتقطت الصّور وهي عمليّة تآلفت من فتح الكاميرا مع ضبط سـرعة مصراع الكاميـرا. كانت تلك معركة أكبر بإصابات أكثر ممّا رأته من قبل، لكن مع ذلك كان إحساسها بما جرى أقلّ حدة عما شاهدته في الماضي، في الواقع لم تشعر بشيء.

مشـى الرقيب سـيمونز إلـى جانبها وقال: «هـل أنتِ هنا لتجعلينا مشاهير؟».

حاولت أن تبقى طبيعيّة مع أنّها شعرت أنّ شبحا يحوم حول ذلك المشهد: «نعم بالتّأكيد».

«يا لّلعنة! لا بدّ أنّ يكون هناك سبب آخر غير إيصال صورك إلى دانانغ والحصول على خبر والحديث عن مدى شجاعتك».

بعد أن صوّرت هيلين الفيلم الّذي كانت بحاجة إليه، جلسـت على صخرة وانتظرت. لم تكن قد أكلت منذ اثنتي عشـرة ساعة ولا نامت منذ أربع وعشـرين سـاعة. ما زال الصّوت يأتي إليها مكتوما كما لو أنّها تحت الماء. صوّر لين فريق المدفعيّة الّذي كان هناك منذ ثلاثة أيّام. أصبح هناك شكلٌ جديدٌ لعلاقتهما العمليّة منذ عودتها لأنّ لين مصوّرٌ مسـتقلٌّ الآن. كانا يسافران معا لكن عندمـا يصلان إلى وجهتهما كانا يتصرّفان كأنّ أحدهما لا يرى الآخر.

عندمـا نزلا عائدَين إلى الهضبة ببـطء. كان هناك جرحى على طريقهما وجنود أحياء بعيون ميّتة لم تلمحهم حتّى. شعرت هيلين بالقوّة في إحساسـها بأنّها شـبحٌ. لم يتـمّ تحريك أكوام الموتى لكن تمّت تغطيتهم بالكلـس الّذي أخفى ملامحهم وجعل أجسـادهم مجهولة، ممّا جعل الأحياء يشعرون وكأنّهم يتحرّكون في سرداب موتى، شعورٌ في غاية الغرابة.

انتظرا لساعات حتّى تمّ تحميل الجرحى على المروحيّات. وعندما انتشرت قوات المشاة على شكل سلسلة قامت مجموعة أخرى بتأمينهم لساعات معدودة فقط قبل أن تأتي الفلّاحات فرادى ومثنى من القرى المجاورة. وقفْنَ حافيات الأقدام مرتديات سترات بيضاءَ باهتة وبيجامات سوداء وهن ينقلن أوزان أجسادهم من رجل إلى أخرى، كلٌّ مغويات من دون كلام. وعندما أتت مروحيّة نسينَ أنفسهنّ وأسرعن إلى السّياج وأشرن بالأصابع في حماس لرؤية الآلة الطّائرة. كانت أصابعهنّ في صغر ورقة أصابع الأطفال، وبعضهن أظافرهنّ مقصوصةٌ ومطليّة بالأحمر والورديّ المبهرج.

ذهب أحد الحرّاس إلى السياج وقال شيئا لفتاة صغيرة بشعر كهرمانيّ اللّون يصل حتّى الكتف وقميص أزرق لامع كبير على جسدها الصّغير. رفعت هيلين كاميرتها بفضول عندما أخرج شيئا من جيبه وفتحه ورأته هي كهديّة إنقاذ للحياة. أدخل أصابعه في السّياج وأطعمها واضعا الحلوى مباشرة على لسانها.

كانت تلك هي الصّورة الّتي أرادت الحصول عليها، وقد تحمّلت ساعات الرّعب السّابقة لتصل إليها، لكنّها أرضتها حين حدثت وشعرت أنّها تستحقّ التّضحية. لم تكن لتتمكّن من ملاحظة شيء صغير وممتلئ كهذا إلّا في حالتها المجرّدة تلك. أصبحت تلك صورة غلاف وكسبتْ عنها جائزتها الأولى، لكن بالنّسبة إليها كانت قيمة الصّورة أنّها أعادت إليها الغرض والهدف الرّئيسيّ وهو إيجاد بريق صغير للإنسانيّة.

صعدت هيلين ولين إلى المروحيّة الأخيرة، وتمّ إنزالهما في مركز تزويد بالمؤن، وكان من المفترض أن تقوم تلك المروحيات بنقل رحلات حمولة أكثر من تان سون نهات. وعندما حطّت الطّائرة

كانت الرّحلة الأخيرة قد أقلعت ولم يكن لديهما خيارٌ آخر إلّا قضاء اللّيلة هناك. كانت المرتفعات كلّها في حالة استنفار ولم يكن لتوفير مقاعد للصّحافة أولويّة في تلك الحالة. مازحها الجنود المنتظرون قائلين إنّ القوّات العسكريّة كانت تحاول أن تقتل أكبر عدد منهم قبل شائعة انسحاب القوّات.

انتظرا من جديد في اليوم التّالي، وكانت هيلين في خيمة الطّعام تشرب القهوة. وقف لين إلى جانب منظّم الحركة الجويّة وبدأ يزوّده بالسّجائر وأعطاه قارورة بربون.

كان الموقع في تجويف منخفض تحيط به خواصر جبل وعرةٍ لا يمكن أن يمرّ من خلالها إلّا ممرٌّ ضيّقٌ. بدت الغابة أنّها تُظهر منطقتهم الصّغيرة المكشوفة، وكانت كثيفة ومهيبة ولا يمكن الاقتراب منها. حتّى الأرض نفسها كانت ضدّهم، حقول الأرزّ والأدغال والهضاب والجبال، كلّها كانت تتآمر عليهم وتنتظر موتهم واختفاءهم.

أتى لين إلى غرفة الطّعام ومشى إلى طاولتها وقال: «هل أنت بخير؟».

«كيف حال الرّحلات؟».

«لا يوجد رحلات ذهاب ولا إياب الآن، ويمكن أن نبقى هنا لأيّام».

تفاجأتْ بالكلام. كان عليها الاعتراف أنّها كانت أكثر تأثّرا ممّا ظنّت، فقد كانت بحاجة للهرب مع أنّ الهرب يصبح أكثر صعوبة يوما بعد آخر.

«الخبر الجيّد أنّ لا أحدَ آخر يغادر أو يأتي ويمكننا الاستمرار في التّصوير».

لم تستطع أن تلومه فقد كانت تلك حياتهما، لكنّ الكلمات

الخاصّة عن سبق صحافيّ رنّت في رأسها بطريقة مرعبة. وبعد الظهر أحسّت بيأسها من الخروج من هناك في تلك اللّيلة، لكنّ لين أتى راكضا إلى خيمة الطّعام بعد أن تمكّن من إقناعهم بأن يسمحوا لهما بركوب آخر طائرة حمولة متّجهة إلى تان سون نهات.

عندما اقتربا من الطّائرة أتى إليها أحد أفراد الطّاقم وأعطاها وشاحا أبيضَ، لكنّ صوت هدير المحرّك وصوتها كتم السّمع وجعل مستحيلا عليها أن تفهم كلماته، ثمّ أشار إليها في النّهاية أن تربطه حول أنفها وفمها.

«لا أفهم». صرخت هيلين فوق هدير المحرّك فأمسك بأنفه. كان الوشاح مدهنا وتفوح منه رائحة بلسم النّمر الحادّة في المنتصف. هزّت رأسها وأعادته إليه.

مشى لين إلى سلّم الحمولة ووقف أمام المشهد الذي بدا من أمامه. كان في داخل المعقل أكياس جثث تملأ المكان من الأرض إلى السّقف. هرع نازلا السّلم دون أن يتكلّم مكتفيا بالإشارة. وقف على الأرض وذراعه مكتوفةٌ، وعندها وجدت هيلين مراقب الحركة الجويّة المنزعج الّذي لم يخبر لين عن ماهيّة الحمولة على الطّائرة. امتعض المراقب معبّرا عن عدم رضاه. قال إنّهما إذا رفضا تلك الرّحلة فإنّهما سيضطرّان لقضاء ليلة أخرى أو ليلتين هناك.

قالت هيلين: «لا يهمّ ليلة أخرى».

«لنذهب من هنا». قال لين.

جلسا في مساحة ثلاثة الأقدام المربعة التي أفسحها لهما المراقب في القسم الأماميّ من حجرة الحمولة. كانت الرّائحة نفاذة وتمنّت هي لو أنها أخذت الوشاح. كان هناك جدارٌ من العظام المتكسّرة واللّحم المتهشّم، والشّيء الّذي جعل المشهد حضاريّا ونظيفا أنّهم كانوا موضوعين في أكياس مطاطيّة مغلقة. كان

عليهـــا أن تضع شـــيئا يفصلها عن ذلك المشـــهد فرفعت كاميرتها. امتلكت الكومة السّـــوداء الّتي أمامها قوّة كبيرة لكنّها لم تكن صورة تستحق أن تلتقطها. كانت مشابهة لصورة أخذتها منذ عدّة سنوات للجنود المكوّمين على شـــاحنة القافلة. ثمّ صدمتها المذبحة وقرّرت أن تظهرها. لم يعد أيٌّ من الأجســـاد أمامها مجهولا، كان كلّ واحد منهـــم هو (مايـــكل ودارو وصموئيل) والجميـــع. كان للصّورة قيمةٌ لكنّها لم تكن تســـتحق الالتقاط، فأخفضت الكاميرا. كان عليها أن تجد أقلّ أجزاء الخلاص فـــي تلك الصّورة، وإلّا فإن التقاطها كان سيدمّرها. حتّى لو عنى ذلك المخاطرة بإساءة الفهم بأنّ الحرب لم تكن مرعبة كما كانت.

جلسا وانتظرا والكاميرات في حضنيهما عديمة الفائدة، ولين لم يحرّك ساكنا لكي يصوّر المشهد.

عندمـــا طاروا في الهـــواء هبّت الرّياح علـــى الأبواب المفتوحة وخفّفت الرّائحة، لكنّها سبّبت هديرا مخيفا للأكياس وتضاربا كان يضاهي سوء الرّائحة الّتي سبقته. أغلقت هيلين عينيها وحاولت أن تفكّر بأيّ شيء إلّا المكان الّذي كانت فيه.

خلال الهبوط الحادّ إلى (تان ســـون نهات) ســـرت سوائل من الأكياس الرّاشـــحة وشـــكّلت موجة صغيرة وشـــعر لين بسائل بارد ولزج يبلّل ســـرواله. عندما أصبح مصـــدر الرّطوبة واضحا وضع يده في الأسفل محاولا الوقوف لكن البقعة الزّلقة كانت مثل بياض البيض على أرض معدنيّة فانزلق بســـببها. أصبح كلّ شـــيء أسود أمامه وفتح فمه لكنّ أصوات المحرّكات كتمت الصوت. قرّبته هيلين منها وشـــدّت ذراعيها حول خصره وأبعدته عن المشـــهد حتّى وقف كلاهما متعلّقين بالجدار المتشابك، لكن حتّى بعد أن استعاد توازنه أبقاها بالقرب منه. هذا هو كل ما استطاعت فعله.. لم تكن لتفلته.

(17)
نفهيا
الحب

كان قلبه قد ظل مغلقا لفترة طويلة.

اختار ألّا يسيـــمح لنفسه بالشّعور مرّة ثانية منذ اللّحظة الّتي أنزل ثقل جســـم (ماي) عن كاهلـــه ووضعه على الأرض. لم يكن قد حمل أو عانق امرأة أخرى حتّى اللّحظة الّتي حمل فيها هيلين عن الرّصيف وأعادها إلى غرفتها في تشولون.

آمن أنّ المرء يتواصل ويحبّ شـــخصا آخـــر باللّمس المتكرّر والتّواصل المتكرّر كما تتواصل الأمّ مع وليدها الجديد، الطّريقة الّتي نامت فيها عائلته في الغرفة المشتركة كانوا يمسّون بعضهم برفق، كان نموذجا لتواصل أطراف كل عصب مع العصب الآخر، نبضٌ على نبض يخلق إيقاعا من سيلان الدم، فأصبح الآن يلمس الآخرين، الغرباء منهم، لمسات عابرة دون أمل.

أعاد إحساس وزن هيلين بين يديه ذكريات عديدة. لقد غزت قلبه. فعلت ذلك في البداية عن طريق الصور التي التقطها دارو، وبعد ذلك بتلامس أيديهما من حين إلى آخر، وبرائحة شـــعرها، وأخيرا بثقل آلامها بين ذراعيه.

بعد أن تعود إلى فيتنام ســـوف ينتظرها في الشّـــقة، وخلال

انتظاره لها سوف يلفّ أحد أقراطها حول إصبعه مستمتعا بفكرة أنّــه لامس بشــرة أذنها الرّقيقة. لم يكن يريــد أن تعرف هيلين بمشــاعره، وكان راضيا بالتصرّف على هذا الأســاس. لقد كان الحمل الخفيّ بحجم الحمل المرئيّ في عالمه.

بعــد مغادرة (داك تو)، طلبت هيلين مــن لين أن يعيدها إلى القرية الموجــودة عند الدلتا، والّتي أقامــت فيها مع دارو لفترة من الزمن. أرادت أن تســتعيد إحساس السّكينة الّذي أحسّت به هناك. لكنّ القرية لم تكن إلّا بقايا رماد الآن وســكّانها أصبحوا لاجئين: «أعلنوا أنّها مركزٌ للعدوّ».

«كنّا هناك، كانت آمنة».

امتعض لــين «ربما كنّا على خطأ، ربّما كانوا هم على خطأ، لا يهمّ، فالقرية الآن مدمّرةٌ».

صمتت هيلين للحظة «ألا يهمّك ما يحدث لبلدك؟».

استدار بغضب ونوى المغادرة، ثمّ تمكّن من استعادة سيطرته على نفسه، لكن بدلا من ذلك وللمرّة الأولى عاد واستدار نحوها. كان مــع الأمريــكان لفترة طويلة واعتاد علــى تحدّثهم علنا عن مشــاعرهم، وكانت لديهم رغبةٌ عارمــةٌ أن يفعل هو ذلك أيضا. «حربي مســتمرّةٌ منذ تسعة أعوام ولا أستطيع أن آخذ استراحة منها وأن أذهب إلى بيتي وأعود، فالحرب في بيتي».

«لم أقصد أن...».

«الأمر أشــبه بأن ينفّذ المسعف عمليّة اختبار، بأن يقرّر مَن ســيموت، ويحاول إنقاذ الشــخص الّذي يمكنه إنقاذه، يريد أن يبكي على الموتى ولكنّ ذلك لن يساعد أحدا. ذلك وعي السّائح، وأنا يوما بعد آخر أذهب مع المصوّرين الّذين هم ســيّاح في هذه الحرب».

«لماذا أنت مختلفٌ عنّا؟».

«أنا كنت مع الطّرفين وتركتُ كلا الطّرفين، لكنّهم لا يسمحون لي بالذّهاب ولم يكن أمامي خيارٌ إلّا أن أكون مصوّرا».

«وهم يسمحون بذلك؟».

«أدّعي أنّ لي تأثيرا على تغطية الأحداث، وأعطيهم معلومات قليلة أعرفها لأقنعهم أنّ لي قيمة وأنا على قيد الحياة».

استدارت هيلين مبتعدة وغاضبة من ذكراها الأولى عند بداية وصولها، وكيف عدّت الحرب لعبة، وكيف تحوّل لين والبلد كلّه إلى ستار خلفيّ لمغامرتها.

«سآخذك إلى مكان فيه أمانٌ وسلام» قال.

ركبا طيّارَة حمولة متّجهة إلى (نها ترانغ) ثمّ استقلّا سيارة جيش إلى قرية صغيرة فيها مجموعة بيوت متوضّعة على شاطئ هلاليّ. كان الرّمل أبيضَ بلون العظام، والمحيط كان بلون فاكهة (البابايا) الخضراء النّيئة.

البيوت الأقرب إلى البحر كانت تقف في ظلّ بنفسجيّ لأجمة كثيفة من أشجار جوز الهند. وكان هدوء المكان النّادر هو أوّل شيء يمكن ملاحظته حيث لم يكن هناك أيّ صوت للحرب أو أيّ صوت للنّاس.

كانت عمّة لين تمتلك البيت. وكان البيت كبيرا ومصنوعا من الحجر مع سقف من القرميد الأحمر. وكانت تحميه الأشجار، كما كانت الحديقة الأماميّة تحتوي على بحيرة هلاليّة صخريّة، وفي الدّاخل كانت هناك غرفتان غير مفروشتين لكنّهما نظيفتان.

«أين النّاس؟».

«لقد أخلوا القرية منذ ستّة أشهر، والعجائز هربوا من المركز وعادوا ليهتمّوا بما تبقّى من المؤن حتّى عودة البقيّة».

«أين عمّتك؟».

«تزور بعض الأقارب».

فهمت هيلين من الطّريقة السريعة الّتي يتكلم بها أنّه يكذب.

«لم يكن من المفترض أن تغادر، كنت أتمنّى أن ألتقي بها».

أومأ لين: «ربّما من الأفضل لها ألّا تعرف أنّني أحضرت ضيفة أمريكيّة».

كانت تلك هي نهاية فصل الجفاف، وكان المطر يهطل بعد الظّهر، أما الشّمس فكانت تغمر السّماء بلون أزرق معدنيّ كلّ صباح، وكان الهواء ثقيلا ورطبا كما لو أنّه قد تم اعتصاره من الجوّ. تأخّر المطر وكأنّه يأبى أن يأتي. ومن جهة الشّرق بقيت السّماء فارغة فوق المحيط، ومن جهة الغرب كان يظهر فوق الجبال عند الظّهيرة تكتّل غيمة واحدة طويلة تجمع الغيوم الأخرى حولها حتّى منتصف ما بعد الظّهر، لكي تشكّل سلسلة غيوم بيضاء تتجمّع في غيمة واحدة فوق الأرض. لكنّ الغيوم لم تتمدّد وبقيت السّماء حادّة وجافّة.

أمضت هيلين أيّامها مختبئة في الظلّ البارد في الدّاخل حيث كانت تنام على بساط صوفيّ على الأرض. كانت ترتدي سروالا قصيرا وسترة صيفيّة، ومع ذلك كانت تستيقظ في وقت متأخر بعد الظّهر مبللة بالعرق. توقّفت أحلامها وشعرت بالرّاحة لكثافة سواد النّوم.

انكسر شيءٌ في داخلها.. لا ماض ولا حاضر ولا إحساس بالوقت. كان إحساسها أنّ كلّ يوم لا نهاية له مثلما كانت تشعر وهي طفلةٌ. كما كان لين محقّا في قوله عن أنها كانت سائحة في الحرب بداية. لكن كانت هناك قوّةٌ أيضا في ذلك البعد، كما قال دارو، هناك ثمنٌ للتّفوق. هي الآن في الجحيم، فلم تكن مجرّد

سـائحة مشاهدة للبلد كما أنها ليســت جزءا منه أيضا. وللمرّة الأولى منذ أن كانت طفلة فكّرت أن تصلّي، لكنّ الأمر بدا صغيرا وجبانا بعد الشّوط الكبير الّذي قطعته في هذه اللّعبة.

جاء لين في وقت الغسق بصينيّة طعام كبيرة حضّرتها جارتهم السيّدة (ثاي شوان) فيها سمكٌ وفريدس مشويّ وطبقٌ من الأرزّ وباذنجـان مع صلصـة الصّويا. أكلا بجانب بـاب الدّار المفتوح متربّعَين على البسـاط انتظارا لنسيم المساء القادم من المحيط. نظرا إلى الحديقة والمحيط من ورائها حتّى حلّ الظّلام وتعذرت الرّؤية. أشـعل لين عود كبريت وأضاء المصباح وأحضر مجموعة أوراق لعب.

علّمتـه هيلـين منذ عدّة أشـهر أن يلعب لعبة الجـنّ، وكانا يلعبانها كلّما سنحت الفرصة. في البداية كان لين يخسر في كلّ مرّة لكنّه بالتّدريج اسـتطاع أن يربـح بعض المرّات. كان يحتفظ بدفتـر ملاحظات وقلم رصاص إلى جانبه، ويسـجّل فيه مرّات الرّبح والخسـارة بدقّة المحاسـب. كانا يلعبان حتّى وقت متأخّر مـن اللّيل وخلال لعبهما يضحك واحـدٌ منهما ضحكة عالية أو يصرخ صرخة انتصار عالية توقظ القرويّين الّذين بالقرب منهم.

كان يراقب تفاصيل وجهها في تلك الأمسـيات، انحناء فمها وخطوط الضّحك الّتي ترتسم بشكل خفيف على حوّاف شفتيها وحتـى أنفها. والتقوّس الرّقيق لحاجبيها وآثار العبوس العموديّة بينهما الّتي كانت تظهر عليها عندما كانت تعبس وغالبا ما كانت تفعل ذلك، كأنّها كانت تفكّر بحلّ مشكلة ما في داخلها.

مـع أنّ الحديث كان سـهلا بينهما لكنّـه كان يدور بارتباك حيث ينتهي ويبدأ من جديد. وكان كلّ منهما يمدح الطّعام والليل بإفـراط. ولم يجرؤ أيّ منهما على أن ينظر في وجه الآخر دون

أن يتسلّح بالكلمات المناسبة. مرّت اللّحظات وقضياها في الأكل ولعب الورق والصّوت الوحيد الّذي تمكّنا من سـماعه هو صوت الأمواج وسرعة عَدْو الوزغ(*) على الجدران.

«شكرا على ذلك». قالت.

أومأ لين وقشّر برتقالة ووضع جزءا منها في يدها الممدودة.

بدا لها أنّه حتّى عندما كان دارو على قيد الحياة كان أغلب وقتها بصحبـة لين. كان هناك عبءٌ جديـدٌ عليها عندما كانا سويّا وكلّ منهما واع للانجذاب الموجود بينهما الّذي كان مخفيّا قبـل ذلك. فكّرت فـي الوقت الّذي كانا فيه سـويّا في الدّلتا، وهـو الوقت الوحيد الّذي كانت فيه وحيدة مع دارو وبعيدة عن العمـل. ومع أنّهما كانا على علاقة حبّ لكنه كان هناك شـعورٌ بالغيرة والشكّ الدّائم بسـبب شرود أفكاره وتركيزه في أشياء أخرى.

كان هناك عامل خلاف صغير وتنافسٌ دائمٌ بينهما. لم يرغب دارو في إقامة علاقة انسجام وشبع.

بعـد تناول الوجبات كانت هيلين تأخذ حمّاما وهي تسـدل سـتارا حـول البركة الهلاليّة، ثمّ تغفو وهـي لا تزال مبتلة، قبل ظهور النّجوم الأولى.

ما زال المطر محتجبا. انحسر الماء في الصّهريج إلى مستوى منخفض ثمّ أصبح مالحا قليلا بسـبب الوحل في أسـفل قدور الصّلصال.

لم يبرد الهواء في اللّيل لكنّه بقي حارّا وواخزا ومثقلا بالمطر الّذي رفـض أن يهطل. اختار لين أرجوحة معلّقة بين شـجرتي

(*) الوزغ: نوع من السحالي ينتمي لفصيلة الزواحف، يسمى بالعامية (أبو بريص أو بريعصي). (الفاحص)

نخيل، واستلقى آملا في نسمة باردة تأتي من الماء. حمته أغصان النّخيل الكثيفة المتراكبة من الشّمس والمطر إن أتى.

هكذا أصبح غير المرئيّ مرئيّا.

ملأ صوت الأمواج رأسه قبل أن يغفو ويسترسل في أحلامه عندما فاجأه صوت أيقظه في إحدى اللّيالي. ومع أنّ الأرجوحة كانت في ظلّ عميق ومكان كامل الظّلمة لكنّ بدر تلك اللّيلة أضاء كلّ شـــيء من حوله. أدار وجهه للناحية الأخرى من اتّجاه البركة الهلاليّة.

كانت هيلين مغمورة في البركة لا يظهر إلّا رأســها وشعرها الــذي كان مملّســا للخلف، وقد انحنت وهـــي تنظر إلى القمر. كان وجهها كالزّنبقة على ســطح الماء. وللحظة قصيرة تخيّل لين صـــورة أميرة فيتناميّة من الأســطورة الّتي تحكـــي أنّها أغرقت نفسها في بركة كهذه بسبب الحزن على حبيب فارقته. لم يخبر هيلين بتلك الأســطورة قبل ذلك، بـــل كان قد أبعدها عن ذهنه، فالأمريكان لا يفعلون أشياء كهذه.

شـــعر بالغرابة والارتباك بســـبب تأكّده من أنّ هيلين عرفت مكان نومه، لكن شـــعر بالذّنب مع ذلـــك لكونه هناك. أيمكن أن يكون ذلك حلما؟ استدار بحزم وظهره مواجهٌ للبركة وأغلق عينيه بشدّة. مازال يحبس أنفاسه وهو يجتهد لسماع صوت رشّ الماء. أمســـك قميصه مـــن نهاية الأرجوحة ووضعه فوق رأســـه ليكتم الصّوت. تاق أن يرى جســـدها لو لمرّة واحدة لكنّه أجبر نفسه ألّا يطيع تلك الرغبة. أتت إلى ذهنه أسطرٌ من قصيدة كيو:

«في ماء حمّامها المعطّر..

غمرت كيو جسدها كزهرة ربيع...

وبنقاء فتاة مغناج...».

استيقظ مصدوما أنّه قد غفا، وتأكّد أنّ كلّ ما حصل كان حلما. كم طالت غفوته؟ كان قميصه على الأرض، استدار باتّجاه البركة ورأى أنّ هيلين لا تزال واقفة هناك وظهرها باتّجاهه ونصف جسمها ظاهرٌ تحت ضوء القمر.

استدارت ووجهها بين يديها ثمّ نظرت محدّقة في الظّلام إلى المكان الّذي كان مستلقيا فيه. تاقت إليه وشعرت بالذّنب لتوقها ذاك. «غطّني».

أكان السبب صوت الرّيح بين أغصان النّخيل؟ ربّما كانت رغبته تخادعه.

ثمّ قالت مرّة أخرى: «غطّني».

إذا ذهب إليها فستتغيّر حياته، وإذا لم يذهب فستتغيّر حياته أيضا وستذوي. لم يكن لديه خيارٌ آخر إلّا أن يذهب إليها. نهض وهو يتحسّس معصمه بأصابع يده الأخرى. مضت خمس سنوات على فقدانه زوجته (ماي). مشى إلى البركة حيث كان الماء باردا على جلده المحترق وغطّى كتفيها بقميصه وضمّها إلى صدره قريبا من قلبه.

لم يتوقّع شيئا أكثر من تلك اللّحظة، فقد كان ذلك أكثر ممّا ظنّ أنّه سيحصل عليه في حياته.

كانت يداه ترتجفان وهو يمرّرهما على منحدرات كتفيها الرّقيقة. مدّت أصابعها تحت ذقنه وقرّبت عينيه من عينيها.

«لا بأس إن لم تكن تحبّني» قالت.

هزّ رأسه لسخافة الأمر، لأنه كان واضحا أنّه أحبّها منذ أوّل مرّة وقعت عيناه عليها، وكان الحبّ يكبر ويتعمّق مع الوقت. كانت أكبر هديّة من دارو أنّه لم يذكر لها افتتان لين الواضح بها، لذا لم يكن لين مضطرّا أن ينفصل عن علاقة الصداقة بينهما.

جعلتهمـــا الرّغبة غريبين عن بعضهما من جديد. قادها لين ومشـــيا يدا بيد إلى البيت واستلقيا على السّجادة. كانت الرّغبة ملحّـــة بعد مرور كلّ هذا الوقـــت فلم يتحمّلا مرور لحظة أخرى دون أن يعرفـــا بعضهما أكثر. كانا يتلمّســـان بعضهما كالأعمى الّذي يتلمّس طريقه؛ اكتشـــف جسدها في أصغر تفاصيله حتّى حجم إصبعها كما لو أنّها كانت المكان المجهول على الخريطة.

ســـمع الأنفاس الثّقيلة الّتي تخرج مـــن رئتيها، صرخات لم يتمكّن أحدٌ آخر من ســـماعها وكانت له هو فقط، أحس بضعف أجفانها المغلقـــة ووضوح العروق الزّرقاء تحت جلدها، أمســـك انحنـــاء ظهرها برّقة كأنّه يحميها ويتلمّـــس التّضاريس الرّقيقة لعمودهـــا الفقـــري. وضمّد أصابعه ومعصمه بضفائر شـــعرها الشّافية.

أمضيـــا ســـاعات طويلة في ظلّ الأشـــجار وهما يشـــاهدان تحرّكات القرويّين جيئـــة وذهابا بين البيوت والمحيط. لم يتكلّما لفترات طويلة من الزّمن فقد كان الكلام غير ضروريّ. كانت تلك المرحلة الجديدة من الحميميّة ببساطة إثمارا لارتياحهما السّابق بصحبة بعضهما البعض. ذهبا إلى الشّاطئ في وقت متأخّر من بعد الظّهر بعيدا عن العيون الفضوليّة ومشيا كلّ على حدة حتّى وجدا ســـاحلا منعزلا. دخلا الماء الّـــذي كان بدرجة حرارة الدّم وسبحا بسهولة في السّائل المالح الدّافئ وتحرّكا باتّجاه بعضهما كحيوانات البحر، واللمسات والنظرات والأيادي متشابكة.

عادا إلى البيت مرهقين واســـتلقيا على السّـــجادة من فرط الدّفء وثقل الأطراف. كان الشّـــغف مخدّرا. كان لين يريح رأسه في حضنها ويشـــعر بحرارتها من فوق الشّرشف الخفيف حيث كان يضع أنفه عليه ليستنشق رائحتها المالحة.

«ماذا سنفعل بعد الحرب؟» سألها.

«ماذا تعني بكلمة (بعد)؟ لم تعد الحروب تنتهي كما في السّابق». قالت.

ابتعدت عنه وضحكت قائلة: «أظنّ أنّ السّيدة شوان تتجسّس علينا فهي وأصدقاؤها يقفون بالقرب من السّياج في فترة بعد الظّهر».

كان يجب دفع ثمن السّعادة، وكان ذلك دليلا لا يمكن دحضه، ويمكن لباو أن يستخدمه ضدّه. سحبها لين إليه من جديد ووضع رأسه أمامها. أيّ ثمن لهذه اللّحظة غير مهمّ. «العجائز الثرثارات».

«ربّما لا يعجبهنّ وجودك هنا مع أمريكيّة».

«الجنيّات الثرثارات».

حدّقت في السّقف ومرّرت أصابعها على شعره «أخبرني شيئا عن نفسك، شيئا لا أعرفه».

«لماذا؟».

«لأنّنا عشّاق، لأنّه حان الوقت لذلك. مَن كان لين قبل مجيء دارو؟».

امتعض وعدّل جلسته: «أخبرتك عن جيش فيتنام الشّماليّ والجنوبيّ». كان قد لاحظ نظرات السيّدة شوان الطّويلة خلال الأسبوع الماضي لكنّه تجاهلها. ربّما دفع لها باو لتتجسّس عليه.

«إذا لم تكوني تعرفينني الآن، فكيف ستعرفينني في الماضي؟».

«أخبرني عن زوجتك. كيف التقيتما؟».

جلس لين على الأرض من جديد. «كانت عائلتي تعيش في المدينة وتنازلوا للعيش في القرية بعد التّقسيم عندما غادرنا إلى الجنوب. فكانت العادات غريبة علينا. كان الصّبيّة في القرية

يذهبــون إلى النّهر في الليلة مكتملة القمر ليغنّوا أغانيَ للفتيات الجالسات على الضفّة الأخرى من النّهر».

تذكّــر عندما أكل القريدس والفلفــل الأحمر الحارّ الّذي كان أصغر من إصبعه، والذي ترك فمه محترقا، كان يشرب الجعة الّتي يحضرها أخوه الأكبر (تشــا) مع أصدقائه. وكان يشــعر بالضّيق فــي معدته حين يتذكّر المصابيح الملوّنــة المعلّقة على أطراف النّهر ليتمكّنوا من الرّؤية بشكل أفضل تحت انعكاس ضوئها على سطح النّهر. كان يضيّق عينيه قليلا ليتمكّن من رؤية وجوه الفتيات اللّواتي كنّ مشــبوبات بلون صاف. لكنّ وجه (ماي) كان في غاية الوضوح، وكانت الأضواء الزّرقاء تُظهر ملامحها كضوء القمّر في اللّيل.

«وكانت الفتيات يغنّين أغنية ردّا على الصّبيّة، ويقضون اللّيل هكذا. كان كلانا بعمر الخامســة عشــرة عندما رأيتها تغنّي لي عبر النّهر».

«اختارتكَ؟».

أنزل رأسه في حضن هيلين وقال: «اختارتني».

«إنّهــا قصةٌ جميلــةٌ». داعبت كتفه ورقبتــه برقّة أصابعها.

«كيف التقيت بدارو؟».

«ذهبتُ أطلب عملا من دارو وكان بحاجة لمساعد».

«مذهل».

«وجعلني أطير إلى إنغكور في اليوم نفسه».

«تلك كانت الفترة الّتي عشق فيها المكان، أليس كذلك؟».

«قال غاري أنّ لا أحد آخر سيعمل معه».

ضحكت هيلين وقالت: «أنا سعيدةٌ أنّك بقيت معه».

وقف لين واســتأذن بالانصراف وكانت هيلين قد أوشكت أن تغفو عندما عاد يقطر ماء.

«هل ذهبت لتسبح؟».

هزّ رأسه وقال: «التقيت به مرّة واحدة قبلا».

«من تقصد؟ دارو؟».

أومــأ لين برأســه «أتى ليصوّر التحــرّكات مع مجموعة من جيش فيتنام الشّمالي والمستشارين من الأمريكيين».

«أوه».

ابتعــد عنها. أخبرها لــين القصّة الّتي لم يكــن قادرا على إخبارها قبلا، وقد كانت القصّة الوحيدة المهمّة. كان مســتيقظا وهيلين ترتجف وركبتاها بالقرب من صدرها ووجهها بين ذراعيها المطويّتين. ومن دون تفكير أمســك بكاحلــي هيلين كما لو أنّهما مرســاةً، كلّ واحد بيد، وأصابعه مشــدودةٌ حــول زوايا عظامها الحادّة، ولم يعرف إن كان يمسك بها أم بنفسه.

شــعر بالخطــر أنّه بعــد أن أخبرها بكل ذلــك فلن يحتمل وجــوده معها أكثر. فقد كان الجرح شــديد العمق، ولا يمكن أن تشاركه فيه، لكنّها شاركته بدموعها. أصبح حزنه هيكلا عظميّا فــي وحدته. تمنّى لو لم يكن مضطــرّا أن يكون كذلك، تمنّى لو اســتطاع اســتيعاب الألم وحده وإبعاده عــن الآخرين، لكن بدلا عن ذلــك بدا أنّه يمكن تقليل الألم فقط بتحويل جروح وكدمات صغيرة منه إلى الآخرين.

«سامحيني». همس لها.

بدت تحتــه كالمعجزة، كيف فتحت وأغلقــت أجنحة رجليها ويديها عليه.

«كانــت صحبتنا بين حقول الأرزّ واســتقررنا في تلك اللّيلة عندما عســكرت جماعةٌ من الكشــافة في مخيّــم خاصّ بفرقة تحرير فيتنام. انســحبنا بســرعة إلى قريتنا ووقف المستشاران

الأمريكيّان وحيدين في الميدان يطلقان السّــباب ويطلبان قوّات مســاندة لاســتهداف الغابات المتّصلة. أتت الطّائرات وأسقطت القنابــل الّتي هزّت الأرض على بعــد كيلومترات عديدة، وكانت بالقوّة الّتي جعلت القرويّين يصلّون ألّا ينتهي العالم.

بعد تنصيــب حرس في محيط المنطقــة ابتعدتُ عن المكان لأرى عائلتي وأطمئنهم.

كان أبي وأمّي يحزمان أغراضهما ويجهّزان نفسيهما للهرب مع (ماي) وأختي الكبيرة (نيها) وطفلها وأخويَّ (توان) و(تشا).

كانت أمّــي قلقة أكثر من كونها خائفــة، وبدأت تصرخ أنّها تهجر وطنا بعد الآخر منذ أن كانت فتاة صغيرة في الشّمال.

نزلت الدّموع على وجه (ماي) وأمســكت أطراف بطنها كأنّها تؤلمها. اهتزّت كحيوان يشعر باقتراب الفأس، ورجتني أن أبعدها إلى مــكان أكثر أمانا. إلى بيت أختها (ثاو) «أرجوك خذنا بعيدا عن هنا».

«لا أســتطيع. للحظة قصيرة أغضبتنــي أنانيّة (ماي) رغم سحرها النّسائيّ..لو تسنّى لي أن أختار من جديد كنت سأختار (ثاو) الّتي كانت خيارا أكثر عمليّة. قلقت أمّي أن تكون (ماي) في غاية الضعف والتّوتر ولن تكون زوجة صالحة.

قالت: «وعدت أن تأخذني إلى سايغون».

«رفاقي يعرفون أنّني هنا».

«لا يهمّ». هزّت (ماي) رأسها وعيناها تلمعان بجموح ولم تكن تراني: «سأذهب وحدي على أيّة حال».

كانت (نيها) تستمع، فاســتدارت مبتعدة لشعورها بالإحراج مــن أجل زوجة أخيهــا. كان طفلها يتذمّر بــين ذراعيها ومازال محمومــا بعد إصابته بالبــرد. كانت (نيها) حنونــة مثلما كانت

(ماي) رائعة فقد كانت مرتاحة بفضيلتها وتضحياتها.

وعدتها أنّ القنابل كانت لحمايتنا، وأنّ فرقة تحرير فيتنام كانت قد تراجعت الآن ولا يوجد شيءٌ مخيفٌ، جرّيتُ الكلمات في فمي وأنا أقولها ولم أعرف إن كان بإمكانها تصديقي أم لا، التقيت بأحد الأمريكان. «إنّهم يساعدوننا ولا أعرف ما الّذي يدفعهم إلى ذلك» قال أبي وهو يهزّ رأسه: «كانت عيون الأشجار وآذانها ترى تراجع الجنود».

كانت عائلتي ما تزال خائفة، لكن بعد هدوء الأجواء هدأت الأعصاب. أشعلت أمّي نارا صغيرة وصنعت الشّاي والأرزّ الطّازج. عندما عرضت (ماي) مساعدتها ضربتها أمّي بيدها لتبعدها. «أتذكّر في هانوي أنّ الخدم صنعوا وجبة كاملة وهي الهليون وحساء السّلطعون. وكان الشيوعيّون يمشون في المدينة. مهما حدث لا بدّ أن نأكل».

أدارت (ماي) عينيها في شكوى أنّ العجوز حوّلت كلّ شيء إلى الكلام عن قصّة ثروتها السّابقة.

«كم هو جميلٌ أن نحصل على بعض الهليون وحساء السّلطعون الآن!» تابعت أمّي قائلة.

تمّ إحراق البخور من أجل الأسلاف. كما تمّ تقديم طبق من الأرزّ كأضحية. أحنيت رأسي إلى الأرض ثلاث مرّات عند المذبح. وأكلنا في صمت.

قالت ماي: «هل لاحظت ما حدث خلال المسرحيّة والأغنية؟».

قالت (توان): «رجاء، أيّتها الفتاة الغبيّة، ألا يمكنك التّفكير بشيء أكثر أهميّة من تلك المسرحيّة الملعونة؟».

كوّرت (ماي) شفتيها ورفضتُ أن أنظر في وجهها متأكّدا أنّها كانت ستنفجر بالدّموع مرّة ثانية. حاولتُ جاهدة الوقوف

علــى قدميها دون أن تتمكّن مــن الوقوف تماما حتّى أتت (نيها) ورفعتها من تحت ذراعيها. خرجت (ماي) مع طبقها. لا أستطيع أن أقول شـيئا لأنّ (توان) كان أخي الأكبر وكان بائســا ومريرا بســبب بقائه من دون زواج. لكن لم يكن ممكنا أن يســرّني شيءٌ آخر بقدر الكلام عن المســرحيّة. أيّ شيء كان سينسيني خوفي الحاضر.

لأنّــه لم يكن لديهم خيارٌ آخر حاولوا أن يشــاركوني إيماني بأنّ الأمريكان كانوا مختلفين. عرفت أنّه كان عليّ إخبار فريقي بذلك لكنّني لم أســتطع. فبعد غياب ســنة كيف يهمّ غياب ليلة أخرى؟

نــام الجميع عنــد منتصف اللّيــل نوما متقطّعــا في غرفة مشتركة حيث كان بإمكانهم أن يتواصلوا ببعضهم بسهولة في أيّ وقت. كنت أذكر لاحقا الخوف الّذي ســيأتي في الصّباح التّالي عندما أصبح وحيدا من جديد. اســتيقظت وسمعت صوت طفل (نيها) وتمنّيت أمنية، وشعرت بالعار من أمنيتي أن أتمكّن من أن أكون وحيدا مع (ماي) مــرّة أخيرة قبل أن نفترق. أكانت (ماي) على حق؟ أكان يجب علينا أن نهرب إلى سايغون عندما كان ذلك بمقدورنا؟ كانت فكرة الهجرة حاضرة دوما كالعجين في المعدة.

ســمعنا صوت ضجيج عــواء رهيب. كما لــو كان زئيرا من باطن الأرض. استيقظنا بارتباك في منتصف اللّيل. في الخارج كان هنــاك ضربُ مدافع هاون على طرف القرية وشــظايا من النّار والأرض تتطاير في الهواء، وكانت أشــجار النّخيل وأسقف البيوت القشّ تحترق، استطعت أن أسمع الصّراخ وصوت صراخ (ماي) ونحيبها يرتفع وهي تلتقط أنفاســها ثمّ تعود للنّحيب من جديد. مــن أين أتت قذائف الهاون؟ مــن أيّ اتّجاه؟ أتى صوتٌ

ونفسٌ ونفخةُ هواء. ثم سـمعنا صوت ثلاث قذائف حطّت حول الكـوخ. علا ريش الأرض أعلى من مستـوى نخيلها. هرب جنودٌ مـن فرقتي تاركين القرية مكشـوفة، هاجمهم العدوّ من منطقة قريبة كما لو أنّه من داخل القرية نفسها.

صرخت: «بسرعة، علينا أن نغادر».

سـيدعو الأمريكان الآن قوّة جويّة ويقومون بتدمير القرية. كان أبـي لا يزال في قـوّة منتصف العمر، فركض وأحضر حبلا طويلا اسـتخدمه ليربط السّـور الّذي كان لدينـا إلى الجرّافة. كان صلبا وثقيلا والخيوط جلفـة. وأجزاءٌ منها أصبحت نحيلة بسبب الاحتكاك مع المشدّ الخشبيّ وأجزاء أخرى مكسوّة بالطّين والرّوث. قطع أجزاء من الحبـل وربط أفراد العائلة مع بعضهم حيث أصبح معصم كلّ شخص مشتركا مع شخص آخر ولم يعد لـه وحده، كانـت تلك هي الطريقة لكي لا نضيـع أو نفترق عن بعضنا، فـلا يكون هناك مجال لترك الضّعفاء أو نسـيانهم إذا حلّت حالة ذعر.

رفضـت (نيها) الحبـل، وقالت إنّ عليهـا أن تحمل طفلها. تمايلت بتردّد وقلتُ لها: إنّني مسـتعدّ أن أحمله، لكنّها استمرّت بالنّظر إلى الأسفل وهمست: «يجب الاهتمام بكل شيء».

«لا».

«الطفـلُ مصابٌ بحمّى». هزّت رأسـها «حبـل؟» وضحكت ضحكة حزينة واستدارت مبتعدة. قال أبي إنّنا سنعود لنأخذها. وهربنا من البوّابة الأماميّة للقرية وأتت امرأةٌ لطلب المسـاعدة فـي حمل كيس من الأرزّ إلـى عربتها. ومع أنّ الأب لم يقف في صفّ واحد مع أبناء قريته منذ أكثر من عشـر سـنوات وأمضى وقتـا أطول في حقول الأرزّ أكثر ممّا أمضـاه وهو يطالع كتابا،

لكنّه لا يزال يشعر بالالتزام بأن يكون مثلا أعلى للجميع.

«ماذا تفعل؟» سألته.

كان فكّه متصلّبا: «(توان) تعال معي».

«لا». قلت بينما فكّ (توان) الحبل عن معصمه. «لقد تأخّر الوقت».

غادر كلّ من أخي وأبي ومرّت الدّقائق وأصبح صفير الانفجارات أسرع وهو ينزع الأرض واللّحم كالورق. كانت النّار تأكل وتطعم نفسها والطّلقات النّاريّة تتطاير كحشرات حادّة حارّة، وأناس أمضينا طوال حياتنا معهم مرّوا بجانبنا كغرباء.

على الرّغم من أنّه كان يمكن أن نموت واقفين في مكاننا لم أجرؤ على ألّا أطيع أبي «هل علينا أن نغادر؟» سألتُ (تشا)، لكنّه بقي صامتا.

«ها هما». قال (تشا) مشيرا إلى أبي وأخي وهما يركضان باتّجاهنا وعادا وربطا نفسيهما معنا من جديد، وبدأنا المشي على الطّريق عندما دوت قذيفةُ هاون فوق رؤوسنا وأصابت كوخين على طرف القرية، واشتعل القشّ في لهيب النّار كعود كبريت بسرعة البرق. أراد أبي أن يعود من جديد وكلانا عرفنا مكان سقوط القَذيفة، لكنّي نظرت إليه وأشرت إلى أنّه يجب أن نتحرّك بسرعة وننقذ ما تبقّى.

ركضنا في الظّلام وأربكتنا الأصوات الّتي حولنا كلّها، وتبعتُ فريقي الهارب الّذي كان يتوقّف ليطلق طلقات عشوائيّة من الخلف متخيّلين أنّ ذلك سيوقف العدوّ الّذي لم يتمكّنوا من رؤيته. أصابت القرويّين العديدُ من الرّصاصات الطّائشة. وأصيبت إحدى العائلات أمامنا بقذيفة هاون وتناثر خمسة أفراد كالدّمى في الميدان. قلقتُ على أمّي وعلى (ماي) لكنّهما

كانتا منبهرتين ومصدومتين ومتعثّرتين في المشـــي. عرفتُ ذلك من وجودي مع الجنود في المعركة وكيف يتوقّف العقل عن العمل ويعمل الجميع تحت إمرة الغريزة.

وصلنا إلى حقــل أرزّ، ولحيرتنا غصنا في الوحل البارد إلى الأسفل وتابعنا طريقنا. تجمّع الوحل حول أقدامنا. وغرق الحبل بالماء فأصبح ثقيلا أكثر. وفي أيّة طريق اتّجهنا فيها كان يواجهنا جدارٌ من الطّلقات النّاريّة من كلّ اتّجاه. سلكنا الطّريق الخاطئ مباشـــرة إلى ميـــدان قتال. لعنت نفســـي لأنّني لـــم أكن جنديّا حقيقيّـــا، فقط لأنّنـــي ادّعيت أن أكون كذلـــك، لأنّني لم أتحكّم بما جرى. لقد كان الأمر أكثر رعبا بالنّسبة لي من عدم وجودي بـــين رفاقي الجنود فقد كنت تحت القصـــف مع عائلتي الّتي لم يكن لها خيار آخر إلّا إطاعة والدي المســـكين الأعمى. تلمّســـتُ بيديّ الفراغ بجانبي وشعرت بالهزيمة لمجرّد إدراكي أنّني تركت سلاحي في الكوخ خلال هروبنا السّريع. أيّ نوع من الجنود ذاك الّذي ينسى سلاحه؟

خذلتني الشّـــجاعة من جديد، وبالكاد اســـتطعت أن أمشي. كان تقدّمنا بطيئا، فقد كانت النّسوة ينزلقن في الطّين ويسحبن معهنّ أذرع الرّجال حتّى أصبحنا نصفين. وكان الأمل الوحيد هو الوصول إلى الطّرف الآخر وإلى الجنود، لكنّهم كانوا أســـرع منّا لأنّهم كانوا دون حمولة. حكّ الحبل معصمي وجرحه.

تساءلتُ دوما ماذا لو؟ ماذا لو تولّيت أنا الأمر واستدرتُ إلى اليســـار بدلا من الاستدارة إلى اليمين؟ ماذا لو أخذتهم ليختبئوا في الغابة وليس في الحقل؟ لكن الخوف تملكنا في منتصف تلك اللّيلة لأنّني لم أكن متأكّدا من أي شيء، فأنا لم أفعل شيئا.

حدث الأمر عندما كنّا في الحقل محاطين بالأشـــجار حيث

تعرّض (توان) إلى طلقة فــي حلقه. كان الضّجيج المحيط يصمّ الآذان ولم يكسر الظّلام إلّا أشباح أضواء النّيران المتطايرة الّتي لاحظناها فقط بسبب الوزن الزّائد في الحبل.

نزلت (ماي) الّتي كانت أمامه على ركبتيها. أمّي جلســت في الوحل محاولة إيقاف الدّم بقطعة قماش. أمّا (توان) الّذي كانت هوايته المفضّلة إمســاك الضّفادع في الحقل حيث كان يُلبسـها تيجانا من قشــور النّخيل، فهو ذاته أخي (توان) الّذي كان يَخاف مــن الظّلام، لذلك فكّه أبي، وفجأة رأيت عشــر ســنوات تخطّ على وجهه. ولا خيار أمامه إلّا أن نترك جســده نصفَ غارق في الطّين، ووجهَه مرتفعا على حجر صغير.

توقّف الوقتٍ أو مرّ بســرعة، ضيّعنــا دقائق أو ضيعنا زمنا أبديا ونحــن نتحرّك. ارتجف المطر في الهــواء فأتت القطرات خفيفة في البداية ثمّ أصبحت تضرب على ظهورنا.

كنا نرتدي أحذية ثقيلة من الطّين في أرجلنا، وبدأنا نمشــي بأوصالنا المرهقة وعضلاتنا المصابة بالخدوش. شقّت رصاصةٌ طريقها إلى صدر (تشا) بصوت صغير حادّ كسهم ضرب خشب شــجرة. (تشا) الّذي كان يســتمتع بإحضار الحلوى إلى (ماي)، انتفض جسده إلى الخلف كأنّ ريحا قويّة ضربته وأسقطته على الأرض. تعثّــر بالحبــل الطّويل الزّلق بعد أن أضاع ســكّينه في الوحل. أحنى رأسه بوجهه الّذي شاخ كعجوز وقال لي: «عليك أن تأخذ مكاني من الآن فصاعدا».

أمرتُ النّسوة أن يبتعدن وأخذتُ سكّيني وقطعت الحبل الّذي ربطنــا. توقّفتُ قليلا ثــمّ ذهبتُ إلى كلّ فرد مــن أفراد العائلة وقطعتُ العقدة الّتي على كلّ معصم، إذا نجونا فســيكون كلّ منّا وحيدا. سقطت قطع الحبل على الأرض كالأفاعي.

تأوّهت (ماي) ورفعت شعرها بيديها وهي جالسةٌ في الطين. «انهضي يا (ماي)». هزّت رأسها فرفعتُها لتقف على قدميها. كانت معدتها كبيرة وقاسية وبارزة، لكنّها أثنت ركبتيها ونزلت على الأرض من جديد «أرجوك يا حبيبتي»، فتأوّهت بصوت أعلى عندما نظرت إلى (تشا) ويداها تضغطان على جانبيها. سحبتها للأعلى وصفعتها على فمها: «يكفي! ستمشين». وقد كانت تلك أولى كلماتي القاسية منذ أن تزوّجنا.

اومأت برأسها بعد أن احسّت بتأنيبي وخطت خطوة كئيبة ثمّ خطوة أخرى، ولم ننظر للخلف أبدا.

تلك هي الطّريقة الّتي تعلّمنا فيها كيف ننجو.

بعد ساعتين أصبح القتال متقطّعا ولم يبق إلّا طلقات القنّاصة وضربات الهاون البعيدة الّتي ضربت الأرض من وقت إلى آخر. توقّف المطر، وكانت أجسادنا مبلّلة وباردة ومتعبة.

أطلقت (ماي) صرخة ناعمة، وجلست على الأرض متّكئة على شجرة محطّمة ومعدتها ثقيلةٌ تجذبها للأسفل كمغناطيس. في اللّيل المظلم سال دمٌ أسود من بين رجليها. فضمّت رجليها مع بعضهما وتذكّرت بصوت عال كيف ضحكنا في ذاك الصّباح عندما قلّد (تشا) رقصتها. «يبدو أنّه مضى الكثير من الوقت» أصابها ألمٌ عميقٌ وقاهرٌ. قالت إنّها كانت على خطأ في أنانيّتها عندما صلّت أن نكون سعداء سويّا لدرجة أنّها أخفت المال لتشتري قلادة ذهبيّة للطّفل. لقد أغضبت الله. «أردتُ أن نذهب إلى سايغون لترى أنّني لست زوجة عديمة الفائدة».

فركت قدميها اللّتين كانتا متجمّدتين كحصى النّهر الصّغيرة «سنذهب الآن».

همســت أمّي في أذن (مــاي) ووضعت يدهــا على معدتها وأخرجت ســترة من حقيبتها وطلبت من (ماي) أن تضغطها بين قدميهــا لتوقف ولادة طفلها في تلــك اللّيلة. كانت (ماي) هادئة وقـد نضجت فجأة مــن كونها فتاة وتحوّلت إلــى امرأة حكيمة لا تشبه فتاتي، ممّا أقلقني.

«ســنذهب إلى ســايغون» قلتُ بصوت أعلى، وبــدأت أعلّق ما تبقّى من الحبل على صدري كحيوان الماشية.

أتى أبي ولمس كتفي وقال: «يجب أن نعود إلى القرية».

«لا يمكننا ذلك».

«من الأفضل أن تذهبا وحدكما، ربّما تلحق بكم (نيها)..».

كنــت مرهقًا جدًا ولم أســتطع الجدال فأشــرتُ برأســي موافقا. جلست (ماي) مرهقة على سرج الحبل الّذي على ظهري وأسندت رأسها على كتفي، وبعد أن عبرت بقي أبي وأمّي واقفَين عند الشّــجرة المحطّمة، وحتّى الآن هذا هو المكان الوحيد الّذي أتخيّلهما فيه.

«سامح حماقتي». همست (ماي). لكنّي لم أستمع لها، وبدأتُ أمشي باتّجاه الجنوب باتّجاه الجيش، باتّجاه الوهم بالأمان.

فقدتُ الإحســـاس بالوقت، لكنّ (ماي) مرّرت أصابعها على عنقــي خلال اللّيــل وكان ذلك مصدر راحتي الوحيد والشّــيء الوحيد الّذي شجّعني.

مشــيتُ طوال اللّيل وأضعت حذائي في الطّين. مشيت رغم جراحي ورغم أقدامــي الدّامية دون أن أجرؤ على التّوقف حتّى عندما وصل بي العطش إلى أن تشــقّق حلقي كأرض نهر جافّة، لكنّــي تابعت المشي. كدتُ أموت ماشيا. غفت (ماي) خلال اللّيل ويداها على طرف جسمها.

ثمّ أضاءت السّـماء كملاك وكائن نورانيّ، تلوّنت بلون اللؤلؤ الرّماديّ من جهة الشّـرق، وظهر وجه الشّمس المتعب كما لو أنّ ضـوء النّهار كان خجلا أن يضيء الأرض. سـاد الهدوء لدرجة أنّنـي سـمعت زقزقة أحـد العصافير على شـجرة كنـت مارّا بجانبها، كانت معجـزة أنّ يوما كهذا تبع تلك الليلة. وصلت إلى الطّريق السّـريع في الجنوب وانضممت إلى حشد من اللّاجئين أتوا من القرية مثلنا. كان حلقي متقرّحا كالجرح المفتوح، تمتمتُ: «أصبحنا قريبين الآن».

مشيتُ حتّى شعرتُ بأحد يسحب كمّ سترتي فنظرت ورأيت وجها مجعّدا لامرأة عجوز. هزّت رأسـها بحـدّة كأنّها تطرد عنها شبحا. لم أستطع أن أفهم كلماتها من فرط التّعب، رأيت فقط شـفاهها الغائرة وأسـنانها القليلة المليئة بالبقع والمائلة للسّواد. أشـارت بيدها إليّ أن أستلقي فأصبحت فكرة النّوم مسـيطرة عليّ بعد كلّ هذا التّعب. كنت سـأتابع المشي حتّى أسقط مغشـيّا عليّ. تابعت المشي حتّى وصلت إلى الأعشاب الطّويلـة على طرف الطّريق، وعندما بدأتُ بفكّ عقدة الحبل عن صدري لاحظتُ ثقل جسم ماي البارد، وعندما ركعت ببطء علـى قدمي لإنزالها أدركت أنّني لم أشـعر بحركة منها طوال اللّيل أو أيّ نفس دافئ. عندما وضعتها على العشـب الطّويل الملوّن باللّيلك نزل شـعرها الطّويل علـى الأرض، رأيت فيها شـحوب الموت اللّؤلؤيّ الرّماديّ وعرفت على الفور لماذا هزّت العجوز رأسـها وأعطتني باقة صغيـرة من الورد الأصفر قبل أن تبتعد. لقد حملت جثّة طوال اللّيل لكن روح (ماي) أنقذتنـي بطريقـة ما. هكذا ينتهي العالم بلحظة، ثمّ يبدأ من جديد في اللّحظة الّتي تليها.

انحنيتُ بين العشــب ورأيت أنّنا كلينــا ملطّخان بالدّم وأنّها نزفــت طفلنا حتّى الموت. نظــرتُ إلى جانبي الطّريق السّــريع ورأيت جثثا وأناسا على أطرافه، وعندما نظرت إلى وجوه النّاس أدركت أنّنا كنّا جميعا الموتى الأحياء ولم ينجُ أحدٌ منا.

أحنيت رأسي وباقة الورد مازالت بين قبضة أصابعي. كانت العائلات الفقيرة تشــتري من تلــك الأزهار وتضعها على مذابح العائلات.

كانــت البتــلات قــد ذوت وتكاثر عليهــا الغبار مــن كثرة الاستخدام، والورود الصّفراء تفتّتت في المكان الّذي أمسكتها به العجوز. لكنّي مع ذلك عندما قرّبت الباقة من وجهي اســتطعتُ أن أشــمّ رائحــة ورود البرتقال الطّازجة الّتي فاحت من شــعر ماي. وهكذا دفنتُ زوجتي تحت الشّجرة الّتي غنّى عليها الطّير، ووضعــتُ باقة الأزهار في فمها. كانت الأزهار بلون أصفر باهت ومغبرّة من الحزن، لكنّها كانت كلّ ما تبقّى لديّ لأعطيها إيّاه.

(18)
كات كاي داو
اقطع الرأس

بحث لين في الصّباح التّالي عن السيّدة شوان ووجدها تطعم سمك السلّور في بحيرة القرية الكبيرة بمخلفات الأطعمة.

«نحن بحاجة إلى صندوق لنضع فيه نبات الكوثل والتبول والأقراط الذهبيّة. هل بإمكانك أن تحضّري وليمة صغيرة مؤلّفة من ستّة أطباق على الأقلّ، وذلك للقرية بأكملها؟» سأل.

شعر بالسّرور عندما رأى حاجبَي السيّدة شوان ترتفعان وثرثرتها تقف عند هذا الحد، فضمت شفتيها عندما أعطاها لين النّقود وقالت: «متى؟».

«قريبا بعد يوم أو يومين على الأكثر، علينا أن نعود إلى سايغون».

«أبهذه السرعة؟». قالت بعد أن فكّرت أنّ الوقت يمكن أن يسمح لها بأن تنقل المعلومات لباو مقابل جائزة أكبر.

عرف أنّ العجوز لن تتخلّى عن المبلغ المالي الّذي ستكسبه.

«سنقوم بالمراسم في سايغون بدلا عن ذلك، فهي تفضّل هذا».

«لا، لا.. إنها عروسٌ جائعة ولن تصبر على ذلك».

أغلقت السيّدة شوان عينيها في جهد فاشل لتبدو على

طبيعتها وسحبت بسرعة يدها المليئة بالدّولارات.

بدت هيلين هادئة عندما أخبرها لين عن نواياه في أن يقيم احتفالا، فهي لم تستوعب مضمون الوقت الّذي قضياه سويّا بعد. لكن بعد أن سمعته عرفت أنّه كان يتكلّم بجديّة. لم يظن أحدٌ إلّا الأمريكان أنّ فيتنام كانت إباحيّة كبيوت الدّعارة وحانات سايغون. بل كان المجتمع محافظا ولم يسمع أحدٌ عن علاقة خارج نطاق الزّواج. بدا لين في بعض الأحيان غريبا؛ لأنّه أصبح الآن حبيبها وقد كانا قبلا مجرّد أصدقاء. «ألهذا الأمر علاقةٌ بباو؟ هل سيغضبه أن يعلم بما جرى؟».

«حفظُ ماء الوجه أمرٌ مهمٌّ، وهو مهمٌّ بالنّسبة لي أيضا» قال. كانت تلك مناورة جامحة ليحمي هيلين لكنّه خمّن أنّ باو سيفهم معنى الشّهوة.

كان باو مشغولا طوال السّنة الماضية بالعمل في مجال المخدّرات بينما كان لين مشغولا بعمله، ولم يسلّما أي تقارير لصالح جيش فيتنام الشّمالي منذ وقت طويل. وفي محاولة يائسة ليبدو مشغولا خطّط باو أن تقوم فرقة تحرير فيتنام بالقبض على هيلين وسجنها. وربّما سيجعلها تلتقط صور الطّرف الآخر وتسريب بعضها إلى الخارج. فكّر أنّ ذلك سيجعله يهتمّ من جديد بمهمّته ويُسكت الحديث عن تعيينه في مكان أقلّ إغراء في الشّمال.

«لمَ لا نقيم احتفالا مدنيّا في سايغون وندعو إليه غاري والآخَرين؟» قالت هيلين.

«سنقيم احتفالا بوذيّا في البداية».

«تعرف أنّني لا أستطيع الإنجاب».

«أنتِ كلُّ عائلتي» قال.

فركت هيلين جبهتها، فقد كانت تعيش في عالم الأحلام في القرية، وهـو الآن يجبرها أن تفكّر بسـرعة لكن أفكارها أتتها بكسل. كيف تمكّنت أن تشرح له عن قلبها الخائن الّذي لم يمنعها أن تحلم بدارو في الوقت الذي كانت فيه بين ذراعيه. قادها إلى الجنون أنّها تشـعر بالألم نفسه من وجودها في الحرب مع لين مثل نفس الألم في حال ابتعادها عنه. تحوّل الانكسـار بداخلها إلى شـيء آخر لم تعرف بعد ما هو. أيمكنها أن تحبّ شـخصا يتغيّر؟ هي لم تحبّ لين وربّما أحبّت شبحا. إنّ العقل غدّار.

كان الاحتفال بسـيطا ولم يحضر إلّا بعض الأشخاص الّذين شكلوا سـكّان القرية بأكملها. كان العروسـان أصغر سنا بعدة بعقود عن أصغر الحاضرين في الحفل. كانت فترة ظهيرة مكبوتة هادئة، والغيوم متفرّقة في السّماء وقطرات المطر تتساقط.

فـي الرّيـف كان الوقت يمرّ بصعوبة مهمـا امتلك المرء من المال، والسـيّدة شوان لم تتمكّن من شـراء خنزير يليق بالوليمة فقامت بتقديم سمك السلّور والقريدس ولحم الجاموس.

وقـف لين مع هيلـين أمام مذبح صغير مـن عيدان البخور واسـتعار صورا لوالديه وإخوته وأخواته و(مـاي) من عمّته. تمّ تقديم كأس من الكحول والأرزّ وطبق من الطّعام خلال الاحتفال. انحنـى أمام صنـدوق أوراق نبات التنبول وجـوز الأريكا ليكون ذلك رمـزا للتّوحّد والثّقة بزواجهما، وقدّم لهيلين أقراطا ذهبيّة تقليديّـة ليكمل عهـود الزّواج. خاف من شـعوره بالأمل بقضاء مستقبله معها.

وقفت نسـاء القرية مجتمعات في مؤخّرة البيت. والسـيّدة شوان واقفةٌ في المنتصف. وكانوا يخرجون أطباق الطّعام الّتي تمّ إدخالها ووضعها على الطّاولة خلال الاحتفال القصير. وعندما

صفّق لين بيديه دعـــا الجميع ليأكلوا هجموا على الطّعام بعيون مفترسة وأصابع كالمخالب.

بعـــد أن أكل القرويّون أصبحت معداتهم مشـــدودة كالطّبول وجلســـوا في الحديقة وقضوا اللّيلة في الشّرب، لكنّ لين وبّخهم وأبعدهـــم عن البيـــت وأعطاهم مـــا تبقّى من أطبـــاق الطّعام. ضحكـــت العجائز الثّلاث وقلنَ: إنّه عريـــسٌ متلهّفٌ، لكنّ إحدى النّســـوة وهي صديقةٌ مقرّبةٌ من السيّدة شوان قالت: إنّه قد قام بواجبه كعريس مســـبقا طوال فترة الأســـبوع الماضي، وانفجرنَ جميعا ضاحكات.

«يكفي». قال لين «دعونا وحدنا».

جلســـت هيلين الغافلـــة عن كلّ الكلام بجانـــب البركة وهي تشـــاهد الغيوم تتحرّك أمام القمر. ذهب لين إليها عندما غادر الجميع «ألا تشعرين بقطرات الماء؟ أنت مبلّلة».

«أنا سعيدةٌ».

حملهـــا إلى البيت وقد تغيّر عطشـــه إليها وأصبح أكبر كما لو أنّه يشـــرب ماء البحر الّذي يجعله أكثر عطشا مع كلّ شربة. اســـتيقظ في اليوم التّالي في وقت متأخّر بعد الظّهر، كان وجهه أكثر نحولا وهناك هالات ســـوداء تحت عينيه كما لو أنّها فاكهةٌ مخدوشة، لكنّه عندما لمس جلدها من جديد أعطاه ذلك شعورا كتيّار كهربائي، فرغب أن يغزو كلّ جزء منها مرّة أخرى.

أصبحـــت هيلـــين الآن تطلب الطّعام من الســـيّدة شـــوان. فاستحســـنت العجوز تصرّف الأمريكيّة الجديد الأشبه بتصرّف الزّوجـــات. أحضـــرت هيلين الطّعـــام إلى لين بينمـــا كان نائما ومســـحت عرقه بإسفنجة مبلّلة بالماء الدّافئ بعد أن كان كلاهما يتصبّبان عرقا ويشعران بآلام في العضلات والعظام.

أعطاها الاعتناء به متعة عميقة في تلك الأيّام، وهو شيءٌ لم يكن يسمح به قبلا. وأخيرا، انتهى شغفهما مثلما تنتهي الحمى، وحلّقا سويّا في الهدوء الّذي يتلو ذلك الإحساس.

أصبح الأمر أكثر وضوحا في الأيام اللّاحقة؛ إنّ هيلين ولين لن يستطيعا أن يحبّا بعضهما بقوّة وأنانيّة العشّاق الشّباب. لقد أحبّا بعضهما كقدّيسين علمانيّين بغيرة شديدة، وبمعرفة بآلام بعضهما ومحاولة تجنّبها. لقد أحبّا بعضهما بحيطة مَن يعيشون في منتصف العمر.

عادا إلى سايغون وانتقل لين إلى الشّقة الملتوية في تشولون. لم يكن بإمكانها أن تحضر رجلا آخر إليها؛ لأنّها كانت مقدّسة ومدنّسة في الوقت نفسه.

تلقّى لين رسالة متوقّعة خلال أيّام معدودة مفادها أنّ باو يريد الاجتماع به. لقد توقّع تلك الرّسالة وردّ عليها برسالة أنّه من الخطر أن يلتقيا في المدينة، واقترح أن يلتقيا بالبيت في غابة (هو بو).

استقلّ لين السيّارات العسكريةَ إلى كوتشي، ثمّ ركب الدرّاجات الناريّة والدّراجاتَ الهوائيّة، وقد كان ذلك هو الجزءَ الأخير من الرّحلة.

توقّف في ليلة ما قبل الرّحلة ليتناول وجبة ويستريح عند البائع الّذي يقف على طرف الطّريق، ويشترك في محادثات مع العديد من الرّجال وهو يضع يده في جيبه من وقت إلى آخر متأكّدا من ملمس الأسلاك الناعم. بعد الأكل مشى وحيدا طوال السّاعات الأخيرة إلى الغرفة المهجورة في الغابات.

هبّت الرّياح عند شروق الشّمس بقوّة كبيرة، وتسبّبت في اهتزاز الأوراق على الأشجار وتشابك الأغصان وسقوط الفاكهة

الّتـــي لم تكن قد نضجت لتســـقط بعد. وجد لين ســـعادة كبيرة خلال الأسابيع الّتي كان موجودا فيها مع هيلين، لكنّه الآن أصبح يشعر بوزن ذاك الحبّ وثقله.

خجل من شعوره بالرّاحة لوجوده وحيدا. مشى على الطّريق المهجور وحيدا وخطر في باله أنّه يســـتطيع أن يتابع المشـــي ولا يعود.

كانت تلك فكـــرة جبانة. هبّت الرّياح علـــى الغيوم وأضاءت السّـــماء بأضواء حادّة أتت من النّجوم الّتي بدت كزجاج مكسّـــر على طاولة سوداء. أسرع لين في خطاه.

جلـــس باو على طاولة خشـــبيّة خشـــنة وشـــرب من زجاجة برانـــدي غالية الثّمن من نوع نابليون. وعلى طرف الطّاولة تحت ضوء المصباح بدا متعبا وأصغر ممّا رآه لين آخر مرّة. كان الشّعر الرّماديّ فوق صدغيه متكاثرا ورأى هالات ســـوداء تحت عينيه. وكان هناك عصا مســـنودة إلى جانبه. مرّت سنواتٌ عديدةٌ منذ أن بدأت اجتماعاتهما ســـويّا. عندما رأى لين ابتسم وكشف عن سنّه البنّيّة القصير والكبير.

«لَم أسمعك تقترب» قال «انضمَّ إليّ».

«لِمَ لا؟» جلس لين في الكرسيّ المقابل.

«سِمعت أنّه يجب أن نشرب نخب الزّواج».

لم يقل لين شيئا بل اكتفى بالابتسام فقط.

«في الحقيقة عندما أخبرتني الســـيّدة شوان أنّه تمّت دعوة القرية بأكملها تساءلت إن كانت دعوتي قد ضاعت».

لم يقل لين شيئا.

«تعـــالَ. ليس لدينـــا الكثير من الوقت. يبدو لي أنّ الســـؤال الأهمّ الآن هو ماذا سنفعل في الوضع الحالي؟».

«هذا نوعٌ جيّدٌ من البراندي». قال لين وهو ينظر إلى كأسه.
«أأعجبك الطّعم؟ ربّما يمكن للأمريكان أن يشتروه لك الآن».
«لماذا لا تقوم بأيّ عمل؟ ما زلت جاسوسـك وعيونك وأذنيك في كلّ مكان. وأمارس تأثيري على العمل بقدر المستطاع». تمّت مواجهـة لين من جديد بمعرفته عن كيفيّة التّعامل مع أيّة حالة، لكنّه تمنّى على عكس الاحتمالات الموجودة ألّا يكون الأمر كذلك.

ضحـك باو كما لو أنّهم أخبروه بنكتة جيدة ثمّ مسـح عينيه «لا يمكـن للأشـياء أن تبقى على حالها، فالعـمّ قد أصبح أكثر ضعفا، ومراكز القوّة والسـلطة تخضـع لإعادة تنظيم، فالبعض سيصعد والبعض سينزل وسيعاد تقييم الولاءات».
«فهمت».

مسح باو شفتيه بيده وضرب كوع سبّابته على الطّاولة ليؤكّد فكرتـه. «لنكن صريحين يا صديقي. لا أحد منّا سياسـيّ، وأنا كنت حرّا مطلق العنان ويمكن القول: إنّه تمّ التّغاضي عنّي، وقد عاملتك بالطّريقة نفسها، وحان الوقت الآن لكي تظهر ولاءك»..
«ماذا تقصد؟ ماذاَ فعلنا لك لكي تتصرّف بنفسك؟».

شـرب لين من كأس البراندي في رشـفة واحـدة، ورفع باو حاجبيه لكنّه صبّ كأسا أخرى.

«لم يكن عملي إلّا أن أوصل لك المعلومات الّتي أعرفها كلّها، سـنذهب إلى هنا أو هناك. نزر يسير جدا». قال لين ونظر إلى الكوخ ورأى سحابة من الغبار تخرج من ثقب في الجدار وتضيء المكان تحت ضوء المصباح وتسـتقرّ على الطّاولة وعلى الكؤوس وعلى وجه باو المجعّد المريض.

«هذا صحيح، إن معظم ما تعطيني إيّاه غير مفيد. وما فعلته قـد وصلني. أنت في مكان مناسـب وأنا أثق بك. لم نعترف بك

لا كجنديّ ولا كجاسوس، لكن فقط كعاشق». ضحك باو.

«إذا دعني استمر في عملي».

«كلانـــا رجـــلٌ ذو خبرة». قال باو بصـــوت منخفض يئزّ «من الصّعب تجاهل النّســـاء. وأنـــا وأنت لم نؤمن بالحرب كثيرا على أيّـــة حال، إنّها الخطّ الجانبيّ لنا. لكـــن علينا أن نظهر تحالفنا الآن لكي ننجو».

«ماذا تريد منّي أن أفعل؟».

«ســـأقول: إنّ الزّواج كان لكسب ثقتها وإعادتها إلى الحدود وهو حدثٌ استثنائيٌّ آخر كالّذي خطّطنا له على طريق (هوتشي منه). اقبض عليها هذه المرّة لكـــي تجعلها تصدّق أنّها متورّطةٌ. هي تقوم بالتقاط الصّور الّتي يتمّ تهريبها».

«هذا الأمر في غاية الخطورة».

«وإلّا سيكون الخيار الواضح هو مقتل مراسلة، سيثبّط ذلك معنويّات الأمريكان».

«فكّر بشـــيء آخر». لقد خذل (ماي)، ولن يسمح لأيّ مكروه أن يحصل لهيلين.

«دعني أكلّم القيادات» قال لين.

«القيادات لا تعلم من أنت. أتظنّ أنّني أحمق؟ هذه خياراتك. أثبت أنّ غريزتك لا تقودك. لقد تسلّيت بما فيه الكفاية. أخبرني، كيف هي في الفراش؟».

ضحك لين وشـــرب من كأســـه. كان باو يشكّ بأمره مسبقا، فلم يكن الزّواج سيّئا ولا جيّدا. لكنّه كان مخطئا بشأن لين، فقد تغيّر في السّنوات اللّاحقة وأصبح شخصا لم يكنه من قبل، لقد أصبح جنديّا. «صبَّ لنا كأســـا أخرى، وسأخبرك بأشياء، مثلا عيناها».

هبّت الرّياح في الخارج لدرجة جعلت سـقف الكوخ يتحرّك ويهسهس.

«انسَ أمر عينيها. أخبرني عن صدرها فقد عرفت بأمركما منذ أن رأيت ذاك الشّال معك». ضحك باو، وفكّ أوّل زرّين من قميصه بسـبب الحرارة الّتي أتته من المشروب وحرارة المصباح في الغرفة الصّغيرة.

«أكان الأمـر بهذا الوضوح؟» عرف كيف فكّر باو، وفضّل أن يجد طريقا غير شريف على أن يكون سهلا ومستقيما. فضّل أن يسـرق دولارا على أن يتمّ إعطاؤه إيّاه. ككثير من الشيوعيّين هو لم يحبّ تلك البلاد أو أهلها، لكنّه استخدم النّظام ليسرق منهم.

تنهّـد باو وبدا منشـغلا وجبهته وعنقه غارقـان في العرق «يمكننا أن نقنعها أن تنضمّ إلينا وتجعل القصص متعاطفة معنا أكثر، لكنّ ذلك لا يفسّـر زواجك منها». صبّ باو المشروب، لكنّ يده هذه المرّة كانت أكثر بطئا وغير متّزنة وهي تحمل الزّجاجة، وبدت دائرةٌ صغيرةٌ من السّائل المسكوب حول إحدى الكؤوس.

«ربّمـا لأنّني أحبّها». قال لين. كانت الحقيقة أكثر خطرا من أيّ كميّة من البراندي، وخفق قلبه بشـدّة في صدره عندما نطق تلك الكلمات.

توقّف باو وكأسه على شفتيه كأنّه يفكّر بذلك الاحتمال.

«هذا أسوأ احتمال».

بغبـاء، خرجـت الحقيقة الجامحة إلى العلـن الآن، وأراد أن يصرّ عليها. «لماذا؟ أعني إن كان الأمر حقيقيّا». نظر باو إليه الآن وكأس الشّراب في يده وعيناه الزاحفتان كالحتان وباردتان. «رجلٌ طمّاعٌ أو فاسـدٌ أو شهوانيّ هذا يمكن فهمه، ويمكن أن يدخل في الحسبان لكن لا يمكن الوثوق برجل وقع في حبّ العدوّ».

وقــف لين متمدّدا كقطّــة تتمدّد وتتنفّــس وتطلق مخالبها، وجعل البراندي الغرفةَ تبدو كأنّها تتمدّد وتتقلّص.

مدّ باو يده وأمســك بذراع لين «ما أعنيه هو ما مدى ضياع الرّجــل ليقوم بفعــل كهذا؟ كلمــات العمّ تقول: نحــن من عِرْق التّينات والجنّيّات».

سحب لين يده بتصميم. لقد كان جنديّا «إذا سنخطّط لرحلة جديدة إلى قاعدة (منقار البّبغاء) في الأسبوع القادم». قال وهو يتحرّك ببطء جيئة وذهابا فــي الغرفة الصّغيرة ويحرّك إبهامه على معدته المسـطّحة. قال لــين: «إنّها منطقةٌ خطرةٌ وســيتمّ القبض عليها لمدّة أسبوع، وستلتقط صورا يتمّ نشرها في جميع المجلّات، ثمّ يتمّ إطلاق سراحها دون أن تتعرّض للأذى».

«جيّد». قال باو بعد أن أنهى كأسه.

«ســنحصل على الطلاق وستعود إلى أمريكا. ثمّ سأبدأ ببناء مســتقبل لنفسي في المجموعة بما أنّي لا أملك خيارا آخر» قال لين «ربّما بإمكانك أن تساعدني لأتعلّم، بما أنّه لا أحدَ يعرف مَن أنا. صحيحٌ؟».

«فحلٌّ صغيرٌ أليس كذلك؟» ضحك باو.

«لا أحــدَ يعــرف مَن أنــا ليحميك. لا يمكننــي الإبلاغ عن نشاطاتك».

«صحيحٌ». قال باو بعد تفكير.

«أليس لديك بنات غير متزوّجات؟ سأحتاج زوجة جديدة».

صمت باو.

«ألم تكن أصغرهنّ حسناء؟ أو ربّما لا؟ هل أنا على خطأ؟».

«(يان) جميلة» اعترف باو.

مشى لين حول الطّاولة ووقف خلف كرسيّ باو. نعم لقد كان

جنديّـــا الآن. وعلى الجنديّ أن يفعل ما عليه فعله لينجو بحياته. مدّ يده وسحب لفّة الأســـلاك ولفّها حول راحتي يديه ونهاياتها الخشبيّة بين قبضة يديه، تفاجأ لين عندما رأى خفّة الشّعر على رأس باو. لم يكن هناك أيّ شعر على الإطلاق فقط ذكرى وجود شعر. لقد كان عجوزا وجاهزا للموت.

«لكن!» تابع باو «لا يمكننا تسليمها إلى رجل لا يمكننا الوثوق به؛ الرّجــل الّذي تزوّج مــن العدوّ. تعرف هــذا؟ أليس كذلك؟ لكن..!».

هــرب الهواء من حلقه بســرعة كبيرة، وبقيــت تلك الجملة عالقــة في الغرفة وانتظرها أن تنتهي. مرّر باو يده الغليظة على الطّاولة وحفر شيظايا الخشب ثمّ تمدّد حتّى استرخى أخيرا. ثمّ ألقاه لين إلى الأمام حتّى لامســت جبهته الطّاولة. شــكّلت بركةٌ داكنـــةٌ من الدّم هالة حول رأســه قبل أن تتمدّد وتســتدير حول المصبــاح وزجاجة البراندي والكؤوس. رفع كأســه وحطّمه على الأرض الصّخريّة.

اتّــكأ لين على الجــدار، ووضع يديــه المرتجفتين في جيبه. نعم لقد كان جنديّا. لم يشــعر بالخوف لكنّه شــعر بالأدرينالين. بــدا باو البيروقراطــيّ ذاته كأنّه يأخذ غفوة صغيرة لم يســمح لنفســه بأخذها خلال حياته. كرهه لين عندما علم عن فســاده وشــراكته في تجارة المخدّرات وبيوت الدّعــارة، لكنّه رأى فوائد ذلك بســرعة؛ كيف تغاضى رجلٌ مثله عــن زلّات الآخرين. في الحقيقة لقد تقــدم لين في العمر حتى أصبح عاجزا عن الحب وعــن أن يتحمل أن يحبّ باو، لن يأتــي أحدٌ ليبحث عن لين إذا اختفى باو تحت ظل النّظام الجديد، كان الطّمع القديم محرجا. كان كلاهما محتالين، وقد سحب لين الورقة الرّابحة أوّلا.

خفّـت الرّياح فـي الخارج إلى أن أصبحـت كالهمس، كظلّ الإعصار، وأطفأ لين الضّوء. في الظّلام افتقد باو. رجلٌ سخيفٌ تافهٌ ومحتالٌ لكنّه ليس شرّيرا. كان خطؤه أنّه لم يفهم معنى ثقل امرأة بين ذراعي رجل.

فتح لين الباب ومشـى إلى الطّريق المضاء بضوء القمر، لكنّ نطاق حرّيته أصبح أقلّ ممّا كان عليه.

(19)
محيط من الحليب

30 أبريل 1975

كانــت هيلين في مرحلة متأخّرة مــن الحرب، وقد نال منها التّعب.

لــم تنم هيلّين منذ وقت طويل على العشــب الميّت عند مبنى السّــفارة. نامت لعدّة ســاعات فقط في اللّيلة السّابقة وأيقظها التّفكير في لين. وفضّلت أن تلقى حتفها في ســريرها إذا أقدم الشيوعيّون على قتلها.

عندما وصلت إلى تشــولون. مشــت كمَن يمشــي في نومه داخــل المبنى الملتوي عابرة باب بوذا المحطّم صاعدة الدّرج الآيل للسّــقوط، والّذي تفوح منه رائحة الأرزّ، ذاك الدّرج الّذي صمد عشر سنوات منذ آخر مرّة شكّت أنّه من الممكن أن يتحمل وزنها مــن جديد. أتت النّهاية متفجّرة مع أنّها صلّت من أجل أن تنتهي شــرور الحرب، والآن بعد أن وصلت للنّهاية لم تســتطع أن تنكر غرابة تحطّم قلبها. خلقت الحرب في نفســها شهيّة لم يُرضها إلّا المزيد من الحرب، كما لو أنّها أفعى تبتلع ذيلها.

بطريقة ما اســتطاعت هي ولين أن يعيشا حياة سعيدة هنا. عادا من القرية متزوّجين، لكنّ لين أصرّ على الحفاظ على أمانهما

بالتزامهما بالهدوء. كانت هنـــاك احتياطاتٌ تتعلّق بالعمل أيضا بالرّغم من أنّ عدّة رجال أمريكيّين تزوّجوا من نساء فيتناميّات.

شعرا أنّ عليهما التزاما؛ وهو إخبار غاري قبل أن يصل إليه الخبر من غيرهما. انفجر وجهُ غاري بابتســـامة عريضة، والّتي يمكن أن تعني أيّ شـــيء فهو الّذي كان دبلوماسيّا دائما. «مؤكّد أنّ الأمر رومانســـيّ كالشّعر». وأخذهما لتناول غداء فاخر. لكن الشّخص الّذي فرح حقّا كانت آنوك.

بدأت الحرب تقرع ناقوســـها على آنوك. انتشرت الشّائعات أنّها كانت تتناول الأفيون بشكل متكرّر، وجلدها الشّاحب وجسمها النّحيل أكّـــدا تلك الحقيقة. في المحلّ الخاص بها أعطت هيلين قلادة جميلة من ذهب ولؤلؤ.

«لا يمكنني أن أقبلها».

«إنّها هديّةُ الزفاف؛ لأنّ شـــيئا حقيقيّا أتى من هذه الحرب في النّهاية. أتوقّع أن تكوني في غاية السّعادة».

وكانا كذلك حتّى عندما انتقلت الحرب من احتلال الصّفحات الأولـــى إلى الصّفحات الخلفيّة الّتي شـــجّعها النّاشـــطون ضدّ الحرب، في أمريكا.

قامـــت هيلين بدور الزّوجة ورتّبت شـــقّتهما وتناولت وجبات طويلة مع لين وتعرّفت على المدينة من الدّاخل. كان وقتهما سويّا غنيّا وقيّما.

استمرّا بتغطية الحرب مع أنّ المهمّات أخذت تقلّ أكثر فأكثر، وهذا كان مناســـبا لهما لفترة مـــن الوقت. بدا النّاس في أمريكا وكأنّهم نسَـــوا أنّ الجنـــود في فيتنام مازالـــوا يحاربون ومازالوا يموتون، ثمّ أتى التّدهور والتّناقص في عدد الوحدات العسكريّة وقلّ الطّلب على صور الحرب.

قاما بتغطية الأزمات الإنسانيّة الّتي سبّبها وجود الحرب في البــلاد لفترة طويلة، ومنها تأثير المــواد الكيميائيّة وقلّة الطّعام وأزمة المدارس. انســحب الجيــش الأمريكيّ فــي عام 1973، وصنّفوا مســاعديهم الكلاب كمعــدّات لا فائدة منها وأعطوهم موتا رحيما وقالوا: إنّ عودتهم إلى أمريكا ستشكّل خطرا. تعرّض العديد من الجنود للمشــكلات وهم يحاولون تهريب كلابهم إلى الولايات المتّحدة. احتلت القصص السياسيّة في لاوس وتايلاند وكمبوديا الأســبقيّة، وانتشرت مع الأخبار، حتّى إنّ غاري تحدّث عــن نقل مكاتــب الدّائرة الرّســميّة إلى ســنغافورة، لكنّ حدثا عسكريّا اندلع وسبّب بالإسراع في رجوع الجميع إلى سايغون.

أملت هيلين في الوصول إلى مســاومة ما وإيجاد عمل دائم فــي البلد يمكّنها من البقاء. لكنّ لين عرف أنّهم اســتهانوا بقوّة الشّماليين.

بقي المبنى ســاكنا. هل هجره النّاس لأنّ امرأة أمريكيّة كانت تعيش فيــه؟ وإذا كان ذلك صحيحا إلى أين ذهبت العائلات في المدينة، والّتي كانت الآن معزولة كســفينة فــي أقاصي البحار؟ كان أولئك النّاس أصدقاءهما وقد تناولوا معهما الطّعام. وكانت هيلين عرّابة لخمســة أطفــال، ومع ذلك دمّر الخــوف كلّ تلك العلاقات.

مــع أنّ الوقت كان فجرا بدت السّــماء كئيبة ومليئة بالغيوم المنخفضة.

مشــت هيلين إلى الضّوء الأحمر وأطفأتــه وانتوت أن تنام. بــدا المصباح غيــر مرئيّ حتّى فــي تلك الأيّام الأخيــرة، لكنّها الآن لاحظــت أنّ الضّوء تفتّح أكثــر إلى لون الطّين الفاتح كالدّم المغســول، كان القماش في غاية الهشاشة حيث كان بإمكانها أن

تُدخل إصبعها فيه. ببساطة لقد انتهت صلاحيّته لكنّ الظّلام أفقدَها أعصابها، وأضاءت المصباح من جديد.

تمّ إرسال مقتنياتهما إلى اليابان منذ أسابيع عندما وصلت الأخبار الأولى أنّ الرّئيس (ثيو) قد هجر المرتفعات المركزيّة، اختفت المدن الّتي كانت مألوفة بالنّسبة لهيلين مثل (كونتوم) و(بليكو) و(بان مي ثوت).

أوحت لها الغرف بشعور مبتذل كاللّيلة الأولى الّتي قضتها مع دارو. لكنّها لم تعد غرفته منذ زمن طويل. كان كلّ من هيلين ولين قد تشاركا في ذكريات كثيرة في تلك الغرف وأزالا سويّا اللّعنة الّتي خافت منها في ذلك المكان. وشعرت أنها بدأت تتناسى الشّقة والمدينة والبلدة.

خلعت هيلين ملابسها وكان جسدها متصلّبا يؤلمها، فمسحت الخدوش وعلامات الأظافر عن ذراعيها والجرح الّذي على صدغها. سيترك الجرح ندبة بجانب شعر رأسها لأنّها رفضت خياطته. قلقها على هذا النّوع من التكبّر سيجعل لين يبتسم، لكن ربّما يحافظ المرء على عقله بهذه الطريقة. أخرجت الكيمونو الجديد الّذي كان قطعة الملابس الوحيدة لديها عدا عن ذاك الّذي ترتديه، لكن فرحها السّابق به كان قد انتهى فلم يكن لين معها ليراه، واقتصر على كونه الآن مجرّد غطاء. ومرّت إلى جانب المرآة دون رغبة منها أن تواجه نفسها به. بدت الغرفة ممتلئة بالأشباح، وأدركت أنّها لم تكن يوما وحيدة فيها. كان لين يملأ المكان بالحياة ويبعد عنها الأرواح الشّريرة.

تخيّلته في تلك اللّحظة على البحر الورديّ بلون الغروب. على الأرجح أنّه لم ينم إلّا بشكل متقطّع طوال تلك اللّيلة. هل سامحها؟ يجب أن يعرف أنّها ستلحق به بعد وقت قصير، بعد

عـــدّة أيّــام، لتكون قد صـــوّرت الظّافر الجديـــد بالمدينة ثمّ يتمّ إخراجها منها. بماذا كان يفكّر؟ ما الّذي كان سيفتقده في وطنه؟ بالطّبع هي كانت تعرف أن تلك هي بلاده. كانت هي ما سيفتقده حتّى عودتهما سويّا.

عبست هيلين ونظرت إلى الخريطة المعلقة على الجدار. فَهم لين أنّها منذ أن التقطت صورة الكابتن تونغ وهو يطلق النّار علَى العجوز، فلا خيارَ أمامها سوى أن تلتقط المزيد والمزيد من الصّور بعد أن يملأها الغرور ووهم أهميّة النّفس بوهم تلك المهمّة. كان الوصول إلى المجد هو المشـــجّع على البقاء في البداية، ثمّ كانت الإثـــارة وبعد ذلك قوّة التّحمل والمهـــارة وعدم القدرة على تخيّل القيام بعمل آخر. لكن كان هناك شـــيءٌ أكبر يصعب الإمســـاك به. فقد كان المرء يشـــعر بالصداقة الحميمة في الحرب وإلحاح التّواصل الّذي كان من المحال تكراره في الحياة الطبيعيّة. شعرت بإنسانيّتها أكثر عندما كانت حياتها على الحافة.

لم يكن الأمر كذلك بالنّسبة إلى لين، فقد كان هناك شيءٌ ما أبقاه بعيدا وآمنا ومنعزلا، لكنّه فهم إدمانها وســـمح لها به، لكنّه منعه من التّفاقم بشـــكل كبير مثلمـــا تفعل الآن. مرّرت أصابعها على الخريطة (كوانغ تري، هيو، دانانغ، كوانغ نغاي، كوي نهون). كان كلّ اســـم يعيد ذكراه، وكلّ اسم يصحبه وقتٌ معيّنٌ في السّنة ومهمّة عســـكريّة انتهت بهزيمة أو بنصر. لكن كلّ هذه الأســـماء أصبحت مطموســـة، وأصبحت الخريطة فارغة شـــيئا فشـــيئا تملؤها رقعة فراغ الخسارة البيضاء.

أصبح عقلها مخادعا من جديد يفكّر بكلّ شيء.

ملأت كأس مـــاء بالفودكا لتتمكّن من النّوم، وتمنّت أن تغيب عن الوعي قبل أن تنهيها. شرد عقلها كإبرة على أسطوانة مهترئة

فأخرجت أحد كتب دارو لتهدّئ نفسها، وفتحت صفحة مطويّة الزّوايا. وبدأت تقرأ أحد المقاطع.

«جعله هيكل إنغكور ينسى كلّ تعبِ الرّحلة الّذي سيختبره إذا وجد واحة خضراء في الصّحراء الرّمليّة، كأنّه سحرٌ حوّله من البربريّة إلى الحضارة ومن عمق الظّلام إلى عمق النّور».

لم تفهم يوما هوس دارو بإنغكور فقد بدت لها مثله رومانسيّة ومتسامحة. غفت والكتاب بين يديها دون أن تحصل على جواب لسؤالها.

استيقظت هيلين بعد عدّة ساعات وأحسّت بالرّعب من أنّ شيئا ما قد فاتها. تعثّرت أثناء وقوفها على قدميها ولبست ثيابها الّتي كانت ترتديها في اليوم السابق. تردّدت عند الباب ليس بسبب الخوف لكن الخارج بدا الآن بغيضا. يقع الإنسان في حبّ مكان جغرافيّ من خلال النّاس وعندما يرحل النّاس يصبح المكان باردا وغير شخصيّ.

أخرجت كاميرتها في القصر الرّئاسيّ وأخذت تلتقط صورا لدبابات الاتّحاد السّوفييتيّ وهي تمشي على طريق (هونج ثاب تو). أعطاها شعور بالرّاحة أن تحبس تلك الصور في عدسة كاميرتها. مرّت بعد ذلك بجادَة ثونغ نهات وهي تقتلع في طريقها قطعا مكسورة من الطّريق ثم تعيد تركيبها كبلاطات أشبه بلعبة السّوليتير.

عندما اقتربت دبّابةٌ من البوّابة الأماميّة توقفت كاميرا هيلين عن العمل فحرّكت المقبض للأمام والخلف لكن دون فائدة، لقد كانت عالقة. انتزعت الحبل من عنقها عندما سمعت صوت المعدن المتهشّم، وضعت الكاميرا بين ركبتيها وأخرجت عدسة أخرى، ولكن عندما جهّزتها كانت الدّبابة قد عبرت بوّابة خبز

الزّنجبيل ومزّقت المعدن. اكتشفت بعد ذلك أنّهم عرضوا فتح البوّابات لكنّ جيش فيتنام الشّمالي أصرّ على تحطيمها كأنّه كان عرضا شعبيا. لعنت سقوط الكاميرا من بين ركبتيها وأخذت تضرب رجلها بالرّصيف. ركعت على الأرض ومسحت العدسات بمنديل لترى إن كان أصابها خدشٌ. ثم نظرت إلى الأعلى ورأت بوضوح على إحدى الشّرفات علم الشّمال الأحمر الكبير الّذي يحتوي على نجمة ذهبيّة.

خلال ساعات وبعد أن أدرك أهل سايغون أنّه لن يتمّ تفجير مدينتهم وأنّ حمّام الدّم الّذي أشيع عنه لن يحدث. خرجوا بتردّد وبدؤوا بالتّلويح والتّصفيق للجنود الفيتناميّين الشّماليين المارّين. إن كانت تعرف أيّ شيء عن ذلك المكان فهو أنّه يغيّر حلفاءه بسرعة، لكنّها شعرت أنّها تعرّضت للخيانة رغما عنها.

عندما مشت في الشّارع فاجأتها رؤية مَحالّ المعكرونة مفتوحة من جديد، ورأت في إحداها شخصا لا يتلاءم مع المكان، ذا شعر أشقر فاتح، ثم تعرّفت عليه. لقد كان المراسل الجديد (مات) الّذي التقت به في اليوم السابق. كان يشرب آنية حساء مع مجموعة من جنود جيش فيتنام الشّمالي. وكانت لحيته طويلة من اليوم السابق، وكان مرتديا السّترة السّوداء ذاتها الّتي رأته فيها آخر مرّة. وعندما رآها أشار إليها أن تأتي إليه.

«لديّ خبرٌ لك وحدك فقط هذه المرّة. انظري إلى هؤلاء الشّباب يا هيلين. إنّنا في نزهة».

نظر إليها مجموعةٌ من خمسة جنود شباب وضحكوا. كانوا صغارا ونحيلين ولباسهم أصفر بلون المستطردة، كانوا بسيطين مقارنة بجنود جيش فيتنام الجنوبيّ المتأنّقين والمصقولين. ذكّروا هيلين بأولاد الرّيف المهذّبين، وتمنّت أن يظهر الجنديّ الصبيّ

من جديد وينفخ علكته. معظمهم لم يزر مدينة من قبل. سايغون في حالتها غير المرتّبة كانت أعجوبة من الثّروات. ضاع الحكّام الجدد في طريقهم إلى القصر الرّئاسيّ، واضطرّوا إلى الوقوف وسؤال شخص مدنيّ خائف عن الاتّجاهات.

«اسمعي. يظنّون أنّ المراوح الرّئاسيّة تستخدم لقطع الرّؤوس». ضحك مات وفمه مليءٌ بالمعكرونة ويده تقوم بحركات تقطيع صغيرة على رقبته. «يظنّونها للتّقطيع أولئك الحمقى، أليس كذلك؟» قالها وضرب بكوعه أحد الجنود.

كان الخوف جديدا على هيلين ولم يمكّنها من الجلوس إلى جانب أولئك الرّجال واحتساء المعكرونة. كان (مات) أحمقَ، لكنّه كان يتميّز بأنه لا تاريخ له في هذا المكان. «عليّ أن ألتقط المزيد من الصّور». قالت.

«انتظري. أظنّ أنّني أقنعتهم أن يتركوني أصعد معهم إلى الدّبابة. يمكنك أن تصوّريني».

«ربّما في المرّة القادمة» قالت مبتعدة.

«أيّ مرّة تقصدين؟» صاح باتجاهها.

في الأيّام القليلة التّالية لم يسيطر الشيوعيّون على المدينة، فقط لأنّهم لم يعرفَوا كيف يسيطرون عليها. لكن بعد أن فازوا بنصر مستحيل لم يشكّ أحدٌ بأنّهم سوف يتعلّمون الطريقة الصحيحة.

استعاد أهل سايغون ثقتهم بسرعة عندما التقوا بأولئك الجنود السّاذجين، وبدؤوا يعملون على إعطائهم السّاعات الرّخيصة ذاتها والبضائع المزيّفة الّتي جعلت الجنود الجدد يرهنوها مقابل أشياء أخرى. وكانوا يتساءلون سرّا عمّا كان يخيفهم. كان أكثر الأمور وضوحا في صعوبة السّيطرة على

(تو دو) عدم وجود العاهرات اللّواتي لم يسمح بوجودهنّ تحت قوانين العم (هيو) للعيش النّظيف.

انتشرت النّكات فورا عن أنه كيف قامت القوّات الجديدة باستخدام المراحيض الجديدة لغسل الأرزّ، وكيف غضبوا عندما ضغطوا على المقبض فاختفى طعامهم.

مشت هيلين جيئة وذهابا في الشّارع، والتقطت صورا لأصحاب المخازن الّذين نزعوا لوحاتهم الأمريكيّة وقاموا بتسوية النيون والمعدن وبدّلوها بلوحات فيتناميّة سريعة الصّنع. وقف رجلٌ فيتناميّ على سلّم مهتزّ وبدأ بضرب لوحة مكتوب عليها (حانة باك)، وقد احتوت تلك اللّوحة على صورة فتاة عارية ترتدي قبّعة راعي أبقار وحبل صيد يتحرّك على جسمها في دوائر خضراء. كانت رجلاه نحيلتين ولزجتين، وقدماه متصلبتين في الصّندل الّذي ينتعله، وأظافره خشنة وصفراء، حيث كان بالإمكان رؤية حياة من العمل الجادّ في هاتين الرّجلين. التقطت صورة لجسمه بينما كانت اللّوحة من خلفه غير واضحة. وكان الزّجاج يتساقط على شكل رقاقات صغيرة رنّانة أشبه بقطع الثّلج وهو يقوم بمسح الشّظايا الصّغيرة عن خدّيه وكتفيه ويضرب بقوّة أكبر حتّى سقطت اللّوحة كلّها في الشّارع، كانت ملامح الألم ظاهرة على وجهه كما لو أنّه يضرب أحد أولاده. عبس عندما رأى الكاميرا وكاد يفقد توازنه ولوّح لهيلين أن تبتعد.

مشت إلى المكتب حيث كان غاري في الخارج، وكان هناك طاقم صغير يبثّ الأخبار خلال الفترة الصباحيّة.

«أين كنت؟ تضربين أحد جنود الشّمال؟ أم أنك انضممت الى جيش العم هيو؟ انتهت الحرب يا هيلين!» قال تانر.

«قلت لنفسي أن أقضي بعض الوقت معك».

مشـــى غاري إليها «تمّ سحب أوراق تكليفك منذ أسبوع. ولم تعودي تعملين هنا بشكل رسميّ. كان عليك الذّهاب مع لين».

«حسـنا سـأذهب وآخذ صـوري معي إلـى الصّحافة التي تخصني أو إلى الصّحافة المتّحدة».

«لا تتصرّفي هكذا، دعيني أرَها».

«هل ستعيدني إلى العمل؟» أبعدت حقيبة الكاميرا عنه.

قـال تانر: «حـان الوقت لوجود (أليس فـي بلاد العجائب) هنا».

أخرجـت الفيلم الّذي صوّرته بنفسـها، وأرسـلت لغاري كلّ الصّور لأنّها من الممكن أن تكون الأخيرة. سـيكون اسمها مكتوبا على أغلب صور سـيطرة الشيوعيين على المدينة. ارتبط اسمها بالسّاعات الأخيرة لتهدُّم المدينة. وكان لها أخيرا طابعها الخاصّ في التّاريخ. كان الجميع ينتظر القطع الحتميّ لخطوط التّواصل. وكان ذلك عندما يُظهر المنتصرون سلطتهم الحقيقيّة.

ارتجفت الآلات وهي تنقل الأخبار في وقت مبكر مسـاء ثمّ سكنت أخيرا. شعر الموجودون في المكتب بموجة من الخوف.

«هذا كلّ شـيء يـا أصحـاب، فيتنام مغلقـة لإنجاز بعض الأعمال. لنذهب لتناول الغداء».

اجتمـع فريقٌ من الصّحافيّين من مختلف الجنسـيّات لتناول الغداء على سطح (فندق كارافيل). رفع تانر كأسه لهيلين ليشرب نخبهـا على انفراد. ومع أنّهما لـم يحبّا بعضهما أبدا؛ لكنه كان هناك احترامٌ متبادل بسـبب طول الوقت الّذي عملا فيه سويّا. حمل النُّـدل الّذين كانوا يرتدون المعاطـف البيضاء الطّعام من المطعم كأنّها كانت مجرّد ليلة لا تختلف عن سـواها من الليالي. تفاجـأ الغربيّون أنّ المـكان لا يزال يعمل لكنّـه بقي هادئا أمام

الطّاقم كما لو أنّ الحديث عن الحرب أصبح ينم عن قلّة الذوق. وقف النادل الرئيسي بجانب طاولتهم وأعلم غاري بأدب أنّها كانت آخر ليلة عمل لهم؛ فلذلك لا يمكنهم إضافة الفاتورة إلى الحساب القديم بل كان عليهم أن يدفعوا نقدا أو بالشيك. اختفى النُّدل قبل تقديم الحلوى. فتّش غاري وكاتبٌ فرنسيّ عن الآيس كريم في المطبخ. لم يحضر أحدٌ الفاتورة الأخيرة.

بعد الطعام تناولوا السّجائر والمشروبات من الحانة الّتي أصبحت تعتمد على الخدمة الذاتيّة. كانت هيلين مستلقية على أحد الكراسي تحتسي كأس الشّمبانيا وتنظر إلى النّجوم.

أتى الشّاب مات وجلس إلى جانبها.

«كان يجب أنٍ تبقي معنا، البارحة فقط أخذت منهم أشياء قيّمة». قال (مات).

عرفت هيلين أنّه كان يكذب لكنّها لم تهتمّ. في هذا الموعد المتأخّر كانت التفاصيل أمرا دقيقا. هل عليها أن تفكّر بحروب أخرى؟ أمريكا الجنوبيّة؟ ماذا سيظنّ لين؟

كان شعر (مات) على شكل ذيل الفرس، وكان يرتدي ربطة عنق وقميصا مصبوغا معلّقا على صدره شعار السّلام. بدا شكله بالكاد مقبولا كمعارض للحرب. رفع معصم هيلين ونظر إلى سوارها الفيتناميّ وقال: «من أين حصلت عليه؟».

«منذ عدّة سنوات من رجل من القوّات الخاصّة قبل أن تلتقط صورتك الأولى حتّى». رفعت ذقنها إلى قميصه «أترتدي هذا أثناء العمل؟».

«نعم. طبعا فهو بمثابة تنكّر».

«تنكّرك ناجحٌ، فأنت لا تبدو كمصوّر».

«أحبّ المرأة السّاديّة حقا». ضحك (مات) وأعاد ملء كأس

الشّمبانيا الّذي كان معلّقا بيدها لكنّها بقيت متّكئة على الكرسيّ وهي تنظر إلـى النّجوم «معلّمي القديم تانـر كان يقرأ مقالات جراهـام وكتابـات مارين. هـذا مضحكٌ لأنّكم تبـدون وكأنّكم تقرؤون الكتب ذاتها».

«أليس ذلك مدهشا؟» قالت.

«ماذا؟» سألها.

«هذا الهدوء دون طائرات ولا مدفعيّة. لم أعرف المدينة أبدا دون صخب الحرب». غمرتها موجةٌ من الحنين والتّاريخ والفشل وشربت كأسها.

صبّ مات كأسـا آخر وأشـار إلى تانر الّذي كان خلفها «هل جلب لك السّوار حظّا؟».

امتعضت هيلين وقالت: «ما زلت هنا، هل تعدّ ذلك حظّا؟».

أتـى تانر وجلس بجانـب قدميها: «أبعدتُ شـريكَك بأمان وأصبحتِ جاهزة للّعب معنا. أليس كذلك؟».

«لدىَ مات عرض يقدّمهُ لك».

نظـرت إلى الشّـاب بتمعّنَ أكثر. كان له وجـهٌ صبيانيّ دون خطـوط وأنفٌ طويلٌ وجلد متقشّـر بعد الحروق الّتي سـبّبتها له الشّـمس. لعق شـفتيه اللّتين كانتا غليظتين وعابستين وغير متناسقتين مع باقي ملامح وجهه، وأدركت أنّه كان متوتّرا وقالت: «قدّم عرضك».

ابتسم ابتسامة متكلّفة كأنّه يستعد لأن يخدعها «سيطردوننا بعد وقت قصير. أليس كذلك؟ انتهت الإثارة من هنا».

«ما قصدك؟».

«أقصد أنّه علينا أن نغادر قبل أن يطردونا ونقوم برحلة في السّيارة إلى كمبوديا ونتوقّف في (فومبرز)، وسنكون الصحافيّين

الوحيديـــن الّذيـــن التقطوا صـــورا لما يحدث فـــي الرّيف. بقيّة الصّحافيّين مجتمعون في السّفارة الفرنسيّة».

«هذا عملٌ خطيرٌ».

«لهذا دعوناك معنا» قال تانر «قليل من الحنين إلى الماضي، وتكون تلك هي إشارتنا الأخيرة».

كان تانـــر ممّن يغامـــرون، لكنّها افترضت أنّـــه يخاف على سمعته رغم كلّ شـــيء. وكان مات قد غطّى منطقة هونغ وخرج منها بقصّة جيّدة. الأمور ليست سيّئة.

«كمبوديـــا؟» قالت وهي تنظر إليه. إن أكبر إغواء هو أن يقع المرء تحت تأثير سحر إغواء أكثر براءة منه.

«ســـنذهب إلى هناك مرورا بتايلاند» قال تانر. بدت وكأنّها تصغي إليهم ممّا جعله هو نفسه يفكّر جديا بالعرض.

«متى؟».

«غدا في الصّباح الباكر».

كان دارو قـــد ربح جائزة (بوليتـــزر) قبل وصوله إلى فيتنام، لكنّه تابـــع إنجازاته وازدادت شـــهرته ليصبح أســـطورة عندما ارتبط اسمه بحربه الآسيويّة الصّغيرة. أراد دوما أن يغطّي حدثا إضافيّا آخر. قالت لنفسها إنّ هوسها لم يكن بالمقدار الّذي كان لـــدى دارو، فقد كانت هي محترفة تقـــوم بعملها، بينما كان تانر واعيـــا للأخطار، لذلك ربّما كانت خائفة من أن تتخطّى الحدود كما يفعـــل دارو عندما يكون الأمر قابـــلا للتّنفيذ. كان انتصارا ســـاحقا يحدث مرّة واحدة في العمر. وبغريزتها الصّارمة كيف كان لها أن تدع أولئك الســـيّئين الّذيـــن أرادوا أن يقوموا بعملهم القذر في الظّلام يربحون الحرب، وكأن الأمر لم يكلّفها أكثر من استقلال سيّارة إلى مكان الحدث؟

عندما انفضَّ اجتماع الغداء أخذها غاري إلى جانب الغرفة وقال لها: «سمعت ما ينوي عليه هذان الأحمقان. لن تذهبي معهما، أليس كذلك؟».

اكفهرّ وجهها «طبعا لا، أتظنّني حمقاء إلى هذه الدرجة؟».

كانوا على الطريق (رقم واحد) عند الظّهيرة مقتربين من الحدود أكثر فأكثر. وكان الموظّفون الأجانب في خدمة البريد قد هجروا البلاد وتركوا سيّارتهم ومفاتيحها مع إشارات تدلّهم على الطّريق إليها، ممّا جعل الأمور ميسرة لثّلاثتهم. لم تكن هناك حركةٌ عسكريّةٌ لأنّه لم يكن من الممكن التّأكّد من أن تلك الوحدات التّابعة لجبهة تحرير فيتنام تعرف إن كانت الحرب لا تزال قائمة أم لا؟ تمركزوا عند عربة ورديّة اللون عليها شارات السّلام وكلماتٌ مخطّطة بالجرافيتي على الجانب تقول: «أنت لا تعيش إلّا مرّتين». كانوا يحاولون التّظاهر إمّا بأنّهم ينتمون لطائفة (الهيبيز) وإمّا بأنهم مهرّبو مخدّرات صغار، كان أيّ شيء أفضل من أن يتمّ اكتشاف أنّهم ينتمون للصّحافة، عندما يتم اعتراض سبيلهم.

جلس الثّلاثة في المقعد الأماميّ وملؤوا المقعد الخلفي بعجلات وعلب بترول من سيّارات أخرى، وكانت معدّاتهم مكومة فوق كلّ هذه الأشياء ممّا ملأ السيّارة حتّى السّقف وجعل الرّؤية مستحيلة من المرآة الخلفيّة. بدؤوا في التحرك عند الفجر ثم توقّفوا ثلاث مرّات لإصلاح عجلات مثقوبة. لم يكن هناك تكييف في السيّارة ففتحوا النّوافذ.

ضرب الهواء السّاخن وجه هيلين وشفتيها وحوّل شعرها إلى أسلاك حادة كالسّوط، لكنّ الحركة إلى هدف معيّن أعطتها شعورا جيّدا. تشتّت تفكيرها الّذي امتلأ بالمنعطفات والوديان

الخطيرة الّتي شـكّلت مغامرة عظيمة. حال وصولها إلى تايلاند ستطير للقاء لين وسيستريحان في كاليفورنيا. سيكون هناك دوما حروبٌ أخرى وكلّها ستكون بقدر تلك الإثارة الّتي كانت متساوية مع الأخطار الّتي مرّوا بها. كانت تأتيها أحيانا الفكرة المحبطة أنّها بحاجة أن تبقى دائما في الجوّ، ومع ذلك وبعد كلّ تلك السّنين أصبحت متعبة من عدم استقرارها في مكان واحد لفترة طويلة، وعدم وضع كامل ثقلها على كاهل قشرة الأرض الّتي كان يمكن أن تتشقّق من تحتها. كان عملها هو التقاط الصّور لكنّها أحيانا كانت تنسى لماذا تفعل ذلك.

بدا الرّيف فارغا. فعندما مرّوا بالقرويّين كانت هناك نظرةٌ مفاجئةٌ تغمر وجوههم أكثر من أيّ شيء آخر. لم تعرف هيلين ماذا توقّعت أن ترى فما من شيء تغيّر، الوجوه الفارغة هي ذاتها، والأراضي المليئة بأشجار الموز وبالبقع التي تنتشر عليها ما برحت مكانها.

جلس مات في المنتصف ولفّ سيجارة مرّرها عليهم. كان يرتدي نظّارات شمسيّة باللّون الأزرق المعدنيّ عكست صورة هيلين حين كانت تنظر إليها.

«متى أتيت إلى هنا لأوّل مرّة؟» سألها.

«لماذا ترتدي هذه النّظارات؟».

«كان يجب أن تريها، كانت كأنّها تلميذةٌ ترتدي جوارب قصيرة» قال تانر.

أخذ مات سحبة طويلة من سيجارته وحبس نفَسه لدقيقة وقال رافعا صوته قليلا وهو لا يزال يحبس بعض الدّخان في رئتيه: «متى؟».

قال تانر: «علينا أن نتوقّف لنأكل».

قالت: «أنا أتضوّر جوعا. ماذا أحضرت؟».

«أحضرت ما اســـتطعت إيجاده. بعض الرّقائق وثمار المانجو والطّعام المعلّب» قال مات.

«كيف لـــك أن تحضر الطّعام المعلّب، ما كان يجدر بك ذلك» صاح تانر.

«ستكفينا لزمن طويل».

«يا إلهي!».

«أتعرف. قم أنت بإحضار الطّعام في المرّة القادمة يا ســـيادة المتذوّق». اســـتدار (مات) وركبتاه على المقعد وأحضر كيســـا من خلف المقعد فوقعت علبةٌ من النّافذة المفتوحة.

«ماذا تفعل؟» صاح تانر.

طـــارت علبةٌ مـــن رقائق البطاطا من النّافذة. أســـندت هيلين نفسها على الباب «أتيت في نهاية الخامسة والستين، تركت الكليّة وأتيت إلى هنا، فقد كنت قلقة أن تنتهي الحرب إن انتظرت إلى حين تخرّجـــي». ارتجفت قليلا لكنّ مات وتانر كانا لا يزالان يتجادلان. «أردتُ أن أعرف ما حلّ بأخي، رفض الطّيار أن يحطّ بالطّائرة لذا قام الطّاقم بدفع الرّجال منها من فوق ارتفاع عشرة أقدام، فتهشم كلا كاحلي أخي، وبينما هو عالق في الطّين قام أحد عناصر العدوّ بإطلاق النّار عليه فمات كالحيوان». حاول ما كراي أن يحميها من معرفة قبح التّفاصيل لكنّها احتفظت بها عبر السّـــنين. وشـــعرت بالرّاحة لعدم شعورها بأيّ شيء عند تلفّظها بها.

«خنازير قذرة». أخذ تانر ســـحبة طويلة من السّيجارة وفرّغ فمه من الدّخان بزفرة واحدة.

«أنـــت تجذب الانتباه إلينا برميك الأشـــياء من النّافذة» قال تانر مخاطبا مات.

«أنا جائعٌ» قال بعد أن طرح نفسه على المقعد.

بـــدا أنّهم نســـوا قصّتهـــا الّتي كان ثمنها غاليا ومرّت الدّقائق.

قال مات: «إذا لماذا بقيت طوال تلك المدّة؟».

صمتـــت هيلين وقالت: «لأنّه بدا لي أنّي أقوم بأهمّ عمل في العالم، وكانت تلك المغادرة بمنزلة الموت».

تابعوا طريقهم بصمت في السيّارة حتّى سمعوا صوت تنفيس عجلة أخرى.

«يا إلهي!» قال تانر.

أوقفوا الســـيارة بجانب كوخ صغير مخفيّ عن الطّريق خلف أجمة خيزران. أخرج تانر عجلة جديدة من الصندوق بينما مشى مات باتّجاه المبنى.

«إلى أين أنت ذاهبٌ؟» صاح تانر «لِمَ لا تساعدني؟».

«أنا أتبوّل. فهمت!» قال مات.

«لمَ يذهب إلى الكوخ؟ باحثا عن حمّام!» هزّ تانر رأسه وقال: «ذاكَ الولد واسع الحيلة».

بعـــد عدّة دقائق ظهر (مات) عنـــد زاوية الكوخ ولوّح إليهما. رأت هيلين العروق الحمراء تخطّ عينيه عن قرب وذلك بســـبب التّدخـــين وقلّة النّوم. تبعوه إلـــى حديقة موحلة صغيرة كان فيها إوزّة تُنازع وهي ما تزال على قيد الحياة.

«رجلها وجناحها مكسوران» قال (مات) بصوت حالم. حاولت الإوزّة أن تبتعد لكن كلّ ما اســـتطاعت فعله هو تشكيل دوائر في الغبار. بدت عيناها السّوداوان باهتتين لكن عندما اقترب (مات) أكثر أصدرت صوت هسهسة لتبعده.

«كيف يمكن أن نعرف؟» سأل تانر.

أجاب (مات): «لقد تربّيت في مزرعة يا رجل، وقد حان وقت الغداء».

تذمّر تانر.

نظرت هيلين من أحدهما إلى الآخر: «ألا يجب أن نغادر؟».

قال (مات): «علينا أن نأكل، أمهليني ساعة».

قال تانر: «ما زلت أعمل في تركيب العجلة الملعونة. هيّا. لكن هل أنت متأكّد أنّ هذا الطير غير مصاب بمرض داء الكَلَب؟».

«داء الكلب لا ينتقل إلى الطّيور يا رجل».

ندمت هيلين على المجيء معهما، ولم تستطع تحمّل مشادّاتهما أكثر من ذلك. أخافها تهوّرهما. فقد استطاعت أن تصمد طوال تلك المدّة لأنّها لم تخاطر من قبل إلّا مخاطرات محسوبة. قامت بمخاطرة واحدة مع سقوط سايغون حين غطّت الاستيلاء عليها، وكان عليها العودة إلى بلادها. كمبوديا كانت شيئا مغايرا تماما. «أنا بحاجة أن أخرج من هنا لأصل إلى لين».

استدار الرّجلان لينظرا إليها.

مسحت هيلين وجهها وقالت: «لا تهتمّا».

عاد انتباه (مات) إلى الإوزّة وقال: «ربّما سقطت من إحدى العربات أو ربّما تمّ دهسها. ستموت خلال ساعات وستذهب هباء».

مشت هيلين لتجلس في ظلّ الكوخ بينما قام (مات) بقطع رأس الإوزّة ونتف ريش جسمها المرتجف باحتراف وقطّعها ليطهوها على نار متّقدة. شعرت بالقرف من ذلك المنظر بأكمله، لكن بعد أن بدأت القطع بالاستواء وصدرت عنها رائحة اللّحم المطبوخ شعرت بطعنة في معدتها، وأدركت أنّها كانت تتضوّر جوعا. كان الجسد يخون دوما أفضل نوايا المرء. تلاشت ذكرى

الجسد المرفرف والرّأس والعنق الّذي تمّ رميه على بعد عدّة أقدام بين الأعشاب الطّويلة، وحلّت محلّها ذكرى غداء يوم الأحد عندما كانت شارلوت تقوم بقطع شرائح صغيرة من اللّحم الأبيض وتضعتها على أطباق من الخزف الصّينيّ، كانت تمرّر تلك القطع الصّغيرة كبتلات من الزّهر على أرجاء الطّاولة.

ابتسم (مات) وأحضر لهيلين قطعا كبيرة من لحم الصّدر والأفخاذ ملفوفة بورق. أكلتها بسرعة وهي تضحك مع الرَّجُلَين مستمتعين جميعا بلذّة الطّعم. مسحت الدّهن عن فمها وذقنها ومسحت يديها بسروالها لكنّها لم تتمكّن من إزالة بقايا الزّيت عنها.

جلس مات إلى جانبها وهو يحمل كاحل الطّير موصولا بفخذه بكلتا يديه وقد أخذ يأكل لُقما كبيرة من اللّحم الحارّ.

«كيف انتهى بك الحال مع زوج فيتناميّ؟» قال.

ابتسمت وأكلت لقمة أخرى من اللّحم. «اسأل تانر فقد كانت إحدى هواياته تحليل حياتي العاطفيّة».

«ليس الطّعام سيّئا أليس كذلك؟» سأل تانر وهو يشرب جرعة طويلة من زجاجة الويسكي.

أومأت هيلين «إنّه جيّد». أعطاها (مات) قطعة أخرى من لحم الصّدر. شربت جرعة طويلة من زجاجة الويسكي وأعادتها. قال تانر: «لا بأس بلين في رأيي فهو مصوّرٌ جيّدٌ ولا يتدخّل فيما لا يعنيه، ولا يبدو أنّه يكره حقيقة أنّه يُعامَل على أنّه مواطنٌ من الدّرجة الثّانية في بلاده، وأنّ أغلبنا يشكّ أنّه ينتمي للشعوب الحمراء».

قالت هيلين: «هذه بادرةٌ كبيرةٌ منك».

«ما أقوله: إنّ لين واقعيّ. هو بالطّبع يحبّك فقد حصل على

الجائــزة. ظنّ دارو أنّ كلّ ذلك بفضله. انخدع لظنّه أنّه كان هنا لهدف ســام، فعندما كان ينبش عن عنوان عريض أو عن جائزة كبقيّتنا كان يضعــك مكانه على تلك المروحيّة ويأتي هو إلى هنا مكانك».

أزعجت هيلين تلك الحقيقة.

كان لــون السّــماء أزرق باهتــا تخطّها أذيال غيــوم رفيعة كخطــوط الدّخان، ولم يكن هناك صوتٌ مســموعٌ ســوى صوت مضغهم للطّعام وخشخشة الورق.

«أين تعلّمت أن تطبخ هكذا بحقّ الجحيم؟» سأله تانر أخيرا.

نظــر (مات) إليهما: «هل حان وقــت الحقيقة. ضربني أبي كثيرا فقرّرت أنّ عليّ أن أهرب إن أردت البقاء على قيد الحياة. ذهبت إلى شــمال داكوتــا عندما كان عمري أربعة عشــر عاما وعملت في مطبخَ حتّى أصبح عمري ثمانية عشر عاما».

«لماذا إلى داكوتا الشّماليّة؟».

«ســمعت أمّي تقول يوما: لا أحد يملك عقلا سليما سيذهب إلى داكوتا الشّماليّة. فخطر لي أنّه لا أحدَ سيجدني هناك».

سألت هيلين «هل وجدوك؟».

«لم يبحثوا أبدا وقضيت هناك أفضل أوقات حياتي». أحنى (مات) رأســه. «وجدت امرأة هنديّة تعمل محاسبة. وظلت معي لمدّة أربع ســنوات حتّى اكتشــفتْ أنّي كاذبٌ حــين أخبرتها عن عمري فطردتني، هل تصدّق ذلك. لقد فعلت أشياء كثيرة».

قال تانر: «لا نريد أن نسمع عن امرأتك الهنديّة».

كان رأس هيلين يرنّ من أثر الكحول وشعرت بأنّ أمرا جديدا سوف يطرأ عليها.

«ماذا فعلت إذا؟».

صرخ (مات) وصفّق بيديه: «أتيت إلى فيتنام».
لم ترغب أن تعرف، لكن كان عليها أن تسأل: «كم عمرك؟».
«تسعة عشر عاما» قوّس حاجبيه. «لماذا تسألين. هل أنتِ مهتمّة؟».
«علينا أن نذهب».

«أفضل طريقة للذّهاب إلى إبادة جماعيّة هي على معدة ممتلئة» قال تانر، وانفجر هو ومات ضاحكين. ابتسمت هيلين. هما مهرّجان. كان غاري محقًّا فقد كانت سعيدة لعدم معرفتها أين كانت، لكن بعد مجيء الصّور سوف تعفو عن كلّ شيء مرّة أخرى. كان الأمر دوما متعلّقا بتجاوز الحدود.

قال تانر: «هذه ضربتنا أنا متأكّد بأنّنا سنغدو مشهورين».

قال مات: «سيقابلنا (كرونكيت) وستتقاتل علينا محطّات التلفزة».

«اللّعنة على العاملين في التّلفاز».

كادت هيلين تحسد فرحهم وشهوتهم للشّهرة وقلّة تعاطفهم المخجلة مع البشر.

سأل مات: «ماذا كان الأمر عليه في عام الخامسة والسّتين؟!».

ابتسمت هيلين وقالت: «أتيتم متأخّرين جدّا فالأيّام الجميلة قد ولّت وانتهت».

وعلى معدة ممتلئة تابعوا طريقهم بصمت ونعس حتّى وصلوا إلى الحدود. بدا مكتب الحراسة مهجورا لكنّهم أبطؤوا السيّارة على أيّة حال.

كان الطّريق أمامهم خاليا إلّا من الحجارة والأوراق المبعثرة ورجل عجوز يمشي باتّجاههم ويحمل حقيبة في كلّ يد. تعثّر الرجل عندما مرّوا بجانبه ولم ينظر إليهم إمّا بسبب التّعب أو الخوف. أوقفوا السيّارة.

«أيمكننا مساعدتُكَ يا أبتي؟» سألت هيلين.

وقف في مكانه متردّدا تحت أشـعّة الشّمس الحارقة وعيناه نصف مغلقتين خلف النّظارات ذات الإطار الأسود.

«أتريد الماء؟» سألته مشيرة إلى الماء.

أنـــزل حقائبه وكان الإرهاق واضحـــا على كتفيه اللّتين بقيتا منحنيتين وســـار بضع خطوات إلى الأمـــام. كان يرتدي قميصا أبيضَ رثًّا وســـروالا خاكيّا. وكانت قدماه مشقّقتين وتنزفان في حذائـــه الصيفيّ القديم. أنزل له تانر مقعدا من خلف الســـيّارة ليجلس عليه ثمّ ذهب إلى مقدّمة السيّارة وأحضر كاميرته.

أعطت هيلين العجوز قربة ماء فارتشـــف منها بسرعة كبيرة لدرجة أنّه تقيّأ.

«واو.. على مهلك يا عجوز!».

«من أين أتيتَ يا أبتي؟».

«(بريك فنو) الواقعة خارج (فنوم بينه)».

«إنّها مسافةٌ طويلةٌ للمشي؟».

«مشيت لمدّة أســـبوع وأكثر.. لا أعلم. لقد فقدت الإحساس بكلّ شـــيء. أختبئ في الغابة خلال النّهار، لكنّ الخمير الحمر لا يقتربون منّي معتقدين أنّني سأموت وحدي.

«ســـأذهب إلى (فنوم بينه)» قال تانر جالسا القرفصاء وهو يلتقط الصّور للعجوز وهو يشرب.

«لا».

«لا بأس يا أبتي».

«لقـــد أفرغوا المدينة والمستشـــفيات. إنّه لأمـــرٌ رهيبٌ. أرى أشياء لم أتمنَّ أن أعيش لأراها».

«هل أنت من فيتنام؟» سألت هيلين.

أحنى رأسه وأومأ «أنا عائدٌ إليها بعد عدّة سنوات».

عرفت أنّه لم يجدر بها أن تسأله عن عائلته، فذهبت إلى مقدّمة السيّارة وأحضرت له قربة ماء أخرى: «خذها. هل لديك طعام؟».

هزّ رأسه فأحضرت بعض السّندويشات والكعك والطّعام المعلّب.

«خذ الطّعام وبعض الضّمادات والمرهم لقدميك».

«الحدود هنا». قالت مشيرة بيديها إلى الأرض دون تحديد خطّ تماسّ، عدا عن بيت الحراسة. «القرية التّالية ليست بعيدة».

ما الّذي كان بعيدا بالنسبة لرجل عجوز على شفا الانهيار.

«لا تنسي مفتاح العلبة». قال (مات) قادما من جانب السيّارة وهو يبدو كتلميذ مدرسة مهذّب.

بقي العجوز جالسا وقال لهم شكرا.

عاد تانر وقال: «لنتابع طريقنا».

أومأت هيلين «عذرا يا أبتي، هل يمكنني أن ألتقط صورة لك؟».

نظر إليها نظرة فارغة وقال: «لم يبقَ أحدٌ يهتمّ يا بنيّتي».

وقف متردّدا وهو ينظر إلى الطّريق. بدا شيءٌ على وجهه عندما ركّزت عدسة كاميرتها، كان ارتجافا جعلها تشعر بالإحراج لإحساسها بالتّطفل. كانت الصّورة الّتي أرادتها هي أوّل نظرة نظرتها إليه، والّتي كانت لشخص صغير مجهول التقى بهم وهو يحمل حقيبته، لم تستطع أن تبين الصّورة. أدخل يده في جيبه وأخرج منها ميداليّة من الحجر الرّمليّ لم تكن أكبر من قطعة نقديّة صغيرة منحوتة عليها صورةٌ لبوذا وأعطاها إيّاها.

«لا أستطيع أن أقبلها» قالت.

«لديّ واحدةٌ أيضا وهي تمنحني الأمل». أخرج واحدة أخرى من قميصه «ضعيها في فمك هكذا». فتح فمه كاشفا عن بضع أسنان وحيدة. وضعها على لسانه ثمّ أغلق شفتيه. بصقها من جديد. «ستحميك من الضرر. لهذا هربت ولم يقتلوني كما قتلوا البقيّة. قام بحركةٍ تقطيع بمجرفة بيديه.

أخذت هيلين صورة بوذا ويدها ترتجف وانحنت للعجوز. «أتمنّى أن تحمينا كما حمتك». وبعد أن تابعوا طريقهم رأته يحمل حقيبته ويمضي في طريقه. خرجت من النّافذة والتقطت الصّورة الّتي أرادتها من الخلف. قال تانر: «لو كنت مكانك لما وضعت تلك الميداليّة في فمي لأنّه لا يمكننا أن نعرف أين كانت!».

ضحك تانر و(مات) كزوج من الضّباع وهما يشاهدان العجوز يصغر ويتلاشى في المرآة الجانبيّة للسيّارة حتّى أصبح ظلّا اختفى في الأفق.

مضت عليهم ساعاتٌ طويلة وهم يقودون السيّارة على فوّهة حافّة أخاديد شديدة تحاذي امتدادات حقول الأرزّ الّتي كانت ملساء أكثر من الطّريق، وهم يتقدّمون ببطء حتّى وصلوا إلى طريق مسدودة.

بدا الأمر مجرّد ركام من مسافة بعيدة لكن عن قرب ظهرت لهم جمجمة وخوذة وسلاح وحذاء. لقد دخلوا أرضا خارج حدود اللّغة، ممّا عنى أنّه إذا تقدّموا لم يبقَ أمامهم إلّا الخطر. فجأة بدا الهواء الحارق يحتدم أكثر جفافا وغدرا. أخرجت هيلين رأسها من النّافذة ونظرت خلفها إلى الطّريق الّذي قدموا منه. هل يمكن أن يكون العجوز قد وصل إلى برّ الأمان! عندما كان مات وتانر مشغولين بالخريطة وضعت الميداليّة في فمها. كانت بنيتها رمليّة كالإسفنج، وطعمها مالحا كالتّراب والحديد.

«يبدو أنّنا أمسكنا بطريدتنا» قال مات.

استدارت هيلين لتنظر إلى الأرض المحروقة أمامها حيث كانت الأرض والسّماء سلسلة من الألوان الحمراء والصّفراء القاسيّة والأشجار الواهنة المليئة بالأشواك.

كان المكان بأكمله كمادّة سريعة الالتهاب تنتظر الاشتعال.

بدا الشّكل الأوّل مجرّد كومة من الخرق على طرف الطّريق، لكن عندما تباطأت العربة اتّضح أنّها جثة ولد صغير مكوّم على جانبه كأنّه نائمٌ ويده الصّغيرة تغطّي تجويف أذنه.

شعرت هيلين بالشّجاعة تنسلّ منها ويحلّ محلّها الخوف واليأس. امتدّت جثثٌ على بعد ربع ميل آخر، منها امرأة في العشرينات من عمرها ويداها ممتدّتان على جانبيها كما لو أنّها تعرّضت لصدمة، وكان هناك أيضا جثّة رجل وذراعاه مطويّتان خلفه كأنّه يسترخي. ثمّ بدأت الجثث تتزايد على الطّريق، منها عائلات ومجموعات من الرّجال وعجائز ونساء كلّهم تعرّضوا لإطلاق النّار واصطفّوا كحزم الأرزّ المحصودة بالمناجل؛ ممّا اضطرّ تانر إلى إبطاء السيّارة والانحراف والتّمايل جيئة وذهابا على طول الطّريق، حتّى أصبحت الجثث كثيرة جدا وكثيفة فتوقّف ليتجنّب دهسها.

نزل تانر ومات من السيّارة بينما جلست هيلين تضع فيلما في كاميراتها. جهّزت نفسها ووضعت منديلا مبلّلا بالمرهم على أنفها ثم تقدموا وبدؤوا بالتّصوير. أشار إليها تانر فمشت إلى حافّة الطّريق، ورأت الميدان مليئا بمئات الجثث المكوّمة، كان العديد منهم مقطوع الرّأس ومضروبا بالهراوة، فعرفوا أنّ قصص (فاي شول) كانت حقيقيّة، فقد تمّ القتل بالمعاول من أجل توفير طلقات الرصاص.

«نحن الوحيدون الّذين تمكنّا من التقاط هذه الصّور» همس مات وفكّه مشدودٌ ومرتجفٌ ثمّ استدار مبتعدا وتقيّأ.

وضعت هيلين يدها على ظهره وقالت: «لا بأس قد حدث ما حدث، اشرب بعض الماء».

«لم يحدث هذا معي قبلا» أبعد مات يدها ومسح وجهه.

عضت شـفتها لانزعاجها: «إنّها المرّة الأولى الّتي بدأت تثير فيها إعجابي» قالت هيلين.

«إنّ مقاييسك غريبة» قال.

«لقد صوّرنا بما فيه الكفاية» قال تانر: «لنذهب».

عاد الرّجلان إلى السيّارة ومن دون تفكير انحنت هيلين عبر السياج والتقطت صورا أكثر للجثث المكوّمة. حيث التقطت صورة من زاوية سـفلى أفضل، حيث ظهرت السّماء من خلفها ليتمكّن مَـن يراها من أن يشـعر بضخامة الأكوام. إذا لـم تكن الصّورة جيّدة فهذا يعني أنّ المصوّر لم يكن قريبا بما فيه الكفاية. أخذت صـورة قريبة لفتاة صغيرة كان فيها مسـحة سـلام كما لو أنّها نائمـةٌ وقد تدلت وردةٌ من شـعرها. بعد خمس دقائق تسـلّقت هيلين عائدة ومشـت إلى السيّارة. في الدّاخل دفعت قفل الباب إلى الأسـفل ثمّ ضحكت من حماقتها. «إننـي أصاب بالجنون، أعطني زجاجة من أيّ شيء».

«حان وقت الويسـكي» قـال مات وبحث فـي الحقائب من جديد.

قاد تانر السيّارة على الطّريق وقال: «إلى الأمام!».

أخذت هيلين رشفة طويلة ومسحت فمها وشربت من جديد.

كان مقياس هذا الفسـاد كأنّه جزء مـن الحرب العالميّة الثانية.

هزّت هيلين رأسـها. مـن الواضح أنّ الأمـر كان أكبر منه «لن

نصل أبدا إلى (فنوم بينه). وحتّى لو وصلنا ماذا سـيحدث إذا؟ سيصادرون الفيلم». تمعّنت هيلين في الخريطة «لنعُد عدّة أميال ونأخـذ هذا الطّريق الجانبـي. من المحتمل أنّه مسـار قطعان الأبقار لكنّه متشـابك مع الطّريق السّـادس، والطريق السّادس يقود إلى تايلاند».

صرخ تانر وضرب يده بلوحة العدّادات «ما رأيكم أن نشترك نحـن الثّلاثة بجائـزة (البوليتزر)!» ضحك «لقـد حصلنا على الصّور، تخيّلوا مدى حسن حظّنا».

حاولت هيلين الإمسـاك بزجاجة الويسـكي لكـنّ يدها لم تتمكّـن من القبض عليها فقد كانت تهتزّ بشـكل كبير. وضعتها بـين ركبتيها لكيلا يتمكّن الرّجلان من الملاحظة. السّـخرية لم تكـن لتحصل برفقة أفضل في هذه الرّحلة؛ لأنّهما كانا منعزلين عن الرّعب ومنشـغلين بطموحهما. لم تكن تمتلك القوّة في تلك اللّحظة لتسـأل نفسـها عن دوافعها. لماذا كانت هناك حقا؟! لم يكن بوسعها إلّا أن تصلّي من أجل أن يقودهم جهلهم إلى الحدود.

«ظنّوا أنّهم سيفِرّون دون عقاب فقد أنكر (بول بوت) كلّ شيء لأنّه ما من دليل إن لم توجد الصّور. لن يجعلنا ذلك مشـهورين هنا! أليس كذلك!» قالت هيلين.

«سيقتلوننا إن أمسكوا بنا» وافقها تانر «أعطني تلك الزّجاجة ودعينا نحتفل».

«عليهم أن يمسكوا بنا أوّلا يا عزيزتي هيلين» قال مات.

وصلـوا إلـى نهر الميكونغ بعـد قضاء ليلة ونهـار آخر على الطّرقـات الوعرة. تناقش تانر مع قائد المركبة ثمّ أعطاه رشـوة ليقـوم بنقلهـم عبر النّهـر. كان الرّجل يُدعى تشـان وله عيون خنزير صغيرةٌ وأحد خدّيه منتفخٌ عن الآخر بسـبب سنّ ملتهبة.

استمرّ الرجل في تحريك قدر فيه شيءٌ أخضر على النّار وسكب الصّلصة على كمّادة متّسخة كانت يده اليسرى تفتقد ثلاث أصابع مقطوعة من تحت المفصل. وبعد أن طلب منه مات أن ينظر بسرعة إلى خدّه استدار وقال: «أنا مصابٌ بخرّاج».

أخيرا وافق تشان على أن يأخذهم عبر النّهر مقابل ثمن باهظ يعادل عشرة أضعاف الثمن المعتاد، وأصرّ أن يتمّ تمويه عربة المحطّة بمظلة من أوراق النّخيل. أخذ كلّ من تانر ومات يغطّون السيّارة، مشت هيلين إلى مات لتبلّل منديلها. طفا قميصٌ ورديٌّ ذو مربّعات على سطح الماء وعندما اقترب أكثر رأت أنّه يغطّي جذعا متورّما لإنسان. كان القماش مشدودا بشقّ الدّرزات. ظهرت جثّةٌ امرأة ترتدي ثوبا أسود ووجهها إلى الأسفل ولها شعرٌ طويلٌ يتمايل بين أعواد القصب.

خلال العبور كانت المياه كالمعدن السّائل، وكانت العبّارة متوقّفة على سطحها دون حراك. نظرت هيلين إلى الماء وانعكست صورتها حادّة وكأنّها تنظر في مرآة.

جلس قائد العبّارة على حافّة القارب وكمّادةٌ مشدودةٌ حول رقبته وحدّق فيهم، دخّن كلّ من مات وتانر سيجارة «دعنا نحم غطاءنا».

وضعت هيلين صورة بوذا على لسانها بعد أن تعوّدت على طعم الحديد حتّى غدا طعمها المرّ مريحا لها.

«أنا لا أثق به» قالت هيلين.

امتعض مات ونظر إلى تشان وصورته الجاثمة الصّارمة منعكسة على نظّارته الشمسيّة الزّرقاء «ماذا تريدين أن تفعلي؟ تقتلينه!».

«سيقوم بالإبلاغ عنا» قالت.

«حظّنا سـيئٌ، سـنعبر الحدود في النّهار ولكنّي سأقتله إن أردت ذلك».

شَعرت بأنّ رأسها خفيفٌ كأنّه لم يكن هناك كميّة أوكسجين كافية في الجوّ.

بعـد أن نزلوا عـن العبّارة دفع تانر لتشان مرّة أخرى هبة مالية لكي ينسى لقاءهم. أخذها الرجل بحماس وابتسم للمرّة الأولى متنفّسـا في وجوههم، كانت أنفاسه أشبه بالكبريت، لكنّ البغـض بقي ملحوظا فـي عينيه. كان يماطل في سـحب حبل البوّابة ليسـمح للسيّارة بالمرور. تطوّرت إنكليزيّته المبسّطة فجأة وقال: «الخمير سيّئون والأمريكان أغنياء وهم الأفضل».

«كيف سـنصل إلى حدود تايلانـد دون أن نصطدم بالخمير إذا؟» أخرج مات كيسا من الماريغوانا ليريه له.

«لا مشكلة!».

تكلّم تشـان مع مـات ودلّه على الاتّجاهـات التي يمكن أن يسلكوها. سحب مات رزمة سميكة من جيبه وأعطاه المزيد. أشار تشان إلى السيّارة وإلى هيلين ثمّ قام بحركة التقاط الصّورة.

أومأ مات بحكمة وأشـار إلى هيلين «إنّها حبيبتي، وتريد أن تلتقط صورا لـ(فنوم بينه) و(إنغكور وات)». ثم تجهم مات وأخذه جانبا «كم تبعد المسافة إلى (إنغكور)، وإلا فلن..؟».

قـام بحركة فاحشـة بيده فضحـك قائد العبّـارة. أعطاه مجموعة إرشـادات معقّدة أخرى وأخذ قلمه ليرسـم جزءا من الصّورة على ورقة.

أخرج تانر نقودا إضافيّة وأعطاه إيّاها.

«اذهبوا إلى (فنوم بينه) فالمكان هناك أفضل».

«ألا يوجد خطرٌ؟!».

«المـــكان هنـــاك أفضل». أصرّ الرّجل وربّـــت على معدة تانر وقال: «نساء».

تحرّك فـــي النّهاية لينـــزل حبل الحاجز، وتحـــرّك الرّجال الثّلاثة على المنحدر ليقودوا عربة المحطّة.

«هـــل أنتم ذاهبون إلى (فنوم بينـــه)؟» ألحّ الرجل كما لو كان أمّا قلقة.

«نعم إلى فنوم بينه».

هزّ مات رأسه بكسل ولوّح إليه عند انطلاقهم. رفع كلتا يديه عن المقود وقام بالحركة الفاحشة فأضحك تشان.

«سنتجنّب الأخطار بالتّأكيد» قال مات.

«سنمضي من خلال الطّريق الطّويل إذا؟» سأل تانر.

«يتوقّع منّا تشان أن نفعل ذلك».

«لا. سنأخذ الطريق الأقصر لأن تشان يتوقّع منّا أن نخونه».

«فلنَخُن ظنونه أكثر ونفعل ما نريد».

انطلقـــوا بمعنويّات عالية مقتنعين أنّهـــم ضلّلوا قائد العبّارة، لكنّ الرّحلة تحوّلت إلى سلســـلة مرعبة من المنعطفات الخاطئة والطّرق المسدودة.

«لقد كذب علينا ذاك الوغد الصّغير». قال تانر وهو يضرب بيديه على المقود.

«كان عليّ أن أبعده» قال مات. توقّفوا عند الغســـق لخوفهم من خطر القبض عليهم بســـبب أضواء الســـيارة. كانوا حذرين أن تأخذهم المفاجأة فخبّؤوا الســـيّارة بين الأشـــجار وناموا في الخندق. جلســـت هيلين على كومة من أوراق الأشجار «أصغوا». همست لهم.

«ماذا هناك؟» سأل مات.

«لا أصوات.. لا شيء.. لا طيور حتّى أو حشرات».

«أنت السيّدة الّتي تعشق الصّمت».

لم يَتحدّث أحد لعدّة دقائق.

«غريب». قال تانر «غدا عند الغداء سنكون في أفضل فندق في بانكوك نفتح زجاجة شمبانيا».

نظرت هيلين إلى السّماء، لكن حتّى في تلك القبّة شديدة السواد لم تظهر أيّة نجمة. كانت كغطاء من الرّصاص، فحتّى السّماوات كانت مطفأة. «أنا جاهزة للعودة إلى الوطن» قالت.

«ما الذي أخّرك هكذا؟».

ارتجفت في الظّلام «كنت تائهة».

أغمضت هيلين عينيها وفكّرت بلفافات الأفلام الموجودة في السيّارة وبالصّور الّتي ما زالت في الطّبقة الحسّاسة منها، ودار في ذهنها أماكن الظّلام والنّور كما لو أنّها كانت بداية العالم. كانت هي نفسها ممتلئة بالصّور الكامنة الّتي التقطتها عبر السّنين، ومع ذلك فإنّ ما رأته سيبقى مختبئا في داخلها. كان لين قد غطّى عينيها خلال مهمّة (داك تو) لأنّه كان يعرف أنّ العين هي أكثر الأعضاء أهميّة. نغلق عيوننا إمّا لنجنّب أنفسنا الأخطار وإمّا في وجه من نحبّ. أن ترى يعني أن تكون متحملا للمسؤوليّة. كانت الجيوش تضع عصابات على أعين السجناء لكي تفرض قوّتها عليهم في الميادين، كان الخمير الحمر يجعلون الناس يستديرون بعيدا لكي لا يرى الجلّادون أنفسهم في عيون ضحاياهم.

ربّما كان تانر على حقّ، فالصّور كانت جيّدة، وقد تمّ التقاطها بمخاطرة كبيرة، كان لديهم فرصةً في ربح بعض الجوائز ممّا جعلها تأمل فى الوصول إلى مستوى دارو الفني.

كان الأمر أشبه بمطاردة ذيل نجم مذنّب. لقد أنجزت آخر عمل لها في الحرب وكانت فخورة بذلك. لكن حتّى مع اقترابها من الهدف فهمت أنّ ازدراء دارو لم يكن ادعاء، وأنّه مع الوقت الّذي يتمكّن فيه المرء من اكتساب أوسمة شرف كتلك، يكون مضطرًا لدفع ثمن أكثر بكثير ممّا تستحقّ. ومع ذلك كانت لا تزال باقية هناك..

وعندما خلدت للنّوم سألت نفسها أين كان لين؟ هل كان ما يزال على العبّارة أو هو الآن في طريقه إلى كاليفورنيا! ورأت نفسها تعود إلى مجمّع السّفارة وترى الأوراق المحترقة والدخان يدوران في الهواء. ثمّ تخيّلت نفسها على السّطح تُدخل لين إلى المروحيّة، لكنّها ستبقى معه هذه المرّة وتشعر بالخفّة المألوفة عندما يطيرون فوق المدينة المظلمة ثمّ فوق الماء الّذي كان أكثر ظلاما. كانت تمسك بيد لين وكانت حرّة للمرّة الأولى منذ عدّة سنوات، ربّما للمرّة الأولى في حياتها. كان المستقبل يسارع خطاه إليهما من مكان ما في ذلك الظّلام. هل تمكّنت حقًّا من خداع قدرها!

فكّرت بأخيها ولم تكن في مخيّلتها عنه تلك الصّورة الّتي دمرتها الحرب، لكنها تخيّلت صورته السّابقة وهو يضحك ويرقص حولها. كانت يداه مرفوعتين للأعلى في حركة ملاكمة مخادعة، وكان شعره مملّسا إلى الخلف، وأسنانه البيضاء تلمع. نسيتْ أنّه كانت له حياته الخاصة قبل الحرب. وبسبب إحساسها بالذّنب والمنافسة أضاعت فرصتها بأن تمتلك حياة خاصّة بها. لكنّ مايكل بعد ذلك هزّ رأسه كحصان يحرّر نفسه ممّا يشكمه ورفض ذكراها له.

رأت هيلين الفتاة الكمبوديّة الّتي صوّرتها في التّجمّع مسبقا. تخيّلت تمزيق قماشة قميصها الرّقيقة وخصلات شعرها

الطّويل الّتي كانــت كخيوط الحرير، بل كأجزاء لولبيّة من زهور نجمــة الصّبح فــي الرّبيع، وقد بدت غائــرة في جوف ضلوعها وفي تجاويف عينيهــا الجافّة. كان الموتــى يدخلون في الأحياء ويختبئــون في جلودهم ويطوفون في الدّم ليســتقرّوا أخيرا في القلب. استوعبت هيلين لغز الفتاة الصّغيرة وعرفت أنّها ستصبح مثلها شــجاعة ومليئة بالإقدام، فقد عرفــت خوفها وقرّرت أن تتجاهله، وأخيرا امتلكت الشّــجاعة الكافية للعودة إلى الوطن. لقد حان وقت التّخلي عن الحرب.

استيقظت هيلين قبل الرّجلين عند الفجر وشعرت بالرّاحة كما لو أنّها قد نامت ثماني ســاعات في ســريرها الخاص. مشــت إلى السـيّارة وأخذت قميصا نظيفا من حقيبة مات. كان لونه أزرق فاتحا وعليه علامة السّــلام. مرّرت يدها على النّدبة الّتي على معدتها. كان لين قد مرّر أصابعه عليها قبلا، على تلك البشــرة اللّامعة والفاتحة قزحيّة اللّون كحراشــف السّمك.

«لن أتمكّن من ارتداء البكّيني بعد الآن».

«هذا يجعلني أحبّك أكثر» قال لها.

«لماذا؟».

«هذا يثبت أنّك سوف تكونين شجاعة في المستقبل».

لكنّها لم تعد تشعر بالشّجاعة، فمنذ بداية وصولها إلى فيتنام كانت الشّجاعة هوســها، فقد كانت خاصيّة قديمة موجودة في الحياة العصريّة، وهي ذاتهــا الخاصيّة الّتي نالت إعجابها لدى لين ودارو. أمّا عندها فقد كانت موجودة بشــكل نادر. كانت تلك هي حياة الصّحافيّ. فقد شــعرت أنّها كبرت في الســنّ مقارنة بالهمجيّــين أمثال مــات. أصبحت ليّنة وضعيفــة، لكنّها أبعدت

تلك الفكرة عن ذهنها على أيّة حال. استدارت بعد أن ارتدت القميص ورأت مات ينظر إليها.

«تبدين جميلة» قال.

حملت حقيبته ورمتها عليه وقالت: «منحرف شاذّ».

وصلوا إلى الطّريق السادس وسط فترة الصّباح بعد أن أعطوا السّجائر للقرويّين العاملين في الحقول مقابل المعلومات، متحدّثين معهم عن طريق معرفتهم القليلة باللّغة الفرنسيّة والكمبوديّة. أطلقوا هتافات الفرح «بانكوك ها نحن قادمون». صاح تانر «سأحصل على أجمل عاهرة إن دفعت ثمنها». فكّرت هيلين بالصّور الّتي ما زالت في الفيلم. كانت ستصرّ على إنجاز عملها بنفسها في الغرفة المظلمة. كانت أوراق الأشجار متناثرة في الطّريق الفارغ أمامهم. وقدّر تانر أنّه بعد قيادة السيّارة ليوم واحد سيصلون إلى تايلاند.

توقّفوا في منتصف الطّريق عندما لم تستطع هيلين تأجيل حاجتها للتّبوّل.

طلبت من الرّجلين أن يستديرا، وقضت حاجتها خلف السيّارة، فقد كان من الخطر أن تدخل بين الشّجيرات بسبب الألغام. رأت على بُعد عدّة أقدام من مكان جلوسها القرفصاء نظّارات محطّمة سوداء كالّتي كان يرتديها العجوز الكمبوديّ.

كانوا على بُعد نصف ساعة من أنغكور عندما سمعوا صوت انفجار مدوّ، ورأوا زوبعة صغيرة في الوقت الّذي تمّ فيه إطلاق النّار من مسدّس آليّ على النّافذة الخلفيّة. طارت شظايا الزّجاج في السيّارة كالفولاذ حيث ارتطم معظمها وجرح بعضها الأذرع والوجوه.

كانت النّافذة الخلفيّة محجوبة ولم تستطع هيلين أن ترى أيّ شيء خلفها، فاسترقت النّظر من خلال المرايا الجانبيّة

لكنّ السـيّارة كانت تهتزّ بعنف ولم تستطع إلّا أن تلمح صبيًا، ثمّ رأت السّـماء ثمّ الصبيّ ثمّ الأرض. داس تانر على دوّاسة الوقود وتقدّمـت عربة المحطّة إلى الأمام بينما تمّ إطلاق الرّصاص من جديد على أبواب السـيّارة. انفجرت الإطارات وانزلقت السيّارة في الخندق.

«اللّعنـة، اللّعنة، اللّعنة» قال مات. تحطّمت إحدى عدسـات نظّارته الزّرقاء وكشف عن جرح في القرب من عينه.

«اخرس يجب ألا يبدو عليك القلق» قال تانر.

«أهذا وقت المزاح؟» قال مات.

أحاط بالسـيّارة مجموعة من الجنود. ثم شـرعوا يضربونها مسـتخدمين قبضاتهم. كانوا يرتدون ثيابا موحدّة رثّة مع شالات عليهـا مربّعاتٌ حمراء ملفوفةٌ حول رؤوسـهم وأعناقهم، لتشـير إلـى أنهم من الخمير الحمر. وكانـت البنادق معلّقة على أكتافهم الصّغيرة. كان قائدهم حافيَ القدمين ولكنّه يرتدي قبّعة ونظّارات طيّـار ملوّنة باللّون البرتقاليّ تتماشـى مع السّـماء النّاريّة، كان مظهره في غاية الغرابة مما جعله يبدو أقلّ خطرا. ضرب محرّك السيّارة بمؤخّرة بندقيّته ممّا ترك تجاويف بيضاويّة الشّكل، بينما قام جنديّان بفتح باب السّائق وأشاروا إلى الثّلاثة بالنّزول.

نزل في البداية تانر ثمّ مات ثمّ هيلين وأيديهم وراء رؤوسهم. أشـار الجنود إلى الطّريق بالبنادق. أملت هيلين أن يقوموا فقط بأخـذ السـيّارة ويدعوهم يذهبـون في حال سـبيلهم، وكلّ ما اسـتطاعت التّفكير فيه هو الصّور الضّائعة، لكن عندما مشـى الثّلاثة لمسـافة عشرين ياردة سـمعت إصدارا للأوامر، فركض خلفهم أحد الجنود واستخدم بندقيّته كمضرب بيسبول وضرب مات على ركبتيه من الخلف.

لم يكن عمر الجنديّ أكثر من عشــر سنوات أو إحدى عشرة ســنة، وكان وجهه نحيلا وأسنانه كبيرة ومتراكبة، وعندما صرخ كان صوته يبدو كصياح الفتيات. أشــارِ إلــى الآخرَين أن يركعا فــي منتصف الطّريق أيضا، وعندمــا فعلا ذلك ضحك ضحكة عريضة وربّت على ظهر مات.

«على الرّحب والسعة أيّها الصّغير القذر» قال مات.

أغلقــت هيلين عينيها. كان الأمر برمّته غير حقيقيّ كالوهم. أرادت أن تقف وتنتزع السّلاح من الصبيّ وتصفعه. لذا بدا بعيد الاحتمــال أن يقوم أحدٌ ما في أيّــة لحظة ويضحك ويعترف أنّ الأمر برمّته مجرّد لعبة.

فتحــت عينيها لدى ســماعها صوت تذمّر مــن مات، ورأت الجنديّ يشــير إليهم لأن يُنزلوا أيديهــم ويخلعوا أحذيتهم. كان الجنود صبيّة ولم تكن لديهم الخبرة، لدرجة أنّهم لم يعرفوا كيف يفتّشون عَن الأسلحة الموجودة معهم، لكنّ السّلاح الّذي كان بحوزة مات كان مخبّأ بأمان في السيّارة. لم تكن لديهم أي فرصة بالطّبع لأن يطلقوا النّار ليخلّصوا أنفســهم. جلس الثّلاثة على الطّريق وأخذوا يفكّون أربطة أحذيتهم بأصابع خدرة ويتبادلون النّظرات. أدخلــت هيلين يدها في جيبها ووضعت أيقونة بوذا الصّغيرة في فمهــا دون أن يراها أحدٌ. وأحسّــت بمرارة الحديد المنقذة. بعد ذلك أمروهم وهم حفاة بــأن يركعوا من جديد ويضعوا أذرعهم إلى الخلف بمرافق متلاصقة، اتّجه جنودٌ آخرون وربطوا أيديهم بحبل خشن. لعنت هيلين نفسها لأنّها لم تغطّ صدرها حيث كان اثنان من الجنود يضحكان ويشيران إليها. نظر الجنديّ الأصغر ذو الشّــعر المجعّد بمكر إلى القائد المشــغول بالسيّارة ثمّ انحنى وأمسك بصدرها بسرعة.

اندفـع مات إليـه، فوجّه الجنديّ الآخـر بندقيّته إلى رأس مات.

قالت هيلين: «لا، مهما يحدث لا يمكنك إيقافه، أريدك أن تبقـى على قيد الحياة». ارتجفت ركبتاها وحاولت أن تجلس. كانت أفكارها مجزّأة بطيئـة تخرج منها بجهد كبير. لم يكن هنـاك فائدة من أن يخبروهم أنّهم مـن الصّحافة؛ لأنّ ذلك سـيكون بمنزلة حكم بالإعدام. كان كلّ شيء ضدّهم بما فيه لون جلدهم والسيّارة بكلّ محتوياتها. كان فمها مليئا باللّعاب وقبل أن تفكّر وقفت على قدميها وبصقت على الجنديّ الّذي لمسها.

بدا الجندي مصدوما، ثمّ انفجر ضاحكا. ضحك معه الجنود الآخرون. رجعـت هيلين إلى الخلف ورأت باقي الجنود يحوّمون حول السيّارة، كان المجيء إلى هذا المكان خطأ فادحا. كان ظلما كبيرا أنّ الإنسـان لم يحصـل على أية أمْنية سـحريّة، وأنّه لم يتمكّـن من إلغـاء خطأ واحد في حياتـه. كان ندمها الأكبر في موتها بتلك الطّريقة هو تأثيره على لين. عند السـيّارة سـحب الجنـود كلّ المعـدّات ورفعوا كلّ كاميرا إلى مسـتوى رؤوسـهم وحطّموهـا على حجـارة الطّريق. قام أحد الجنـود بفتح علب الأفلام وانتزع اللفافات من علبها المظلمة وكشـفها على الضّوء. شـعرت هيلين أنّها أنجزت عملها وتحرّرت من سـحر الحرب. كانـت الحرب بشـهيّتها الأبديّة للدّمار الّذي كان يبيد الأشـياء والأرض والنّاس دون تمييز. رأت الجنود وهم يكوّمون مقتنياتهم ويرمـون عليهم قنبلة يدوية ويضحكـون على الانفجار والحطام المتناثر. قام الجنود أيضـا بالقفز على أكياس الطّعام رغم أنّهم لـم يكن لديهم ما يكفيهم ليأكلـوه، كما فتحوا الطّعام المعلّب. ثمّ

صبّوا الوقود داخل السـيّارة وأشـعلوها فأصدرت دخانا أسود كثيفا إلى السّماء.

ثم تحول انتباههم الشّرير إلى الثّلاثة الرّاكعين على الأرض. نظـرت هيلين إلى الطّريـق وحاولت أن تتخيّل حـدود تايلاند. تخيّلت أنّهم كانوا سـيصلون إلى طريق مسـدود بنهر مع أنّها لم تتذكّـر وجود نهر على الخريطة، لكنّ النّهر كان واضحا ومندفعا في مخيلتها، وعرفت أنّ عليها أن تسبح لتنقذ نفسها، وكان ثمن ذلك العبور هو أن تترك خلفها كلّ شـيء حدث في تلك الحرب. تذكّـرت الكلمات الّتي ردّدها دارو في اللّيلـة الأولى الّتي التقيا فيها ولم تفهمها حتّى الآن: «دعها تعد للوطن بالسّـفن الكبيرة، يجـب ألا تُترك على الأرض الغريبة». أرادت أن تعود إلى الوطن ولـم تُرد أن تبقى هناك. تخيّلت لين واقفـا ينتظرها عند بوابة خيـزران صغيرة. فقد كان انتظاره لها هـو الّذي أنقذها دوما. سـمعت صوت إطلاق نار على مدى قريب منها لكنّها لم تستدر لتنظر. ضغطت أيقونة بوذا على سـقف فمها وشـدّت أسنانها حتّى شـعرت بهـا تتصدّع، تذوّقـت طعم الدّم المالـح في فمها ممتزجا بالحديـد الّذي أصبح جزءا منهـا. فوجئَت أنّهم كانوا يسـتخدمون الرّصاص بمثابة معاملة خاصّة للأجانب. سـمعت تذمّر مات لكنّها لم تنظر فالنّظر سيجعل الأمر واقعيّا. لم يصدر صوت عن تانر الآن فلم يبقَ سواهما.

كان الهواء كثيفا ومشبعا برائحة الدّم المعدنيّة.

سمعت صوت خشخشة، لكنّها كانت مذهولة تبحث عن نجاة أو سـلام أو نعمة أو فراغ، لكي تسـتطيع إصلاح الأشـياء الّتي قامـت بها أو لم تقم. أصبح الصوت أقرب كحلم، وتسـاءلت إن كان صـوت قلبها أو صوت تفتّت أعضاء جسـدها. جعل صوت

طلقة أخـرى أذنيها ترنّ، وحـلّ الصّمت في المـكان وأصبحت وحيـدة. كانت وحيدة كما لـم تكن من قبل فـي حياتها. ورغم سـوء الأمر استـجمعت قواها لتأخذ نفسـا جديدا. حزنت في تلك اللّحظة على خسارة صديقيها البريئين أكثر من حزنها على الخسائر الّتي سـمعت بها كلّها. شعرت بسائل حار بين فخذيها عندما استرخت مثانتها.

عضّت على أيقونة بوذا، كان الألم محرّرا، شـعرت بسـيلان من بين شـفتيها حين امتلأ فمها بالدّم. أحسّـت بأيد تلمسـها وتجرّها بعنفٍ من شعرها حتّى تقف على قدميها. كانت رجلاها فـي غاية الضّعف لدرجة أنّها سـقطت علـى الأرض من جديد لخوفها ممّا خطّطوا أن يفعلوه بها قبل أن يقتلوها.

سـمعت صوتا جديدا، وعندما شجّعت نفسها نظرت لتعرف مصدره ورأت شـاحنة صغيرة مغبرّة واقفة إلى جانب سيّارتهم المحترقـة حيث نزل منهـا رجلٌ في منتصـف العمر وأخذ على عاتقه قيادة المجموعة.

أغلقت هيلين عينيها من جديد، وكانت أكبر أمنياتها أن يأتي الموت بسرعة أكبر.

شـعرت بدفعة قويّـة بالبندقيّة على ظهرهـا فوقفت على قدميها. تعثّرت للأمام وخطت خطوة ثمّ خطوة تالية. آلم الحصى قدميهـا لكنّهـا لم تعدّ ذلك ألمـا، إنّما حياة، حيـاة لا جيّدة ولا سـيّئة، لم يتبعها أحدٌ ولم يكن أحدٌ إلى جانبها. كانوا يتلاعبون بها ويجبرونها على المشـي معهم للاسـتفادة منها لاحقا. تمنّت أن تتحرّك بشكل أسـرع، أن تركض، لكنّها بالكاد استطاعت أن تمشـي مشية مترنّحة بطيئة في طريق فارغ. بقيت أذناها ترنّان بصوت الطّلقات البعيدة، لقد رحل صديقاها واستطاعت سماع

الجنود يتجادلون من خلفها، وحاولت أن تمشـــي بشـــكل أســـرع لكنّها لم تستطع.

أغلقت عينيها ورأت نفسها تطير في الهواء. هل أتى الملاك! كانت إنفكور في الأمام. كلّ شيء آخر كان في الأسفل، من الجنود إلى الطّريق إلى السيّارة المحترقة إلى الجسدين الممدّدين، كلّه بدا بعيدا وغير حقيقيّ كالنّمر الّذي ظهر لهم قبلا. كان الوقت ينفد، وكان حقيقيّا كالطّريق المحترق تحت قدميها الحافيتين، كان دارو واقفـــا على مدخل أحـــد المعابد وبدا لها كمـــا بدا من قبل حين طارت إلـــى الدلتا لتلتقي به. كان يرتدي قميصه الأبيض قصير الأكمام وعيونـــه مختبئة خلف النّظارات ويحرّك يده المعافاة في شعره، ويده الأخرى ما تزال معلّقة لم تتعافَ بعد.

خطت هيلين خطوة إلى الأمام وتعثّرت بحجر وفقدت توازنها، لكنّهـــا لم تتوقّف أو تفتح عينيها، فقـــد خافت أن تفقد صورته، وخافت أن تنظر إلى الخلف وترى الجنود ما زالوا يتجادلون، فلو نظرت لرأت جنديّين يهرولان باتّجاهها بسهولة كذئبين مفترسين جائعين.

اختنقـــت بأيقونة بوذا الّتي كانت حـــادّة كالحصى في فمها كما لو كانت أســـنانا أو قطعا من الصّلصـــال. «من التّراب وإلى التّراب»، ألم تكن الأسنان دوما آخر ما يفنى في الإنسان! أغلقت عينيها بشدّة لدرجة أنّها استطاعت بالكاد أن ترى. كانت خائفة من الموت لكن في الوقت نفسه كانت غير خائفة، كانت الميّتةَ الّتي تتحرّك إلى الموت. كان سيأتي لكنّه قد أتى مسبقا آلاف المرّات. تنهّدت مرتاحة لفكرة أنّ أمرها سينتهي قريبا.

تذكّـــرت صور إنفكور «محيط الحليب» الّذي قام كلّ من دارو ولـــين بتصويره قبل أن تحـــبّ أيّا منهما بســـنوات. كان صراعا

بين الشـياطين والخير لكى تتمخض تلك الأمواج وتخرج إكسير الخلود. لقد سـمّمهم العنف جميعا، لكن أقـلّ الأضرار لحقت بلين.

لكنّه سمّم دارو.

وبالتّالي سمّمها هي.

اتّضحت لها الأمور فجأة. لقد كان مسمًّما قبل أن تلتقي به، وقد فشـلت تعويذته في أن تفعـل فعلها. لم تُرد أن تنضمّ إليهم عنـد درج المعبد، فقد عرفت ماهيّة ذلـك الاحتراق الّلامع، إنّه يدعوها للموت. كان لين يحرسها من البداية إلى النّهاية، لكن كل ما أرادته هو أن تعيش.

هـل عرف لين؟ لكن أرادتـه أن يعرف أنّها لم ترد ذلك، وإنه على غير ما تظهر الأمور فقد غيّرها وجعلها شجاعة كما لم تكن من قبل. ولو استطاعت أن تحقّق أمنية فقد تمنّت أن يعرف أنّها لم تختر ذلك الأمر بنفسها.

حاولت أن تسرع خطاها وتقنع نفسها أنّها تستطيع أن تنجو بمجرّد الرّغبة بذلك.

سمعت أصوات أقدام ترتدي أحذية فلّاحين مطاطيّة تركض خلفها، ثمّ وقعت مغشـية على وجهها دون حراك إثر ضربة أداة حادّة على ظهرها. أصيب خدّهـا وجبهتها وامتلأ الهواء بالدم. رفعوها إلى ركبيتها وأمسـك أحد الجنود شعرها وسحب رأسها إلى الخلف مقتلعا بعض الخصلات الذّهبيّة.

وحينئذ أغلقت عينيها ولم يعد بمقدورهم أن يلمسـوها. لم تعـد خائفة مـن تهديداتهم. كان لين إلـى جانبها وعندما مدّت يدهـا إليه، أصبحـت يدها جافّـة وصلبة وأصبحـت ذراعها كالأغصان. وعندما لمسـت شعرها كان ملمسه كأوراق الأشجار.

فتحـــت عينيها، لقد كانت على قيد الحيـــاة، نظرت بعمق ودون خوف إلى وجه الجنديّ.

عندمـــا ســـمعت أصوات غنـــاء كانتِ في حالة بـــين الواقع والحلم. حملوها إلى جانب جثتَي مات وتانر. كان القائد الجديد يعطي تعليماته عندما حدثت الأمور الّتي لم تســـتطع استيعابها، لم يكن مات في عداد الموتى لكنّه جالسٌ الآن يضغط على ذراعه المدمّى. اقتربت منه بينما أتى إليهما الجنود واســـتداروا حولهما وغنّـــوا كما لو أنّهم يعلنون شـــعائر النّصـــر. تمكّنت من حلّ لغز الحلم أخيرا.

أتـــى القائـــد وركع إلى جانـــب هيلين الّتـــي كان فمها مليئا بالسّـــائل فتقيّأت وخرجت أيقونة بوذا من فمها مع قطع صغيرة من الحصى.

التقط القائد الميداليّة الصّغيرة وحدّق إليها بتعجّب.

(20)

دونغ ثانه

قلبٌ واحدٌ

عندمـــا وصل لـــين إلى كامـــب (بيندلتـــون) كان واهن الروح والجســـد. تعرّفت عليه شارلوت والدة هيلين من الصّور، وتعانقا كما لو أنّهما يعرفان بعضهما منذ عصور. فقد كان رابط الحزن قويّا. كان رابطها الحقيقي هو الوحيد المتبقّي بالعائلة. أجلســـته إلـــى جانبها في ســـيّارة البويك وقادتها على الطّريق السّـــاحليّ وصولا إلى بيتها.

أصابـــه الذوار من عرض الطّريق وســـرعة حركة الســـيّارة، فنســـي تعبه وأصبح مأخوذا ببلده الجديد. فاجأه فيها التشابه أكثر من الاختلاف، فكما كانت فيتنام بلدَ ماء وأرض، كان المحيط من جهة وســـفوحُ التّلال المعشوشبة من جهة أخرى، مرّا بكلّ ما وعدت هيلين أن يشـــاهداه ســـويّا، أغصان الأفوكادو والبرتقال وبلـــدات صغيـــرة ببيوتها البيضاء وأســـقف القرميـــد الحمراء وشـــارات أسماء البلدات الّتي نطقت بها شفتاها (سان كلمينت، لاغونا، ســـان خوان كابيسترانو). ثمّ استدارا فجأة على منعطف صغير واستطاعا رؤية نباتات خشخاش ذهبيّة على مدّ النّظر.

«اتّصل بي غاري يا لين، وأخبرني أنّه ســـمع مراسلَين آخرَين

يتحدّثان مع هيلين بشأن الذّهاب إلى كمبوديا للخروج من فيتنام، وذهب الثّلاثة في اليوم التّالي ولم يسمع أحدٌ عنهم شيئا منذ ذلك الحين».

«توقفي» طلب منها لين. ذُعرت شارلوت وتوقّفت على جانب الطّريق. شدّ مفتاح أمان الحزام وفتح باب السيّارة. ظنّت أنّه سيتقيّأ لكنّه ركض إلى الحقل ونزل على أطرافه الأربعة وأحنى رأسه. أصيبت بالحيرة ونزلت من السيّارة بحذر لكنّه كان غافلا عنها ينظر إلى الأزهار ويداه تمزّق أوراق الزّهور الّتي طالتها.

في اليوم الأوّل لوجوده في كاليفورنيا وعلى الرّغم من إرهاقه، رجا شارلوت أن تأخذه إلى مكتب روبرت في لوس أنجلوس.

وقف روبرت من خلف مكتبه وابتسم واقترب ليعانق لين، لكنّ لين كان شخصا محترفا أتى للعمل ولم يعر انتباها حتّى للمنظر الّذي ظهر من علوّ عشرين طابقا وهو أعلى بناء في أكبر مدينة زارها.

«أريد أن أذهب إلى تايلاند» قال لين.

قال روبرت: «يبدو أنّك بحاجة أن تذهب إلى المستشفى».

كان قد مضى أكثر من سبع سنوات منذ أن التقوا آخر مرّة، لكنّ لين تصرّف كما لو أنّهما التقيا البارحة، أكان ذلك تأثير الحرب الّتي حطّمت الزمن؟

لم يستطع روبرت أن يعطي أهميّة للسّنوات الماضية في لوس أنجلوس، لكنّ السنتين اللتين قضاهما في فيتنام كانتا تعادلان حياة كاملة. بينما أصبح روبرت سمينا كان لين لا يظل نحيلا كالخيط، كأنّ التّعب والهموم أذابته. فجأة جعلت حدّة عينيه الغرفة تبدو في غاية الصّغر.

«ذهبت هيلين إلى كمبوديا» قال لين بنبرة بدت منكسرة «عليّ أن أبحث عنها».

لم يعرفه روبرت بشكل جيّد فلم يتسنَّ له أن يتعرّف على الكثير من الفيتناميّين خلال وجوده هناك. بقيت البلد بأكملها شيفرة مجهولة بالنّسبة له. أمّا لين فقد كان دائما مع دارو وهيلين.

الثّلاثة امتلكوا الإرادة والتّصميم ذاتهما. خطر له للمرّة الأولى أنّهم متشابهون، وأنّ الأمر لا يتعدى أنهم قد تلاقوا مع بعضهم في فيتنام. كانوا يتشاركون بفهم الحرب والهوس بها، ولم تكن لديه أيّة فرصة أن يصادق أيّا منهم. كانوا يتحمّلون وجوده بينهم فقط.

«من المستحيل أن أرسلك، فهذا إجرام بحقّك».

«كان أمرها يعنيك أيضا». قال لين كما لو أنّه يتّهمه، لكنّ فشل روبرت مع هيلين كان جزءا من فشل أكبر.

«إذا كان ما فعلته هو أنها بقيت هناك وذهبت إلى كمبوديا فهذا هو خيارها».

عامله روبرت بتهذيب يستر خلفه احتقارا ونظرة دونيّة لأنّه يمثل الشخص (الآخر). لكنّ لين استطاع أن يراهن على أنّه رجلٌ شريفٌ. حتّى في البداية لم يفهم لين لماذا تخلّى روبرت عن هيلين دون أن يقاتل من أجلها، مع أنّه كان سيخسر بكلّ تأكيد. فقط المجنون كان سيصرّ على خوض قتال يستحيل الانتصار فيه. ومع ذلك فأيّ نوع من الرّجال كان سيستخدم المنطق في أمور القلب.

«أصبح لديّ صداقات مهمة عبر السّنوات، وأنا بحاجة لمساعدتك لأستفيد منهم الآن» قال لين.

لم يقل روبرت شيئا. «كانت هناك دوما شائعات».

«يحبّ النّاس الشّائعات والقصص المحبوكة. ودائما يفضّلون الحكايات الأكثر تعقيدا».

«سأقولها من جديد: إنّه خيارها».

«إنّه خياري أن أذهب أيضا. أحتاج إلى بطاقة صحافية وتذكرة طائرة وأريدك أن ترسل بعض التّوصيات».

تنهّد روبرت وشعر فجأة بأسوأ شعور منذ عودته، لقد كان شغف لين حارقا لأنّ رنّة صوته غيّرت طبيعة الغرفة. مرّت ببال روبرت فكرةٌ سيّئةٌ؛ هي أنه ربّما فاته شيءٌ ما خلال سنواته في فيتنام لحماية نفسه من التّورط. هو لم يتورّط في الحياة على الإطلاق. لكنّه طرد تلك الأفكار بسرعة؛ ولأنّ الوقت تأخّر، فمهما كان حبّه لهيلين فقد اشمأزّ من فكرة الذّهاب إليها الآن. أدرك بحزن صادم أنّه لم يكن قادرا على الحراك. «إذا أرسلتك فعليك أن تعدني بالبقاء في تايلاند».

«هل تظنّ أنّني سأخاطر مخاطرة غير ضروريّة».

أجابه روبرت بسرعة: «نعم ستقوم بذلك من أجلها، فقط أنبئني بما يحدث».

«ربّما تكون مهتمّا بموت تاجر مخدّرات كالمستر باو منذ سبع سنوات».

«خبرٌ قديمٌ، ومن الذي يهمه ذلك؟».

«كان المستر باو رجلَ أعمال وقام أحد موظّفيه بتحويل أموال المخدّرات إلى بنك في تايلاند، هناك الكثير من المال الّذي كان ثمنا للدّماء ووقودا للثّورات».

«هل أنت ذلك الموظّف! أخبرني وإلّا طردوني وساءت سمعة المجلّة». قال روبرت.

«نعــم يمكن أن يطردوك». جلس لين لدقيقة وتجهّم بســبب الألم الّذي أحسّ به من جديد.

«كذبتَ على هيلين إذ أخبرتها أنّ هناك حاجة لإنقاذ ما يمكن إنقـاذه، لكنّني عرفت الآن أنّ عليك أن تحــاول حتّى لو لم يكن لديك فرصة».

أومأ روبرت واستدار مبتعدا «اعثر عليها».

كانــت الحقيقة ظاهريّا أنّه تمّ إرســال لــين لتغطية الهجرة الجماعيّة من كمبوديا بعد ســيطرة الخمير الحمر عليها. كانت المهمّة بمنزلة حبل نجاة بالنّسبة له، لكن العودة إلى شبكة جيش فيتنام الشّــمالي ثبت أنّ إنجازها مســتحيلٌ. فقد أخفى باو أيّ وجود رسميّ له، فلا يمكن الوثوق بالتّواصل معه بعد ذلك.

فقدَ لين إيمانه منذ زمن بعيد، وقد ظهر له الآن أمرٌ يستحقّ أن يتعلــق بالإيمان. بقــي لين على اتّصال مع الصبي (فيســنا) بعــد التّصوير في أنغكور بفترة وجيــزة، وتابع عمل ذلك المصوّر المبتــدئ. لكنّهما أضاعــا الاتّصال منذ ذلك الوقــت، فبدأ لين بالبحث عن أيّة قشّــة تنقذ هيلين كمعجزة. تورّط (فيســنا) مع الحركات القوميّة للخمير الحمر. ســيفترض من يراه أنه يعادي أمريكا، لكنّ لين كان يفهم معنى حبّ الوطن.

تســلّم (فيســنا) منصبا عاليا إلى حدّ ما. تذكّر لطفهم معه فقد قدّموا له كاميرا وبعض النّقود، عندما لم تكن عائلته تمتلك شيئا.

حقّــق لين بذلــك التّواصل مــع الكمبوديّين، واكتشــف أنّه تمّ احتجاز مات وهيلين كرهائن. ناقش أمر المال لكن لم يكن هناك أيّة ضمانات. تخلّى لين عن فكرة الاحتفاظ بالمال لحين إطلاق ســراح هيلين، فقام بدفع الرّشاوى، كان تصرّفه ينبع من قناعة الإيمان.

في تايلاند، ذهب لين إلى الحدود الفاصلة واستخدم منظاره لكي يرى الحدود الّتي كان يستحيل الوصول إليها، مثلما يستحيل الوصـــول إلى الجانب المظلم مـــن القمر أو إلى الجزء الفارغ من الخريطة.

تمّ نقل معظم الأجانب المتبقّين في (بنوم بنه) من الدّبلوماسيّين والصّحافيّـــين إلى البلدة الحدوديّة الكمبوديّـــة (بوي بيت) ليتمّ إطلاق سراحهم.

كان من المفترض أن يتمّ تهريب هيلين ومات مع تلك المجموعة. لكن بعد عدّة ســـاعات وعندما عبروا إلى الحريّة في مجموعات صغيرة مهزومة لم تكن هيلين ومات معهم.

بقي لين عند الحدود بعد رحيل الجميع. تنقّلت عيناه محدقة بالطّريق الضّبابـــيّ المغبرّ، أرادها أن تظهر عند الأفق كما لو أنّ رغبته وحدها ســـتجعل الأمر يحدث. خطّط للعبور إلى كمبوديا تلـــك اللّيلة تحت جنح الظّلام ليبحث عنها. لم تكن بلده ولم تكن الأرض أو اللّغـــة مألوفتين لديه، ولم يكـــن ليصمد أكثر من أيّام قلائل.

عاد إلى البلدة وحاول أن يرشـــو أحدهم ليدلّه على الطّريق، جلس في أحد المطاعم على طريق فارغ في البلدة، وطلب زجاجة جعة ووجبة وانتظر المساعدة، وعندما سمع أحد الأجانب يتحدّث بصوت عال وهو يأكل استمع لين لبعض الجمل باللّغة الفرنسيّة واســـتدار لينظر إلى وجه الرّجل الشّـــاب بشـــعره البنّي الطّويل ولحيته. أصبح المطعم حارًا بشـــكل لا يحتمل، وكان طعم الجعة مرًا، أخيرا وضع زجاجة الجعة على الطّاولة ومشـــى إلى طاولة الرّجل.

«هل رأيتم امرأة تدعى هيلين!».

هل كذبوا عليه! هل أخذوا المال وهربوا! أهناك خطبٌ ما!

نظـــر الرّجل إليه خائفا وأدرك لين أنّه كان على خطأ، وعلى الرّغم من صغر ســنّه وعلوّ صوته فقـــد كان اهتمام ذاك الرّجل ينصبّ على ما يحدث عند الحدود، منتظرا مَن لم يخرجوا بعد.

«لا، لم أرَ أحدا بهذا الاسم. ومع ذلك لم يتمّ تحرير بعض أتباعنا الكمبوديّين، ولا أظنّ أنّ ذلك سـيحدث. سننتظر، فهناك إشاعةٌ عن إطلاق سراح آخرين في الغد».

لم يأت الرّجل الّذي دفع له لين المال على الإطلاق.

عند الفَجــر، انتظر لين مع مجموعة صغيرة من الصّحافيين الأجانب. أتت المجموعة الّتي رآها في اليوم السّـــابق ومن بينهم الرّجل الفرنســيّ الّذي حيّاه بتجهّم. كان هنـــاك هدوءٌ جنائزيّ في المجموعة كأنّهم يجهّزون أنفســـهم للأخبار السيّئة الّتي كانوا يتوقّعونها.

مع ظهور خيوط الشّمس الأولى الّتي أضاءت أعالي الأشجار، ظهرت شـــاحنةٌ صغيرةٌ على مســـافة بعيدة تتقدّم وتجرّ وراءها سحابة من الغبار. توقّفت على بعد مئتي ياردة من الحدود.

توجّه حشد الأجانب مع حرّاس الحدود متجهّمين ومتوحّشين كالأشـــكال المنحوتـــة على المعابـــد. كانت أســـلحتهم على أهبة الاســـتعداد وابتسم لين لسخافة حراســـتهم لبلد لم يكن هنالك أحـــد عاقل يرغـــب بالدّخول إليـــه. قفز الجنود من الشّـــاحنة وأخرجوا منها جســـدا ضُرب بالأرض بشدّة فسمعوا صوت أنين عال. اندفع الرّجل الفرنسيّ إلى البوّابة لكنّ الحرّاس حذّروه من التّقدم. أتى شبح يترنح من مؤخّرة الشّاحنة، كان يرتدي قميصا أزرق فاتحا لم يتعرّف عليه. انحبســـت أنفاس لين عندما تعرّف على هيلين.

«هذه هي» قال لين.

«لكن يوجد اثنان فقط» قال الفرنسيّ.

انحنت هيلين ببطء على الجسد الواهن، جسد مات. وقف الرّجل بعد دقائق طويلة مستندا عليها وبدأا يتحرّكان ببطء باتّجاه البوّابة. هلّلت المجموعة المُنتظرة، لكنّ تحرّك هيلين ومات ببطء شديد جعل الدّليل يتباطأ في خطواته حتى توقّف تماما قبل أن يصلا إلى الحدود، كانت القسوة قد جعلتهم يعانون خلال خطواتهم الأخيرة باتّجاه الحرّية، فقد كان العون قريبا جدا لكنّه عاجزٌ عن الاقتراب. وما إن اقتربوا حتّى تمكّن لين من رؤية شعر الرّجل الأشقر والأبيض، كان وجهه مصابا ومحروقا من الشّمس وإحدى عينيه مغلقةٌ وذراعه معلّقة. في النّهاية عندما اقتربا بشكل كاف ركل أحد الحرّاس البوّابة الخيزرانيّة برجله الصّغيرة فترنّح مات وهيلين عابرين الباب.

لمس لين الكدمات البنفسجيّة على خدّيها وانتفاخ عينها. هذا الجسد الّذي كان يمثّل كلّ شيء بالنسبة له قد فقده الآن. إن من الصّعب أن يثق الإنسان بأنه بعد أن يأخذ الكثير لايزال بالإمكان أن يتلقّى الكثير أيضا. لكنّ هيلين كانت هناك على قيد الحياة. كانت حقيقته. لقد عادت هيلين من الموت.

المترجم في سطور

زهرة حسن

- من مواليد سوريا عام 1987.
- حاصلة البكالوريوس في الأدب الإنجليزي من جامعة تشرين.
- تعمل معلمة لغة إنجليزية في مدارس وزارة التربية بالكويت.
- ترجمت العديد من المقالات الأكاديمية في شتى المجالات.
- لها العديد من الكتابات الإبداعية والأكاديمية باللغتين العربية والإنجليزية.

المراجع في سطور

د. أحمد البكري

- من مواليد القاهرة العام 1940.
- حاصل على الدكتوراه من جامعة لندن في اللغويات التطبيقية (قواعد اللغة الإنجليزية) العام 1974.
- عمل أستاذاً بجامعة الكويت - كلية الآداب - قسم اللغة الإنجليزية من العام 1980 وحتى العام 1990.
- عمل أستاذاً بجامعة السلطان قابوس - كلية الآداب - قسم اللغة الإنجليزية من العام 1990 وحتى العام 2001.
- له عدّة أبحاث في قواعد اللغة الإنجليزية منشورة في المجلة العربية للعلوم الإنسانية التي تصدر من جامعة الكويت.
- له عدّة مؤلفات في قواعد اللغة الإنجليزية للطلبة العرب، وعدّة مراجعات للترجمة في سلسلة «من المسرح العالمي».
- قام بمراجعة العديد من أعداد سلسلة «إبداعات عالمية» آخرها كان راوي مراكش (رواية) العدد رقم 415.

ما صدر من هذه السلسلة

314	حياة إنسان	تأليف : ليونيد أندرييف
315	دون كيشوت	تأليف : ميخائيل بولجاكوف
316	واحدة بعد أخرى تتفتح أزهار البرقوق	تأليف : كنيث ياسودا
317	ملحمة علي الكاشاني	تأليف : خلدون طائر
318	نون و القلم	تأليف : جلال آل أحمد
319	سيري سامبيجي	تأليف : تشاندرا سيخار كامبار
320	أيام بورمية	تأليف : جورج أوروبل
321	ست وصايا للألفية القادمة	تأليف : ايتالو كالفينو
322	السكرتير الخصوصي	تأليف : ت. س. اليوت
323	قصص برازيلية	تأليف : مجموعة من القاصين البرازيليين
324	شذرات من خطاب في العشق	تأليف : رولان بارت
325	لون الماء	تأليف : جيمز ماكبرايد
326	وجهان لحواء	تأليف : أمريتا بريتام
327	المنزل ذو الشرفات السبع	تأليف : اليخاندرو كاسونا
328	من الأدب الباكستاني الحديث	تأليف مجموعة من القاصين الباكستانيين
329	مختارات من القصة التركية المعاصرة	تأليف : مجموعة من القاصين الأتراك
330	مسرحية محكمة العدل في بلخ	تأليف : بهرام بيضائي
331	مطبخ - خيالات ضوء القمر	تأليف : بنانا يوشيموتو
332	الطباخون الأشرار - الجرة المكسورة	تأليف : جونتر جراس
333	شمل تشابه ضائع .	تأليف : هاينرش فون كلايست
334	حكايات الهنود الأمريكيين و أساطيرهم	تأليف : أندريه شديد
335	زهرة الصيف	تأليف : فلاديمير هلباتش
336	طام - طام زنجي	تأليف : مجموعة من القاصين اليابانيين
337	اليبروح	تأليف : ليوبولد سيدار سنغور
338	منزل النور	تأليف : نيكولو ماكيافللي
339	كثبان النمل في الساقانا	تأليف : جوهر مراد
340	أناتول وجنون العظمة	تأليف : تشنوا أشيبي
341	غرام ميتيا	تأليف: أرتور شنيتسلر
342	آرنجندن والحارس الليلي	تأليف: إيفان بونين
343	ورقة في الرياح القارسة	تأليف: فيمي أوسوفيسان
344	مدرسة الدكتاتور	تأليف: تنغ - هسنغ يي
345	رسائل عيد الميلاد	تأليف: إيريش كستنر - تيد هيوز
346	حكايات وخرافات أفريقية (1) - الطفل الملك	تأليف: سليمان جيغو ديوب
347	مسرحية عذراء أورليان	تأليف: فريدريش شيللر

ما صدر من هذه السلسلة

348	حكايات وخرافات أفريقية (2) الأدغال والسهول العشبية تحكي	تأليف: سليمان جيفو ديوب
349	القصة القصيرة الإسبانو أمريكية في القرن العشرين	تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالأسبانية
350	مسرحيتا: -1 محنة الأخ جيرو -2 تحوُّل الأخ جيرو	تأليف: وول سوينكا
351	روض الأدب (مختارات قصصية)	تأليف: أو. هنري
352	مسرحية «آنتيجون»	تأليف: ب. بريشت
353	أجمل حكايات الزن يتبعها فن الهايكو	تأليف: هنري برونل
354	مسرحية «المقهى»	تأليف: لاوشه
355	مسرحيتا: -1 صناعة تاريخ - 2 ترجمات	تأليف: برايان فرييل
356	رواية «الشباب»	تأليف: ج. م. كويتتزي
357	مختارات من الشعر المجري المعاصر (شعراء السبعينيات)	تأليف: مجموعة من الشعراء المجريين
358	مسرحيتا: -1 تلاميذ الخوف -2 الغزاة	تأليف: إيجون وولف
359	اسمي آرام (مجموعة قصصية)	تأليف: وليام ساروبان
360	حامل الإكليل (قصص مختارة)	تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالألمانية
361	الصُّـــورة (مسرحية)	تأليف: سيلافومير مروجيك
362	الأيام الخمسة الأخيرة لرسول (رواية)	تأليف: تحسين يوجل
363	سبع مسرحيات ذات فصل واحد (من بولند)	تأليف: إيرينيوش إيريدينسكي أندجي ماليشكا ستانيسلاف ليم (ستانيسواف) سوافومير مروجيك
364	سبع نساء... سبع قصص	تأليف: مجموعة من القاصات الفارسيات
365	زمن الضحك (ملهاة خفيفة من ثلاثة فصول)	تأليف: نويل كاورد
366	بالأبيض على الأسود (رواية)	تأليف: رُوبين دايفيد غونساليس غاليغو
367	مسرحيتا: -1 سهرة في المقهى -2 موت ممثل مشهور	تأليف: تيان هان
368	إمرأة وحيدة «فروغ فرخزاد وأشعارها» سيرة حياة	تأليف: مايكل هلمان

ما صدر من هذه السلسلة

ما صدر من هذه السلسلة

398	الأبدية بعيدة جدا (وقصص أخرى)	تأليف: تيه نينغ
399	اذهب حيث يقودك قلبك (رواية)	تأليف: سوزانا تامارو
400	الحضارة أمي (رواية)	تأليف: إدريس الشرايبي
401	فنان الاختفاء (ثلاث روايات قصيرة)	تأليف: أنيتا ديساي
402	هيناها (رواية)	تأليف: بزرگ علوي
403	السباحة إلى المنزل (رواية)	تأليف: ديبورا ليفي
404	الرُقة (رواية)	تأليف: دافيد فونكينوس
405	على قيد الحياة (رواية)	تأليف: يو هوا
406	الأب (رواية)	تأليف: يورج أكلين
407	إنيّ أتَعَافَى (رواية)	تأليف: دافيد فوينكينوس
408	الوردة الزرقاء (رواية)	تأليف: بينلوبي فيتزجرالد
409	إبداعات نسائية (مجموعة قصصية)	تأليف: مجموعة من الكاتبات التركيات
410	الإياب (ديوان شعر)	تأليف: هاينريش هاينه
411	سبع حكايا تعود من بعيد	تأليف: جان كريستوف روفان
412	المخادع الحقيقي (رواية)	تأليف: توف جانسون
413	اليوم السابع (رواية صينية طويلة)	تأليف: يو هوا
414	الرجل الذي كان يَنظُر إلى الليل (رواية)	تأليف: جلبير سِينُويه
415	رَاوِي مَرَاكِش (رواية)	تأليف: جويديب روي ـ باتاجاريا
416	فَتَاة في حَالَة حَرْب (رواية)	تأليف: سارة نوفيتش
417	آكلو اللوتس الجزء الأول (رواية)	تأليف: تاتيانا سولي

قسيمة الاشتراك

البيان	إبداعات عالمية		مجلة الثقافة العالمية		مجلة عالم الفكر		سلسلة عالم المعرفة		مجلة الفنون		المسرح العالمي	
	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار
المؤسسات داخل الكويت	20	-	12	-	12	-	25	-	20	-	20	-
الأفراد داخل الكويت	10	-	6	-	6	-	15	-	10	-	10	-
المؤسسات في دول الخليج العربي	24	-	16	-	16	-	30	-	24	-	24	-
الأفراد في دول الخليج العربي	12	-	8	-	8	-	17	-	12	-	12	-
المؤسسات في الدول العربية الأخرى	-	50	-	30	-	20	-	50	-	50	-	50
الأفراد في الدول العربية الأخرى	-	25	-	15	-	10	-	25	-	25	-	25
المؤسسات خارج الوطن العربي	-	100	-	50	-	40	-	100	-	100	-	100
الأفراد خارج الوطن العربي	-	50	-	25	-	20	-	50	-	50	-	50

الرجاء ملء البيانات في حالة رغبتكم في: تسجيل اشتراك ☐ تجديد اشتراك

الاسم:	
العنوان:	
اسم المطبوعة:	مدة الاشتراك:
المبلغ المرسل:	نقداً/ شيك رقم:
التوقيع:	التاريخ: / / ٢٠٠م

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب مع مراعاة سداد عمولة البنك المحول عليه المبلغ في الكويت.

وترسل على العنوان التالي:

السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص.ب: 28623 - الصفاة - الرمز البريدي 13147

دولة الكويت



تاتيانا سولي

- تعيش في مقاطعة «أورانج كاونتي» في كاليفورنيا.
- رُشّحت لنيل جائزة بوشكارت.
- حازت هذه الرواية على جائزة «James Tait Black memorial»، وجائزة «دانا».
- لها روايتان أخريان هما «شجرة النسيان» و«الفردوس الأخير».
- «آكلو اللوتس» صنّفتها صحيفة نيويورك تايمز كأحد الكتب المرموقة لعام 2010.
- ظهرت أعمالها الأدبية في أهم المجلات الأدبية منها «بوليفارد» Boulevard.

آكلو اللوتس

حتى بعد أن عادت إلى عالمها في كاليفورنيا، سيطر عليها جنون الإياب إلى فيتنام التي انتمت إليها بكل ما فيها. شعرت بأنها كسمكة خرجت من الماء غير قادرة على التنفُّس خارج حرارة تلك الأرض البعيدة ورطوبتها. تملّكها الإغراء في البعيد. شهوة الخوض بعيدا عن حياة تشعر فيها بأنها بلا شغف تعيش لأجله، كما لو أنها ستغيّر العالم. كانت تطارد نجما مذنّبا؛ ربما هربا من شعور بالذنْب بعد موت أخيها، أو توقا للمغامرة وعدم الاكتفاء بحياة رتيبة في وطنها كاليفورنيا.

بعد رحيل دارو الذي مرّ أمام عينيه قبل وفاته سيلٌ غير نهائيٍّ من الأخضر ووجهُ هيلين، عادت إلى سايغون لتجد لين بانتظارها. لين الذي كان قلبه مغلقا وجد نفسه يحب من جديد، وقع في حب تلك الغريبة التي أعادت إليه ذكرى زوجته المتوفاة، فحاول تعويض خذلانه لزوجته السابقة بحمايته لهيلين التي ظنت أنه يستخفُّ بها ولا يجدها كفئا لتكون مصورة حربية، ليجعلها تتساءل: هل الناس الذين يحبوننا أكثر هم من يحاولون إيقافنا عن عملٍ ما نحبّه؟

لكنه حملَ ثقلها في قلبه وبين يديه خارجا بها من الخطر كلَّ مرة. هو الذي مسح دمعها منذ البداية وضمّد جراح الروح للحرب التي لم تنتهِ، وظلت موجودة في كل الخسائر التي خلَّفَتْها وراءها.



ISBN: 978-99906-0-551-8

رابط بيع الإصدارات على الموقع الإلكتروني
https://www.nccal.gov.kw/publications